# طريقك إلى التميُّز

## 36 خُطوة نحو التميُّز

تأليف
د. منير لطفي

عالم الثقافة
WORLD OF CULTURE

# طريقك إلى التميُّز

## (36 خُطوة نحو التميُّز)

تأليف

د. منير لطفي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1438هـ - 2017م

رقم الإيداع

2017/٩٩٩٩٩٩

الترقيم الدولي

978-977-6576 -05 -??????

دار اليقين للنشر والتوزيع

عالم الثقافة
WORLD OF CULTURE

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ
بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: 116].

# الإهداء

إلى مَن هَلّ هلالُها وأنا على مشارف الخَمسين،

فكانت ابنةً بطَعم الحفيدة...(آية منير)...

أَنْبتَكِ اللهُ نباتًا حَسَنا.

# المقدّمة

كثيرون هُم مَن ينتابهم دُوارٌ بالرأس وقشعريرةٌ في البدن وربّما غياب عن الوعي؛ وذلك حين يُطالِعون شخصا أَلَمّ به جرح فسالت بضعُ قطرات مِن الدماء على ضفّتيْه، وقليلون هُم مَن يَطرِف لهم جفن أو تَجزع لهم نفْس أو يَنْدى لهم جبين حين يَطّلعون على جروح غائرة وكدمات بارزة وتَشوُّهات شائنة تَمسّ المشاعر والأخلاق والأفكار والمعتقَدات، وقليلٌ مِن تلك القِلّة هم مَن يَخْطون خُطوتَيْن للأمام، فيبذلون الوقت والجهد والمال في سبيل إرساء مجتمَع الفضيلة والرَّشاد.

## ويَأتي هذا الكتاب...

اصطفافا مع تلك القِلّة القليلة التي تَأنف نقائصَ النفوس وتَعاف تَشوّهات العقول، فتَمنح الحياةَ قوّة الروح وسُلطةَ الضمير وسدادَ الرأي ونفاذَ البصيرة؛ أَردْتُه-بوصْفي طبيبا-جهازَ صدمات ينعش القلب، ووخْزَ إبر يَفتك بالداء، وحقيبةَ إسعاف ملأى بالضِّمادات؛ فجاء نثرا لِطَيْف مِن المقالات، وحشْدا لكتيبة مِن الرُّؤى والأفكار؛ أُشير فيها لتلك الجروح التي جاوزَت العظام فلامسَت النّخاع، وأُحاول نسْج خيوط ترتق الفتق وتُبرئ الجرح.

وفيه نمرّ بثلاث مراحل؛ مرحلة استعداد أُولى عبْر اثنتي عشرة خُطوة كعدّة الشهور عند الله، ومرحلة انطلاق ثانية، ثمّ مرحلة الوصول عبْر اثنتي

عشرة خطوة ثالثة، لتكتمل بذلك رحلتُنا إلى الظفر بالتميُّز بعد شوط ماراثوني خطوْنا فيه معا ستّا وثلاثين خُطوة؛ تَفاوتَتْ طُولًا وقِصَرًا، وتَنوعَّتْ عنوانا وموضوعا، وتَماوَجَتْ بين الذاتي والموضوعي... لكنّها تقاربَتْ مضمونًا وهدفا؛ ذلك لأنّها قبَستْ مِن مشكاة واحدة، ألَا وهو بساط الحياة؛ العامرُ بدهْشة الطفولة وفوْرة الشباب وحكمة الشيوخ، والنافِذُ في غلالات المشاعر وخلجَات القلوب ومكنون القناعات، واللاهثُ وراء قِيَم الحقّ والخيْر والعدْل والجمال.

ويَبقى القائمون على الحقّ مناجمَ مِن ذهب ومنابرَ مِن نُور يَشدّ بعضُهم أزْر بعض كبنيان مرصوص، فقد سبَقني كوكبةٌ مِن الأوَّلين الذين فاقوُني عِلْمًا ودِينا وبَذُّوني حِكمةً وأدبا؛ وذلك حين وضعوا أيديهم على تلك الجروح الشّوهاء وعنوا بتنظيفها وجَهدوا على أنْ نبرأ منها، وسيلحق بنا آخرون ربَّما أكثر جِدّة وأعظم حِنكة وأشدّ حذْقا...فالميدان يتّسع والمضمار ينتظر والجروح تُواصل الفتْك.

هو-أي الكتاب- إذَنْ همساتٌ في كلمات وخطوات عبْر صفحات، يَتلمّس طريقَه نحو الفطرة السويّة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، وتجاه نبْتة الخيْر التي لا تَخلو منها نفس، وصوْب راية المنطِق التي لا يَأْباها عقْل؛ علّه يَنفض الغبارَ ويُزيح الغبَشَ ويَجلو الرّان، فيمهِّد لنا طريقًا نحو تَميُّز يَنتظرنا وصوْب قمّة تَحنّ إلينا، ويَنأى بنا عن قاع يَئِنّ مِنّا وسَفْح مَلَّنا حتّى جَفَا واشْتكَى...

**وبالله وحده التوفيق والسَّداد.**

**المؤلف**

**د. منير لطفي**

**سلطنة عمان/2017م**

# مرحلة الاستعداد

## ( 12 خطوة )

# 1- أَيْقِظْ ضميرَك

"لا وِسـادةَ
أَنْعَم مِـن ضـميرٍ
حَيّ"

بـيْن المَبنَـى والمعنَـى علاقة؛ قد تكون طرديّة فيتمدّد فيهـا المعنـى بزيـادة حجـم المبنـى وتلـك قاعـدة بلاغيّـة راسـخة، وقـد تكـون عكـسيّة فيَغيـب المبنـى ونَعجـز عـن الإشـارة إليـه في قالـب مكـاني ومع هذا يتعاظم المعنى ويَكبر كما في حالة الضمير...والمَبْنَى في الكلِمة هو كيْنونتها اللفظيّة، أمّا المعنى فهو المَغْزَى الذي ترمِي إليه الكلِمة والمقصِد الذي تَرومه.

لَـم يَنتـهِ الجـدَل بـين العلمـاء والفلاسـفة والمفكّـرين حـول ماهيّـة الـضمير[1]، فالفلاسـفةُ الـذين يَحْتفـون بالبـاطن والميتافيزيقـا يَقتنـصون الــضميرَ إلــىٰ عــالَمهم؛ وهــو مــا عبَّــر عنــه الفيلــسوف الفرنــسي (جـول سـيمون)[2] فقـال بـأنّ معرفـة الـنّفس هـي مِـن عمَـل الـضمير، أمّـا العلمـاء الـذين يَهيمـون بـالمَلموس ولا يَقنعـون إلّا بالقيـاس؛ فيقولـون بــأنَّ مَــسْحا ضــوئيا للــدماغ يُنبــئ عــن وجــود منطقــة في الفــصّ الجبْهِي(الأمامي) مسئولة عـن الـضمير، ويُـدلِّلون علىٰ صـحّة اكتـشافهم بغياب تلك المنطقة عند إجراء نفس المسح علىٰ أدمغة القرَدة الأقرب تشريحيا إلىٰ الإنسان.

وإلىٰ أنْ يَنتهي هذا الجدلُ غير البيزنطيّ؛ فإنّنا نميل إلىٰ اختفاء الضمير عن عالَم المباني والمَلموسات لِعجْزِنا عن تأكيد تصنيفه تشريحيا ضمن إطار العقل أو القلب، بَيْد أنّه في عالم المعاني يُمثِّل كهرباء الروح ويَتبوّأ منزلة الرُّمَّانة فوق القَبَّان ويَحتلّ منطقة التَّاج أعلىٰ الهام؛ فهو مجموعة القيَم والمبادئ والمُعتقَدات التي تُشكّل جهازا داخليا عميقا للتّقييم والتّقويم، نُميِّز به الخيرَ مِن الشرّ والحقَّ عن الباطل، فنميل مع الخير

---

(1) يُعرِّف (فرويد) الضميرَ بأنّه الجزء العقلي في النفس البشرية، ويُسمِّيه الأنا العُليا.

(2) في كتابه (الواجب) يقول (جول سيمون): "لنا مِن الأهواء ثلاثة أصلية؛ هي حُبّ أنفسنا وحُبّ غيرنا وحُبّ الله. كما أنَّ للإدراك مِن الأعمال ثلاثة أصلية أيضا؛ هي عمل الضمير الذي به نعرِف أنفسَنا، وعمل الحواس الذي به نعرِف العالَم، وعمل العقل الذي به نعرِف ما هو إلهيّ".

والحقّ ونحوز ضميرا حيّا نابضا، أو نركَن للشرّ والباطل-والعياذ بالله- فنبُوأ بضمير ميت غافل.

فالضميرُ الحيّ؛ هو خبزُنا الحقيقيّ وماؤُنا الزّلال ونبْتُنا الزاهر، وهو ضوؤُنا الهادي في نفَق الحياة وجرَسُنا العالق بالرقاب وقميصُنا الواقي مِن الرصاص، وهو كابِحُ الشهوات وماحِقُ الشبهات ومُحامِي الأرواح وقاضِي الأبدان، وهو دمُنا النقيّ وتيارنا الكهربائي، وهو سلّمُ الرقيّ مِن مرتبة الإيمان إلىٰ عرْش الإحسان، وهو أيضا السعادة الحقّة علىٰ حدّ تعبير أمير الشعراء (شوقي) إذْ يقول:

"فإنَّ السعادةَ غيرُ الظهور وغيرُ الثّراء وغيرُ الترَفْ
ولكنّها في نواحي الضمير إذا هو باللؤم لمْ يَكتنِفْ"

أمّا الضمير الميت الذي يَعتمد الخطيئةَ شريعتَه والجريمةَ قانونَه؛ فهو بيْتُ الشيطان، والخرابةُ التي تأوي الجرذان، والغربانُ التي تنعق في الفضاء، والرصاصةُ التي تكتب نهاية الحياة.

وفي كلمة الضمير معنىٰ الغيْب والستْر؛ فيُقال أضمرَه الشخص أي أخفاه وطواه، ورغم أن كلمة الضمير لم ترد في الخطاب الشرعي بذات اللفظ؛ إلّا أنه بوصفه قوّة معنوية تصدّ عن الشرّ وتحضّ علىٰ الخير يوازي معانىٰ الخشية مِن الله وخوفه بالغيب ومراقبته في السرّ ومحاسبة النفس، والتي ورَدت غير ذي مرّة في القرآن وغير القرآن، وفي هذا علَّق أحدُهم

علىٰ الآية القرآنية: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾، فقال بأنَّ الحافظَ هو الرقيب والرقيب هو الضمير.

الرّهان علىٰ سلطة القانون فقط كضابط لإيقاع الفرْد ودليل لأمان المجتمع رهانٌ خاسر، أمّا الدّفْع باتجاه إيقاظ الضمير وإحياء الرقابة الذاتية الفردية لهو الضمانة الأقوىٰ والدّعامة الأرْسَخ؛ فبينما يَعمل الضميرُ اليَقِظ بلا ضجَر في الحلّ والترحال ويَنتفِي معه التحايل والتلاعب وتَفوق مصداقيّتُه ألفَ شاهد، نجدُ القوانينَ كالسراويل؛ تضيق وتتّسع حسب الأحوال وتتعرَّض للمدّ والجَزْر حسب الجاه والمال والسلطان[1]، كما تَتطلّب شهودا للنفْي أو الإثبات، وجيْشا جرّارا مِن الشُّرطة والقُضاة.

وبينما يبدأ عمَلُ القانون بعد اقتراف الخطأ وارتكاب الجريمة، فإنَّ الضميرَ الحيّ يُبادر بالتحرّك مع بزوغ فكرة الخطأ فيُنبِّه ويُحذِّر ويَتوعَّد ويُهدِّد، ثمّ يُواصل سعيَه أثناء مباشرة الجريمة فيُثبِّط ويُخذِّل، بل ويُثابر بعد الانتهاء مِن الخطأ والإثم فيَستدْعي جيوشَ الحسرة والنّدم ويَستجلِب جنودَ الضِّيق والألم[2]. ..ولذا؛ فعِظة الضمير أبْلغ من عِظة ألْف خطيب، وبداية الطغيان يُؤرِّخ لها غفلةُ الضمير لا انتهاء القانون كما يقول الفيلسوف الإنجليزي(جون لوك) .

---

(1) في هذا يقول أحدُ حكماء اليونان السبْعة: "القوانين كخيوط العنكبوت؛ تعُوق الهوام، وتسمح بمرور كلّ الكيانات الكِبار".

(2) في تأنيب الضمير وعذاباته يقول (مارك توين): "إنَّ لي ضميرا يُمزّقني كوحْشٍ كاسر".

الفارقُ بين سوْط القانون وسطْوة الضمير هو الفارق بين العصور الوسطىٰ بظلامِها الدامِس؛ حين كان الفرسانُ لدَىٰ غيابهم في ساحات الحروب يُجبِرون نساءَهم علىٰ ارتداء أحزمةٍ مُغلَقةٍ بقفل حديديٍّ يَحتفظون بمفتاحِه لديهم طمَعا في عفَّةٍ قسْرية، وبين عصور الرَّشَاد[1] بنورها الوهّاج وبريقها الساطع حين سكن الضميرُ سويداءَ العقل والقلب فأَغدَق عليها حماية وعفَّة تفوق ملء الأرض أحزمة وأقفالا ومفاتيحا.

فبِاسْم الضمير ذهبت المرأةُ الغامديّة لرسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- تطلب إقامةَ حدّ الزّنىٰ عليها، وباسم الضمير رفضتْ جَدّةُ الخليفة (عمر بن عبد العزيز) غشّ اللبن بالماء، وباسم الضمير هرب الآلاف مِن الشبان الفرنسيِّين فرارا مِن الالتحاق بالجيش الفرنسي إبّان حربه الاستعماريّة في الجزائر حيث اعتبروها حربا قذرة تَخلو مِن الشرف وتَفتقر إلىٰ العدالة، وباسم الضمير نافَح السياسيُّ البريطانيُّ (جورج جالاوي) عن الحقوق الفلسطينية ولاقىٰ في سبيل ذلك ما جبن عنه بعضُ بني جلْدتنا...بينما باسم القانون الذي لا يَقترب مدادُه مِن حيّز التطبيق؛ يَستبدُّ الحُكّام، وتُسرَق الشعوب، ويُسجَن المَظلوم، ويُتنصَّل مِن حماية الطيِّبين بدعوىٰ أنَّهم مُغفَّلين[2]!

---

(1) يقول المؤرِّخ العالمي (أرنولد توينبي) في كتابه (محاكمة الحضارة): "استطاع الإسلامُ أن يحقِّق مالم تستطع أن تحقّقه القوانينُ المفروضة بالقوّة ومِن خارج النفْس".

(2) يقول الكاتب (أدهم الشرقاوي) في تأمّلاته: "كلّ قوانين الدنيا تُجمِع أنَّ (القانون لا يَحمي المغفَّلين)، بينما وحده القانون الإسلامي هو مَن يَحمي الجميع".

ألَا ما أسْهل صكّ ترسانة مِن القوانين نُدلِّل فيها ونُبرهِن بها علىٰ انعدام الثّقة وهشاشة الضّمير وشيوع ثقافة التسلُّط، وما أصْعب صياغة الضمير الذي يَحتاج لعمليةٍ تربويّة شاقّة لَيْس مِن بينها بالطّبع تدريس ماهيّة الضمير وأنواعه في كتُب النّحو والصرف.

مِن الضرورة بمكان أنْ ندرك أنّ الضميرَ كائنٌ حيّ يَسكن فينا ويَتنفس معنا ويَنام في أحشائنا؛ فيَقْوَىٰ بالطاعة والعِلم النافع ويَتعافَىٰ بالبيئة الصالحة والصُّحبة الطيِّبة والعقيدة الصافية، بينما يُمرِضه العِلمُ الفاسد ويُوهِنُه اقترافُ المعاصي ويُسقِمُه صُحبةُ الأشرار والمَنْبَت السُّوء، وبإهمال مرَضه واستفحالِ شرَره يموت الضمير؛ فيمنح صاحبَه قفَصا بين النّمور وغابة وسْط الوحوش ودركا في أسفل سافلين.

متىٰ ندرك أنَّ سلامةَ الضمائر أقْوىٰ مِن الذخائر؟

و متىٰ نعِي بأنَّ ضمائرَنا ليستْ حقْلا للتجارب؟

وا أَوَّاهُ علىٰ الضمير؛

فبعد أنْ كان دولةً صار بالكاد عُشّا وبعدما كان بذْرا صار مُحاقا وبعد أن كان ربيعا صار خريفا، أمّا عصْر دولة الضمير وبَدْره وربيعه، فكانت حين ولِيَ (عمرُ ابن الخطاب) رضي الله عنه ولاية القضاء في زمن خلافة (أبي بكر الصدّيق) رضي الله عنه، ومكَث الفاروقُ سَنَةً كاملة يُباشِر فيها عملَه بالمدينة فلم يَختصم إليه أحد، حتىٰ طلب إعفاءه مِن سُدّة القضاء، فسأله أبو بكر:

أَمِنْ مَشقَّة القضاء تَطلب الإعفاء؟

فأجابه عُمَر:

"لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين، عرف كلٌّ منهم مالَه مِن حقّ فلم يطلبْ أكثر منه وما عليه مِن واجب فلَمْ يُقصِّر في أدائه، أَحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه؛ فإذا غاب أحدُهم تفقَّدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا أُصِيب عزُّوه وواسُوه؛ دِينُهم النصيحة وخُلُقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ففيم يَختصمون؟ ففيم يَختصمون؟".

أمّا إذا أردْتَ إطلالة علىٰ الضمير في عُشِّه ومحاقه وخريفه؛ فعليك بالمحاكم المُكتظَّة، ومكاتب المحامين العامِرة، والسجون المنتشِرة، وأخبار الجرائم والحوادث التي صارت صلب الإعلام المرئيّ والمسموع والمقروء.

ورحِم الله مَنْ قال:

"لا خَيْرَ في نَيْلِ الحياةِ وعيْشِها...

إذا ضاعَ مِفتاحُ الضمائرِ وانْمَحَىٰ"

# 2- لا تكُنْ محايدا

"إذا كنتَ محايدا في حالات
الظّلم فقد اخْترتَ أن تكـونَ
بجانب الظالم"

**ديزموند توتو**

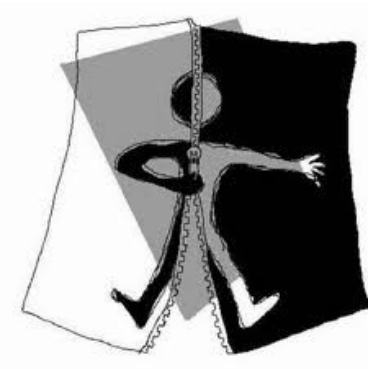

الاختلاف[1] سُنَّة كوْنيّة وطبيعة بشريّة، يَفرِضه تَغايُر الأفهام وتَبايُن البيئات وتَنوّع الثقافات وتَقلُّب الأهواء، وهو ما يُفضي لتشعُّب الآراء وتعدُّد المواقف التي تتبلور انتهاءً فتصبّ في أحد أربعة قوالب؛

(1) في فائدة (الاختلاف) يقول المحامي والسياسي الأمريكي (دودلي فيلد): "إنني لم أتعلّم أبدا في حياتي مِن أيّ رجُل يَتفق معي".

إمَّا حقًّا عرفه أهلُه واتَّبعوه، أو باطلًا مال إليه ذوُوه وآزَرُوه، أو فريقا ثالثا؛ لم يُعمِل عقلَه، ولم يَسلُك درْب السؤال مستفتِيًا أهل العِلم والفُتيا، ولم يُكلِّف نفسَه سماع دقّات قلبه وخلجات نفسه ليَعرف الحقّ ويُميِّز الباطل، فصار إمَّعة يُساق كالقطيع ويَنام في أيّ مربط ويَتقاذفه هذا التيّارُ أو ذاك ومُتمثِّلا في ذلك شِعر (دُرَيْد بن الصِّمَّة) حين قال:

"وما أنا إلَّا مِن غَزِيَّة إنْ غَوَتْ،،،

غَوَيْتُ وإن تَرشُدْ غَزِيَّة أَرْشُدِ"

ومُخاصِما لقولَ الشّاعر الذي يقول:

"شَمِّر وكُنْ في أمور الدِّينِ مجتهدا

ولا تكنْ مثل عِيرٍ قِيدَ فانْقادا"

أمَّا بيْت القصيد وعيْن المقال وزُبْدة الحديث، فهو الفصيل الرابع؛ الذي عَلِم الحقَّ ولم يَنصرْه بقلْب أو قوْل أو فعْل، وعرف الباطلَ ولم يُنكرْ عليه بلسان أو يُجابهْه بيد أو يحاجّه بجنان، ثمَّ لَمْلم أعطافَه وخاط فمَه وغلَّ يدَه، فتقلَّد الحالة الصِّفريّة في المعادلة البشريّة، وكان عديم الرأي فاقِد العزْم، وسَمَّىٰ نفسَه محايدا!

وفي الوقت الذي يَرفع فيه المحايدُ شعارَ "لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ أولئك"، نجده يقف في منتصف الطريق دون الميْل لأيٍّ مِن طرفي

الخصومة، ويعتقد أنه عيْن الصواب، بل ويدَّعي العُمقَ في الفهم والشمولَ في الإدراك والاستراتيجيةَ في السياسة، ويَظن نفسَه بذلك الصنيع دليلا للسلامة ومعجما للنَّجاة ورسولا للحِكمة والسلام.

ورغم ما يَراه البعض مِن أنَّ الحيادَ أسطورةٌ مزعومة ووهْمٌ لا وجود له، وأنّه أحد أدوات ثقافة التلْبيس والتدلْيس والخداع؛ إذْ لا يُتصَوَّر إنسانٌ بأدنىٰ درجة مِن العقل ويَعيش في إطار مجتمَعي، ثمَّ لا يَتبنَّىٰ رأيا وموقِفا، حتىٰ وإنْ استبْطَنه وأَسَرَّه...فإنَّ الحياد قد يكون موجودا بل وسائغا في مجال التنظير حين نناقش جمالَ الربيع وضوءَ القمر وصنوفَ الملابس والسيارات، وقد يكون فضيلةً حين يكون موقفا تجاه باطلَيْن يصطرِعان وشَرَّيْن يتناطحان، وقد يكون حكمةً وتَعقُّلا حين ترفرف الفتنةُ[1] بجناحيْها فيختلط حابلُها بنابلِها ولا ندري أيّتهما النائحة الثكلىٰ وأيّتهما المُستأجَرة...

أمَّا حين يَجِدُّ الجدُّ ويَعظم الخَطْب، ويَتمايز الخيْط الأبيض من الخيْط الأسود، ويُصبح الأمر متعلِّقا بأوطان تُهدَم أو نفوسٍ تُزهَق أو كرامةٍ تُسحَق أو حقوقٍ تُسلَب أو دِينٍ يُهان أو فِكرٍ يُباد، فلا مكان للحياد؛ لأنه ساعتئذ هروب وخداع، وانعزال وانسحاب وانكفاء، واختيار لمنهج

(1) كان هذا موقف فئة مِن الصحابة الأجلّاء علىٰ رأسها (سعد بن أبي وقاص) و(عبد الله بن عمر) و(محمد بن مسلمة) إزاء الفتنة الكبرىٰ التي وقعت بين سيدنا (علي) وسيدنا (معاوية) رضي الله عنهم أجمعين.

السلامة لا سلامة المنهج، وبحْثٌ عن ظلال وارفة وكرسيّ هزّاز تنعدم فيهما التكاليف والتَّبِعات وتميع معهما المواقف، لِيصبح الجُبن سيّد الأخلاق واللامبالاة هي عنوان الحياة والمُجرمون الأوائل[1] هو ألْيق ما يُوصَفون به مِن ألقاب.

قد لا يملِك أحدٌ الحقيقة المُطلَقة لكن هناك مَن هو أقرب لها، وليس علىٰ الأرض ملائكة يَمشون ولكن هناك مَن هُم بالخير ألصَق، والكلّ ظالم ومظلوم ولكن هناك مَن هو للشرّ أبْعد و للحقّ أدْنىٰ؛ ويبقىٰ دواء العَيِّ السؤال حين تختلط الأمور وتتشابك الحلقات، وبعْدَها... كاذبٌ مَن يَدَّعي الحياد، وانتهازيٌّ مَن يَتبنّاه، وواهِم مَن يعتقد أنّ فيه النجاة؛ واسألوا الثور الأسود المحايِد ماذا فعل به الأسد بعدما فرَغ مِن التهام الثور الأبيض ثمّ الأحمر.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلىٰ معسكريْن سياسِيَّيْن أحدهما غربي تقوده أمريكا وآخَر شرقي تقوده روسيا، ومِن بنات أفكار الثلاثي (جمال) و(تيتو) و(نهرو)، وُلدَت حركة ادّعتِ الحيادَ ونادت بعدمَ الانحياز في مؤتمر (باندونج) عام 1956م، فهل كانت حقا غير منحازة؟

وهل استمرّت في حيادها وعدم انحيازها؟

---

(1) "لا حِياد في مجتمع بلا عدالة، المُحايدون هم المجرِمون الأوائل"...هكذا قالت الكاتبة السورية (غادة السمّان).

يُجيب الرئيس التونسي (بورقيبة)علىٰ ذلك قائلا: "إنَّ حركة عدم الانحياز أكبر أكذوبة علىٰ النفس؛ إذْ كانتْ مُنشطِرة إلىٰ قسميْن، واحدة منحازة إلىٰ الغرب وأُخرىٰ مُنحازة للشرق".

وكما لا تُجدِي الأموالُ في خزائنها المُغلَقة ولا الغِلال في صوامعها التي لا تطالها يد أو يَقضمها فم، فإنّه لا يكفي الإنسان أن يكون صالحا في ذاته مُنكفِئا عليها، بل لا بدّ أن يَموج في المجتمع كالبحر ويَدور معه كالأرض ويَجري عليه كالنّهر، فيأمر بمعروف تارة وينهىٰ عن منكَر تارة ويَنصر مظلوما آنا ويُكَثِّر سوادَ الحَقّ آونة أخرىٰ، وهو ما تنطوي عليه فلسفة رفْض وتجريم الحياد؛ ففي تُربة الإمّعات وعلىٰ سرير المحايدين، يَستشري الباطلُ ويَنتفش الشرّ؛ حيث يَعدُّهم جنْدا مِن جنودِه وعُدّة مِن عتاده، بينما يَضمُر الحقُّ ويَتوارىٰ الخيرُ لأنّه ما وجَد مِنهم عِيرا ولا نفيرا.

وإذا كانت الكبائر تعني الأفعال الفاحشة والآثام الكبيرة، فإنَّ الحيادَ واللّافِعل يُفْضيان إلىٰ ذات النتيجة ويَقتربان مِن توصيف الكبيرة، باعتبار أنّ مدار الأمور علىٰ عواقبها لا علىٰ عواهنها، وصَدَق الزعيم الإنسانيّ (مارتن لوثر كينج) حين قال:

"أسْوأُ مكانٍ في الجحيم مَحجوزٌ لهؤلاء الذين يَبقون علىٰ الحياد في المعارك الأخلاقيّة العظيمة"، وحين أضاف: "أنتَ لسْتَ مُحاسَبا فقط علىٰ ما تقول، بل أنتَ محاسَبٌ أيضا علىٰ مالم تَقلْ حين كان لابدّ أن تقول".

# 3 - اكْسِر قيودَك

"أسْـوَأُ القيـود الـتي تـشلّ
حركتَنـــا هي القيـــود غـــيْر
المَرْئيّة"

عبد الكريم بكّار

الحـديثُ عـن الأَسـير والأَسْرىٰ والأَسَارىٰ حديثٌ ذو شجون؛ فربَّما يُحلّق بك الخيالُ بعيدا صوْب أسْرَىٰ (جوانتانامو) الذين عُومِلُوا كفئران التجارب، وقد يرِدُ لخاطرك الأسرىٰ الفلسطينيون المُغيَّبون خلف قضبان الاحتلال لسنوات وسنوات، وقد يَتبادر لذهنك سجناءُ الحريّة والرأي والفِكر في طُول العالَم وعَرْضِه؛ والحقيقة أنّ الأسيرَ الذي نقصده ونرجو فِكاكه ليس أيّا مِن

هؤلاء الأبطال الشجعان، بل هو الذي عرّفه شيخ الإسلام (ابن تيمية) بأنّه هو "مَن أَسَرَه هواه"، وهو الذي خصّه الشاعر بالذِّكر حين قال:

"أَبِيتُ وفي الفؤادِ جِراحُ أَسْرَىٰ  تَقضُّ مَضاجعِي فأنا الأَسيرُ"

وهو الذي قصَده الشاعر (جميل الزهاوي) حين قال:

"كلُّ ابنِ آدمَ مقهورٌ بعاداتِ  لَهنَّ يَنقادُ في كلِّ الإراداتِ"

وتُعرَف العادةُ بأنّها قهر داخلي وإرغام باطني يُصادر الحريّةَ[1] بمفهومها الحقيقي الذي يعني: "امتلاك الإرادة، وانتفاء الحَتميّة، وزوال القهر الخارجيّ بكل صوره وأشكاله مِن رقٍّ أو سجن أو ما شابه"، وبتعبير آخَر هي الاختيارات التي نقوم بها بشكل مقصود في وقت معيّن ثمّ نتوقّف عن التفكير فيها ولكننا نستمر في فعلها بعفويّة وتلقائيّة وبطريقة شبه يوميّة، وهي ما وصَفها (ستيفن كوفي) بأنها مِثل الحِبال الفولاذيّة التي نجدل فيها كلَّ يوم سِلْكا حتىٰ نعجز عن قطعِها، وقال عنها (أرسطو) بأنها "طبيعة ثانية"؛ علىٰ اعتبار أنّ الطبيعة الأولىٰ هي الغريزة التي يُطلَق عليها "العادة الوراثيّة" نظرا لاتفاقها مع العادة في غاية الوصول إلىٰ آليّة السلوك التي تَختصر الوقت والجهد وتُحرّرها -إلىٰ حدّ ما- مِن سطوة العقل، هذا مع عدم إغفال ما بينهما -أي بين العادة والغريزة- مِن فروق في المصدر

---

(1) في معنىٰ الحرية يقول (جان جاك روسو): "ليست حرية الفرد في أن يفعل ما يريد، بل في ألّا يفعل ما لا يريد".

الذي يكون كَسْبيًّا في العادة ووراثيا فِطريًّا في الغريزة، وفي عموم الغريزة بين أفراد النوع الواحد بعكس العادة التي تختصّ بالبعض دون البعض، وفي إمكانية التّخلِّي عن العادة دون الغريزة.

أمَّا عن المولِد والمَنشأ؛ فكان مِن رحِم الخيال الذي ولَّد خاطرةً فَفِكرة، ثمّ برَزت الفكرةُ إلىٰ الوجود فصارتْ هِمّة وفِعْلا، ثمّ تكرَّر الفعلُ في فترة زمنية يقدِّرها البعض بواحدٍ وعشرين يوما(ثلاثة أسابيع) بينما يقدِّرها البعض الآخر بعدد مرَّات تكرار تصل إلىٰ مائة مرَّة، ليَستوِي بعدها الفعلُ عادةً وسَجيَّة، علىٰ قاعدة أنَّ ما تَكرَّر تَقرَّر.

وهكذا دخَلت الأفعالُ دائرة العادات بقوّة التكرار[1]، وتحوَّلتْ بموجبها مِن بيتٍ للعنكبوت إلىٰ قفصٍ مِن حديد، ومِن نزوة عابرة وفكرة طارئة إلىٰ سِمَة راسخة متجذِّرةً في ثنايا النفس وحنايا القلب وباطن اللاوعي، وأَضْحَي التنصُّل منها والعدول عنها عسيرا لدىٰ البعض -حتىٰ قيل أنَّ العادة جدار اسمنتي يَسهل طلاؤه بينما يَصعب اجتثاثه- بل ربّما يُقارب الاستحالة لدىٰ البعض الآخر، خاصّة بعد أنْ تتجاوز الحيِّز الفرديّ إلىٰ الفضاء المُجتمعيّ عبْر توارثها مِن جِيل إلىٰ جيل واكتسابها هالةَ العُرْف وقداسَة التقاليد، فتصبح مكونا رئيسيا وعنصرا ثالثا في البنيان الثقافي للمجتمع إلىٰ جوار العقيدة والمعرفة...وفي هذا يقول المثل

(1) التكرار مهندس النجاح؛ فبقوّة التكرار تَعلَّم الطفل المشْي والكلام، وبقوة التكرار شَجَّ حبلُ الدلو رأسَ صخرة البئر، وبقوة التكرار توصّل (أديسون) لاختراع المصباح.

الصيني؛ ازرع فكرا تحصد قولا، وازرع قولا تحصد عملا، وازرع عملا تحصل عادة، وازرع عادة تحصد طبْعا، وازرع طبْعا تحصد مصيرا.

لِلبدن عادات حرَكيّة ولِلِّسان عادات لفْظيّة ولِلذِّهن عادات فكريّة ولِلنّفس عادات انفعاليّة وللقلم عادات كِتابيّة، وبالطبع ليستْ كلُّ تلك العاداتِ قبيحةً ومَذمومة؛ فمنها المَحمودة التي لا غبار عليها ولا غرْو مِن تعظيمها والتمسُّك بأهدابها والاستشْفاء[1] بها، وهي ما لا تنحصر في العادات السّبْع التي ذاع صيتُها في كتاب(العادات السبْع للأشخاص الأكثر فاعلية)لمؤلِّفه (ستيفن كوفي) والذي تُرجم إلىٰ عشرات اللغات ووُزِّعت منه ملايين النسخ، بل تمتدّ لتشمل كلّ عادة تخضع لسلطان الشرْع والعقْل والمصلحة.

أمَّا ما سِواها مِن العادات المرْذولة؛ فقيْدٌ وجَب كسْره مهما بلغت صلابتُه، وسِجنٌ آن الفكاك منه مهْما كان عدد قضبانه، وهي ما قصدها الكاتب والفيلسوف السويسري (جان جاك روسو) بقوله:

"خيرُ عادةٍ ألّا يكون لك عادة".

فمَن تَعوّد السّهَرَ، أو اعتاد شُرب المُنبِّهات، أو درَج علىٰ التدخين، أو أَدْمن التأخُّر عن موعده، أو تَلذَّذ بالتسويف، أو طلّق الرياضة، أو اعتاد قضم أظافره...ومَن يَهتاج لأقلّ الأسباب، أو يُقدّس دُبْلة الخطوبة

(1) "العادة تشفي العادة..habit cures habit"هكذا يقول المثل الإنجليزي.

والزواج[1]، أو يَحتفيْ بعيد الميلاد، أو يَعتصم بالخشَب مخافة الحسَد، أو يَتطيَّر مِن بعض الأرقام والأيّام، أو يتَّشَح بالسواد للحُزن، ومَنْ، ومَنْ... كلُّ هؤلاء الأشاوس مواطنون أصليّون وآباء مؤسِّسون في دولة العادة، وجلّهم يُوقنون أنّها سلوكيات سلبيّة ليس لها في النّفع نصيب، بل ويَستَجْدُون النُّصْح ويطلبون العوْن للخلاص مِن جوارِها والفطام عن تعاطِيها والتحرُّر مِن قبضتها والهِجرة خارج دولتِها بعد أَن صدَق فيهم قولُ (جون درادن): "نحن نصنع عاداتنا في أوّل الأمر ثمّ تصنعنا هي بعد ذلك".

ولعلَّ أخطر ما في العادات؛ أنَّ حياتَنا برمّتها[2] ليست إلّا كتلة مِن العادات... وأنّ أيَّ نشاط إنساني يمكننا برْمجته وتدْجينه ليصبح عادة... وأنّه مِن السهل اكتساب عادةً سيئة ولكن مِن الصعب أن نتعايش معها أو نتخلّص منها، بعكس العادات الطيِّبة التي يَصعب اكتسابها بينما يَسهُل ويَلذّ التعايش معها...وأنّها قد تَقتل الروح الإبداعية وتُشجِّع الجمود وتُعيق التقدّم وتُغذِّي الصراعات بين الأجيال... وأنَّها لا تَسير فرادىٰ ولا تأتي إلّا زرافات؛ فكلّ عادة سيئة تَجرّ وراءها عادة أُخرىٰ سيئة وكذلك

(1) يرجع هذا التقليد إلىٰ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حيث اعتقد الأطباءُ الإغريق بوجود عِرق يُسمىٰ (عِرق الحبّ) يمرّ من البنصر إلىٰ القلب، ولهذا جعلوا البنصر هو الحامل لخاتم الخطوبة والزواج.

(2) يقول عالِم النفس الأمريكي (ويليام جيمس): 99٪ مِن النشاط البشري قائم علىٰ العادات.

تفعل العادات الطيّبة، بمعنىٰ أنَّ الخسارة مضاعَفة والكسْب أيْضا مضاعَف...وأنّ مردودها لا يتوقّف عند شخص فاعلها بل تنتقل بالعدوىٰ إلىٰ المُحِيطين به وبالقدوة إلىٰ مَن يعتبروننا أهلا للاقتداء، وذلك لأنّ العلاقات الإنسانية لا يَنطبق عليها قوانين الفيزياء والكيمياء التي يَنجذب فيها الموجَب إلىٰ السالب وبالعكس، بل إنَّ الشبيه للشبيه مُنجذِب والطيور علىٰ أشكالها تقع.

وهنا يُضيف شيخُنا (مصطفىٰ السباعي) فصلا حزينا في قصَّة حياة العادة فداحة مآلاتها فيقول: "العادةُ تبدأ سخيفة ، ثمّ تُصبح مألوفة، ثم تَغدو معبودة"، وهنا تكون الطامّة حين تنقلب العادةُ إلىٰ عبادة[1] ويُصبح لسانُ الحال والمقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [2]. والعبادةُ هنا تعني الاسترقاق الذي تختلّ فيه المفاهيم وتضطرب معه الحقائق؛ فما كان شاذّا يُصبح مألوفا، وما كان مَعِيبا يصير مقبولا، وما كان مُنكَرا يَغدو مُستحَبّا وربَّما فرْضا وواجبا يُلام تاركُه ويُثاب فاعلُه...وهنا يقول الشيخ (سلمان العودة): "حَسَنٌ أن تكون عباداتنا عادات بمعنىٰ الديمومة والمواصلة، وحَسَنٌ أن تكون عاداتنا عبادات بمعنىٰ انتقاء الأفضل منها واستحضار النية الطيبة فيها".

---

(1) يقول المثل الإنجليزي: "العادةُ طاعون الحكماء ومعبود الحمقىٰ"
"custom is the plague of wise men and the idol of fools-

(2) الزخرف22

علَىٰ أنَّ العادة لا تُطوِّحَ إلىٰ تلك الأرض ولا تذهبَ إلىٰ ذاك المَدىٰ، إلا بشخصٍ فقَد بوْصلتَه واختلّتْ أولويّاتُه وفترتْ عزيمتُه ونضَب وعيُه، وفي هذا الدّاء والدّواء، فإذا عُرِف السبب بَطُل العجَب وإذا شُخِّص الداءُ سَهُل أمْر الشفاء وإذا عرفنا كيف فشلنا عرفنا كيف ننجح علىٰ حدّ تعبير(همنجواي)، وهو ما يُشير إليه صاحب (الفوائد) فيقول: "إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتَداركه أسهل من قطع العادات".

وفي هذا تقول العربُ في أمثالها: "النَّفْسُ عَزوفٌ أَلُوف" بمعنىٰ أنَّ النفسَ تعتاد ما عُوِّدت فإنْ زهَّدْتها في الشيء انصرفَتْ عنه وإنْ رغَّبْتها فيه أَلِفتْه، وذلك في إشارة إلىٰ الفارق الجوهري بين الإنسان الذي يُسيِّره عقلُه والحيوان الذي تقوده غريزتُه؛ وفي تنبيه علىٰ أنّ سِجال العقْل والهوىٰ، ونِزال الإرادة والغريزة، و مُعتَرَك الجمود والتغيير هو سبيلُ الخلاص مِن رِبْقة العادة وعبوديّتها...وهنا وفي ساح ذلك السِّجال والنِّزال والمُعتَرك؛ يلزمُنا درع الإيمان، وسيْف العقل، ورداء الصبر، وقناع أصدقاء الخيْر، وقفّاز أهل الدِّربة، وحكمة (ابن القيّم) حين يقول: "إنَّما يَجد المشقَّة في ترْك المألوفات والعوائد مَنْ ترَكَها لغير الله، فأمَّا مَن تَركَهَا صادقا مخلِصا مِن قلبه لله؛ فإنه لَا يجد فِي تَرْكِهَا مَشقّة إِلَّا في أول

وهلة، ليُمتَحَن أصادقٌ هو في ترْكِها أم كاذِب، فإنْ صبَر علىٰ تلك المشَقَّة قليلا استحالتْ لذَّة".

وكما أنَّ الخيْرَ يُذهِب الشرَّ والحسناتِ يُذهبْن السيّئات والعُملةَ الجيّدة تطرد العملةَ الرديئة؛ فعلينا زرْع عادة جديدة جيّدة في سبيل اقتلاع عادة قديمة سيِّئة، كما ينبغي اللجوء إلىٰ ما يُعرَف في علم النفس بالإيحاء الذاتي؛ الذي يَسكب في العقل الباطن كراهة العادة السيّئة، ويَشدّ مِن أزْر العقل الواعي لطرح تلك العادة بعيدا عن مرمىٰ السلوك وخارج دائرة الفِعل، ولا بأس أيضا مِن الاستعانة بنظرية الاشتراط الإجرائي للعالِم النفسي (سكينر)، والتي استفاد مِن تطبيقها المدرِّبون والمربُّون والمعلّمون، وتقوم علىٰ تعزيز السلوك المرغوب عن طريق: التعزيز الإيجابي عبر تقديم مُثير مرغوب فيه، أو التعزيز السلبي بإزالة مُثير مرغوب فيه، أو العقاب الإيجابي عبر تقديم مُثير غير مرغوب فيه، أو العقاب السلبي بإزالة مثير مرغوب فيه، وهو ما يلتقي مع القانون التربوي المعروف بقانون الأثَر والذي ينصّ علىٰ أنَّ الفرد يميل إلىٰ تكرار السلوك الذي يصحبه أو يتبعه ثواب ويُؤكِّد علىٰ أنَّ الإثابة تُسهم في تأصيل وتدعيم السلوك.

## الأَسْرىٰ الأعزاء...

طوْر الصّيْرورة لا يَنتهي وشوْط التغيير ليس له صافرة ولطالما كان التغيير هو البديل الأفضل في كلّ حين؛ وهو ما يدعونا إلىٰ أن نتحرَّر الآن،

فأَسِيرُ العادة مُحاصَر؛ والمُحاصَر لا يأتي بخيْر، وسجينُها مُكَبّل؛ والمُكَبَّل عاجِز الإرادة، وحبيسُها تابِع؛ والتابِع قدْ تُوِدَّع منه، ولذا كان مِن أعظمِ الفِعال وأَجَلِّ القربات إطلاقُ سراح الأسير وفَكُّ أَسْر العانِي.

# 4 - صادِقْ ولا تُعادِ

"وما بكثيرٍ أَلْفُ خِلٍّ وصاحبٍ
وإنَّ عـــدوًّا واحـــدًا لَكثـــيرُ"

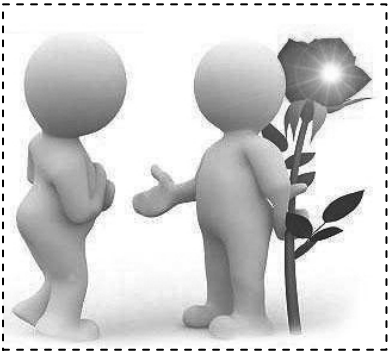

لِكلٍّ مِنَّا رَحاه التي لا تتوقَّف عن الدوران، فيُطعِمها حِنْطةً في صورة بَشَرٍ يلقاهم ضمن تجواله في دروب الحياة، ليظفر في نهاية الشوْط بدقيق أبيض نافع ينْعتُه أصدقاء، أو نفاية لا تصلح إلَّا عَلَفًا يُسمِّيها أعداء.

قد يكفيك كلمة تلفظها في جزء من الثانية لتصنع عدوا، أمَّا أن تكسِب صديقا فأنتَ في حاجة لما هو أكْثر مِن كلمة وأطْول مِن ثانية، إذْ ما أيْسر صناعة العدوّ وما أشقّ اكتساب الصديق، أمَّا أن تُحوِّل عدوًّا إلىٰ صديق فذاك فصل في سياسة الأسود وترويض الوحوش وتقطيع الصخور، علىٰ

قاعدة أنَّ الثّقةَ قارورةٌ يَستحيل جبْرها بعد ثلْمها، وباعتبار أنَّ التّحوُّل مِن النقيض إلىٰ النقيض يُقارب حلْب الثيران أو جلْب المطر مِن غيْر السماء، وعلىٰ تفسير الحكيم الذي سُئِل: لِمَ معاداة الصديق أهْون مِن مصادقَة العدوّ؟ فقال: لأنَّ كسْرَ الإناء أهْون مِن صنعته، ولأنَّ تخريق الثّوْب أهْون مِن نساجته.

ولكن؛ كيف صنعنا أعداءَنا؟

وكيف تَناسَلُوا بمتوالِية هندسيّة(1، 2، 4، 8، ...)، حتّىٰ ضِقْنا بالحياة وضاقتْ بنا؟

وكيف ذهبتْ أدراجَ الرياح مقولةُ الفيلسوف الألماني(نيتشه)[1]: "أَيْ أعدائي: لا يوجد أعداء"؟

صنعْناهم حين غفلْنا أنّ الرأيَ الآخر ما هو إلا مرآة نرىٰ فيها أنفسَنا؛ فمرّة تكون المرآةُ مستوية ومُنصِفة ودقيقة فنتصافىٰ ونتحابّ، ومَرَّاتٍ تكون مُحدَّبة مُصغِّرة أو مقعَّرة مُكبِّرة، وعندها يبدأ الجدال بُغية الإفْحام والإبْكام لا بُغية الشرح والإيضاح، فيَنبتَ الخصامُ ويَتناسلَ العداء... وكما قِيل اختلاف العقول يُثمِر واختلاف الأهواء يُبطِر.

وصنعْناهم عندما حفظنا آية البقرة **"تِلك أُمّةٌ قدْ خلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولكُم ما كَسَبْتُم"**، بيْد أنّنا نَقَّبْنا في الماضي، وفتّشْنا في النوايا، وذهبْنا إلىٰ ما

(1) يُذكر أنّ الألمان هم رواد الفلسفة الحديثة ومَبدأ نظرياتها العديدة.

وراء الحُجُب، ونَصّبْنا من أنفسنا حكّاما وقضاة؛ مع أنَّ النّبش لا يفيد، وعين الله لا تنام، ويوم الحساب قادم لا محال.

وصنعْناهم ريثما دأبْنا علىٰ استعمال نظرية الثنائية القُطبيّة، فاختزلْنا الألوان في الأبيض والأسود، وطبَّقْنا مقولات بائدة مِن طراز؛ "مَن ليس معي فهو ضدّي"، و "مَن معي فهو قدِّيس ومَن ليس معي فهو إبليس"، و"عدوُّ صديقي عدوِّي وصديقُ عدُوِّي عدُوِّي"[1]... وكلّها لعَمري طرُقٌ معبَّدةٌ لتوسيع دائرة الخصومة، واستدعاء مُمَنْهَج للمزيد مِن الغُرَماء والخصوم والفرقاء.

وصنعْناهم لَمّا تناسَيْنا أنَّ كلّ نفس هي خليط مركّب مِن الخير وهو الغالب والأساس، وما بقي مِن شرّ فهو قليل ومُحدَث وربما يزول اذا لـمْ نخاطبْه ونستدعيه ونُصِرّ عليه علىٰ حد قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "أَحْيُوا الحقَّ بذِكره وأَمِيتوا الباطلَ بتَركه".

وصنعْناهم حينما ضاقتْ دائرة الحُبّ والتسامح واتّسعَتْ دوائر الأنا والتّعالِي، وصارت الثّقةُ جُبًّا وجُحْرا و بات سوءُ الظن بحْرا ومحيطا، فصرَخْنا مع (أرسطو) قائلين: "أيها الأصدقاء، لا يوجد في الدنيا شيء اسمه الأصدقاء"، ثمّ ذهبْنا نحثّ الخُطىٰ في تطبيق سياسة مَن قال: "اتّخِذ من الخلَّان مائة، فاطرح تسعا وتسعين منهم، وكُن مِن الواحد علىٰ حذَر"

(1) قِيل أنَّ الأصدقاء ثلاثة: الصَّديق وصديق الصديق وعدوّ العدوّ، وأنَّ الأعداء ثلاثة: العدوّ وصديق العدوّ وعدوّ الصديق.

بما يعني الإصابة بمرض التوحُّد؛ فيكون أنا صديقي بدلا مِن أن يكون الصديقُ هو أنا.

وصنعْناهم عندما رمتْنا الأيامُ بمَن[1] يهرف بلزوميّة العدوّ وحتميّة صناعته؛ كحافز للطاقة ودافع للتطوير، وكدواء لأدواء الاسترخاء والبلادة الذهنية، وكمُرسِّخ للأواصِر ومُهدِّئ للقلق الجمْعي، وكمَخرَج لسُلطة استبداديّة تُواجِه مصاعبَ علىٰ الصعيد الدّاخلي!

وأخيرا...صنعْناهم حين اتّخذْنا الظنَّ إماما والشكَّ حاكِما وضربْنا عُرضَ الحائط بقول فيلسوف الشعراء(أبو العلاء المعرّي):

"كذبَ الظنُّ لا إمام سوىٰ العقْلِ

مُشيرًا في صُبحِهِ والمَساءِ"

وحين أغلقْنا أوسع باب للعفو والصَّفح هدانا له خيرُ الأنام إذْ قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وإذْ قال-صلىٰ الله عليه وسلم-: "اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون".

يا كُلَّ الأحباب...

دَعُونا نتذكّر بأنَّ النجاح في الحياة(90٪) يعتمد بالأساس علىٰ مهارات التعامل مع الناس لا علىٰ المهارات الذاتية والفنيّة...ودَعُونا

(1) يأتي علىٰ رأس تلك القائمة مؤسِّس الصهيونية(تيودور هرتزل)، الذي قال أمام المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بازل) بسويسرا: "أعتقد أن الأمّة هي مجموعة تاريخية مِن البشر تستمر بسبب عدوّ مشترك".

نتّفق علىٰ أنَّ الاختلافَ أبو الطبائع وأُمّ السُّنَن، وما أَنكَره عالِم ولا ضاق به صدْر فقيه، فقد كان -دوْما- بيْن العلماء رحمة وعند الفقهاء سعة...ودَعُونا نُذكِّر بأنّ صنع عدوّ لَهو أكبر دليل علىٰ الفشل الذريع في اكتساب صديق...ودعونا نؤمِّن علىٰ أنّ العداوة مَجلَبة للشرّ، مَهلَكة للنّفس، مُعطِّلة للنشاط، مُنغِّصة للعيش...ودَعُونا نؤكِّد علىٰ أنَّ الحياةَ قصيرةٌ وثمينة، والقلوب بيْن إصبعين مِن أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء، ولا يَأمَن الفتنة حيٌّ علىٰ وجه البسيطة، ومَن أقال عثْرة غيره أقال الله عثراته، ولَأنْ نُخطئ في الصداقة التي هي مَحبَّة وعفْو خيْر مِن أن نُخطئ في العداوة التي هي بُغض وانتقام.

وعلىٰ هذا؛ فمَحْوُ الشرّ بالشرّ والظلام بالظلام لاوجود له في عُرْف الأسوياء، بل ادْفع بالتي هي أحسن هو نهْج الراشدين العقلاء، فلِكي أُهلك ذئبا لا يعني أن أتحوَّل لذئب أقوىٰ، ولِكي أُبيد وَحْشا لا يعني أن أُصْبح وحشا أقسىٰ...فما هي بغابة، ولا نحن بأنعام.

كثيرا ما يَخلط بعضُنا بين الاختلاف الذي هو عدم الاتفاق أو عدم التساوي، وبين الخلاف الذي هو المُضادّة، فالاختلاف أَعَمّ وأشمل مِن الخلاف بمعنىٰ أنّ كلّ خلاف هو اختلاف ولكن ليس كلّ اختلاف خلاف، وفي حين يعتقد المختلفان أن كلًّا منهما يمتلك جزءا من الحقيقة فإنَّ المُخالفَيْن يعتقد كلّ منهما جازما بأنه يمتلك كلَّ الحقيقة لا بعضها، وبهذا فإنّ في الاختلاف تنوُّع وإثراء بينما يُورث الخلافُ الفرقةَ والعداوة والشَّتات، وهو ما جعله-أي الخلاف- يأخذ حكم النهي والذمّ.

وكثيرا ما يَخلط البعض بين الأشياء التي يَجب علينا أن نَستغلّها لا أن نُحبّها وبين البشر الذي يَتحتّم علينا حبّهم لا استغلالهم؛ فلو أنّنا أتْبَعنا الكلِمة بدعوة حانية مُحِبَّة، وأرْدفنا القولَ الطيّب بفعل أطيب، ولازمْنا بين اللفظة والبسمة، وخاطبْنا الناس مِن مقاعدهم؛ ما تباغضَتْ النفوس، ولا تنافرَتْ القلوب، وما صارتْ صناعة الأعداء هي أروج البضاعات.

غير أنّ ثقافة القطيعة ومسلك الطلاق مع صناعة الأعداء؛ لا يعني حُبَّ مَن عادىٰ اللهَ ورسولَه، أو مداهنة أهل الهوىٰ والنِّفاق، أو التلطّف مع إبليس، أو غضّ الطرف عن انتهاك الحرُمات، أو الإعراض عن إنكار المنكر...بِما يعني أنَّ سياسة تصفير الأعداء مِن المُحال[1]، إلّا إذا فقدْنا الذاكرة كمريض الزهايمر؛ فساعتها يصبح الناسُ كلّهم دقيقا تحت رحانا والألوان كلّها بيضاء علىٰ صفحتنا، بعد أن تسلّلتْ النفايات مِن الذاكرة المثقوبة فصارت أفرغ من قلب أمِّ موسىٰ...وصَدَق صاحبُ كتاب (الإنسان = ذاكرته)[2]حين نبّه إلىٰ نعمة النسيان كدواء للعداوة وترياق للصُّحبة فقال:

"إنّ ما يَجْمَع النّاسَ هو مجموع ما يَنسون، وليس مجموع ما يَتذكّرون".

---

(1) "إبليس والدنيا ونفسي والهوىٰ،،كيف النّجاة وكلُّهم أعدائي".

(2) المؤلِّف والكيميائي السُّوري د. مصطفىٰ قرّه جولي.

# 5- لا تُخِفْ ولا تَخَفْ

"الشئُ الوحيدُ الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف نفسه"

فرانكلين روزفلت

مع صرخة القدوم للحياة يُعلن الوليدُ عن وجوده كدولةٍ مستقلّة ذات سيادة، لا تعرف ذاكرتُه للخوف[1] معنىً، ولَم يَسلك الخوفُ طريقا لقلبِه البَضّ وعقلِه الغَضّ. ومع التقدُّم في العمْر ونُموّ الوعي وزيادة الإدراك

(1) قيل أن ثلاثة لا يخافون؛ الأطفال، والمجانين، والمُلوك... وقِيل أيضا أنَّ المخاوف الوحيدة التي تُولد مع الطفل هي الرهبة مِن الأصوات الحادة، والخوف مِن السقوط.

والاصطدام بصخور الحياة، تبدأ بذور الخوف تَنبت وتَنمو حتىٰ تغدو دوْحة؛ فتُورِق رهْبة مِن الاختبارات في الدراسة ووَجَلًا مِن المسئوليات في العمل وقلَقا مِن أعباء الأُسْرة وأَرَقا علىٰ مستقبل الأولاد، كما تُثمِر هلَعًا مِن الكيْد والمكر والمرض والفقر والحوادث والموت...بل وأحيانا يكون الخوف مجرد أشباح وخيالات[1] تسكن اللا شيء!.

هي إذنْ جمهوريةٌ متشابكة مِن الترقُّب والحذَر والجزَع والفزَع[2]، فيُصبح ويُمسِي سكّانُها مِن خوف الخوف في خوف ومِن انتظار الغمّ في غمّ[3]، كما يَغدو السيْر في دروبها عسيرا وشاقّا؛ حيث يَبدو القلبُ مضطرِبا، والذّهن مُشَتَّتا، والكاهل مُثقَلا، والجسَد مُنهَكا، والوجه شاحِبا، والحلْق جافّا، والشهيّة مَفقودة، والأنفاس لاهثة، وضربات القلب مُتسارِعة، كما تغدو الأعصاب أوتارَ عودٍ لا يَعزف إلا لحْن الخوف ونَغَم الحزن...كيف لا، و(الكواكبيّ عبد الرحمن) يقول: "الخوفُ أسوأُ مُستشارٍ للإنسان".

---

(1) قَسَّم (جوزيف أكونور) الخوفَ إلىٰ خوف حقيقي يُمثل ردة فعل طبيعية علىٰ خطر ماثل، وخوف خيالي لا أصل له، وذلك في كتابه (حَرِّر نفسك مِن الخوف).

(2) يُفرِّق الكاتب والفيلسوف (أنيس منصور) بين الفزع والخوف؛ فيقول بأن الفزع خوف جُزئي محدَّد، بينما الخوف فزع عام غير محدَّد.

(3) الغَمّ يكون لما يُستقبَل مِن أمْر بينما الهمّ يكون لما مَضىٰ، تماما كما هو الحال مع الخوف الذي يتناول المستقبل والحُزن الذي يتناول الماضي...والحُزن أشدّ الهمّ بينما البَثّ أشدّ الحُزن.

فكيف المَسِير؟

وإلَام المَصِير؟

وحَتَّامَ هذا الخوف؟

ورد في قاموس (لونجمان) لعلم النفس والعلاج النفسي أنَّ الخوف " شعور قوي يَظهر عند الإحساس بوجود خطر ما"، كما جاء في تعريف آخَر بأنّه "تألُّمُ القلب بسبب توقُّعِ مكروه أو فقْد موجود"، وهو أحد الأحاسيس الإنسانية الرئيسية التي يَرقد علىٰ سريرها العديدُ مِن المشاعر الأُخرىٰ اللازمة للحياة والبقاء طالما بقيت ضمن حدّها المعقول، فلم تُشوِّهها وتُخرجها عن طورها طفولةٌ بائسة أو أُسْرة مفكَّكة أو تربية متوتِّرة أو بيئة غير آمنة[1] أو ظروف حياتيّة غير مواتِية، لتُنتِج في مجموعِها شخصيّة ضعيفة مهزوزة، ثِقتُها في ذاتِها علىٰ المَحكّ وإيمانُها منقوص، فتراها خُشُبًا مُسَنَّدة تَحسب كلَّ نظرة ترمقها وكلَّ إشارة تقصدها وكلَّ صيحة تناديها...فتَنتابها رجفةٌ بلا حمّىٰ وصَرْعةٌ بدون مرض، وكأنها دُمْيةُ تدريبٍ في ميدان رمايةٍ أو خرقةٌ باليةٌ في يد عاصفة هوجاء.

علىٰ أنَّ أكبر منصّة لإطلاق قذائف الخوف تكمن في دواخلنا؛ فحين تغرب شمسُ الأمل يُشرق ليلُ الخوف، وحين تتوارىٰ الثقة في الله تلُوح

(1) في أعقاب حادثة الحادي عشر من سبتمبر، تَولَّد لدىٰ الأمريكيين خوف من ركوب الطائرات فانخفض الطلب علىٰ السفر جوا، كما أدىٰ انهيار البُرجيْن إلىٰ الإحجام عن سكنىٰ الأبراج المرتفعة فتراجعتْ أسعار الشقق في تلك الأبراج كثيرا.

أشباح الخَوَر والضعف، وحين يَغلب التشاؤمُ التفاؤلَ ترتعِد فرائصُنا مع كل بادرة همّ أو بداية كرْب، وحين يَنفد رصيدُ الحُبّ ويفلس بنكُ الصداقة نصبح كلهيب شمعة تتراقص مع الرِّيح، وحين يُعشِّش الجهل يَبيض الخوفُ ويَفقس؛ فالمخاوف كالخفافيش تعيش وتترعرع في زوايانا المظلِمة ومَجاهِلنا العميقة، ولكنّها تختفي وتموت إذا ما طرحْناها أرضا بجسارة تحت ضوء العقل ومصباح الإيمان وشمس المعرفة وقلَم البحْث، إذْ الشجاعة هي صحّة النّفس علىٰ حدّ تعبير رائد علم النفس النمساوي (ألفريد آدلر).

وللأستاذ (خالد محمد خالد) مأثورة بديعة يقول فيها: "إذا أردْتَ ألّا تخاف فلا تُخِف، وإذا أردتَ أنْ تحيا فلا تخاف"، ونحن إذْ وافقْناه تماما في الشطر الأوّل، فإنَّ الحال ليس كذلك في الشطر الثاني، لأنَّ الخوفَ كالملح لخُبز الحياة؛ بمعنىٰ أنّ قليلَه مفيد وكثيرَه مُميت ولا فِكاك منه البَتّة، فالسلامة والإنجاز والنجاح يَلزمهم نُتفَة مِن القلق ويَدفعهم مسحة مِن الوَجَل، والفوز في الدار الآخرة يَلزمه خوف مِن انتقام الله وعذابه، إضافة إلىٰ أنَّ الخوفَ تطعيمٌ يَقينا داء التّوحُّش وترياقٌ يشفينا مِن آفة التّجبُّر...

وهو ما أشارت إليه الخبيرةُ النّفسيّة(فيرا بيفر)في كتابها (الشجاعة الإيجابية) حين صنّفَتْ الخوف إلىٰ عَشر مستويات تبدأ بالصفر وتنتهي بالعاشر، وذكرَت أنه أمرٌ جيّد أن يكون الشخص في المستوىٰ الأول أو

الثاني لأنّ ذلك يضمن له الانتباه الذهني والجسماني، كما نبّهتْ علىٰ أنَّ الخوف المَرَضي أو الرّهاب يبدأ مع بلوغ المستوىٰ الخامس ويتّسم بالاستمرارية واللامعقولية إضافة إلىٰ انتهاج السلوك الاجتنابي، أمّا (جافين دي بيكر)فقد دندن حول هذا المعنىٰ فألَّف كتابه(نِعمة الخوف)وذكر فيه أنَّ الخوفَ جرسُ إنذار يُجنّبنا المصائب، وبدايةُ حدْس نستعين به لحياة أفضل، هذا علىٰ افتراض أنَّ استجابتَنا للخوف كانت إيجابية تَبني وتَدفع وليستْ سلبيّة فتهدم وتُثبِّط...فالاستجابة لشعور الخوف هي جوهر الخوف.

أمَّا العيش في جلباب الخوف والالتحاف بغطاء الرُّهَاب؛ فهو القيد الذي يُعيق تقدّمنا ويَأسِر أحلامَنا ويُصادر أمانينا، وهو غرغرينا الحياة التي تغتال الأمل وتقتل الثقة وتضع حجر الأساس للخنوع والذِّلة والانكسار، وهو الطاقة السلبيّة التي تربك الذّهن وتشوِّش الشعور وتقلِّل المناعة البدنيّة[1]، علاوة علىٰ أنّه المرض قُبَيْل المرض والموت قَبل الموت...وهو عيْن ما وصَفه صاحبُ كتاب (بوْح النبضات) حين قال: "للخوف عقارب تقترب مِن القلب فتلدغه، ثمّ تَنفث سُمَّ القلق في جنبات الروح، فتشلّ نبضات التوكُّل والأمل".

---

(1) علىٰ إثر الخوف والتوتر؛ تحدث تغيرات كيميائية داخلية، فينطلق هرمون الكورتيزون الذي يُعيق عمل الجهاز المناعي ويجعل الجسم أكثر عرضة للإصابة بالعدوىٰ البكتيرية والفيروسية وغيرها.

وفي هذا تَرْوِي الأساطير القديمة أنَّ الطاعونَ حمَل متاعَه وشدّ رحالَه إلىٰ بغداد ليَقتل خمسةَ آلاف شخص، ولكنّ خمسين ألفا ماتوا، وعندما سُئِل الطاعون عن تفسير ذلك قال: ما قتلْتُ إلّا خمسة آلاف كما وعدْت، أمّا البقيّة فقد ماتوا مِن الخوف.

كما يَروِي التاريخُ عن طلائع التّتار التي كانتْ تسبق الجيوش لتنشر الإشاعات وتبثّ الرعب عن فداحة بطشهم وهول وحْشِيّتهم، حتىٰ إذا دخلوا البلاد ما وجدوا أهلَها إلّا بين هارب فارَق الديار، أو مُستسْلِم مدّ رقبتَه للذبح، أو مرعوب فارقتْه الروح. ..وكأنّ حرب الإشاعات أفْتك مِن حرب العصابات.

إذا كانت الإرادة تلِدُ القُدْرة وتُثمِر النجاح، فإنّ الخوفَ يَقتل الإرادة فيلِد العجْز ويُثمر الفشل، ولذا فإنَّ الخائفين لا يَتقدّمون ولا يُبادرون، لاعتقادهم الزائف بأنّ أسلمَ مكانٍ هو تلك البقعة التي تلامسها أقدامُهم.

وإذا كان الحديد يتمدّد بالحرارة، وينكمِش بالبرودة، ويصدأ بالرطوبة؛ فإنّ الإنسانَ ينكمش ويصدأ بالخوف، بينما يتمدّد بالأمل في الله وبالحُلْم في غدٍ أفضل...وفي هذا يُحكَىٰ أنّ الخوفَ دقَّ الباب، ففتَح الإيمانُ، فلم يجدْ أحدا بالباب.

فيا كُلَّ الخائفين خلْف الأبواب:

حنانَيْكم...

لماذا نزرع المستقبلَ ألغاما، وننثره شوكا، ونصبغه سوادا؟

ولماذا نكحّل عيونَنا بالحزن ونلوِّنها باليأس؟

ولماذا نلوك الماضي فنَنشر المنشور ونَطحن المطحون؟

ألاَ ترَوْن الله!

إنه هناك يُقدّر ويَرحَم ويُيّسر ويَنتظر الدعاء ليردّ البلاء، كما أنه سبحانه هنا يَربِت ويُثبِّت ويَنصر ويَجزي القلوب المؤمنة الصابِرة المحتسِبة، فما كان يتيما مَن كان الله مولاه وما صار وحيدا مَن احتمَىٰ بحِماه...وهو ما نصح به شيخ الإسلام (ابن تيمية) لتلميذِه (ابن القيم) فقال: "إذا هاش عليك كلبُ الغنم فلا تشتغل بمحاربَته ومُدافَعَته، وعليك بالراعي فاستغِثْ به، فهو يصرف عنك الكلبَ ويكْفيكَه".

مِن الحصافة إذنْ أن لا نصدِّق (توماس هوبز) الذي يقول: "وضَعَتْ أمِّي توأميْن الخوف وأنا"، وأن لا ننساق وراء مَن يقول بأننا نرث مخاوفَ آبائنا وأجدادنا، وأن نهدر دم تلك التجربة اليتيمة التي أجراها البعض علىٰ فئران قاموا بتدريبها علىٰ الخوف مِن رائحة معيَّنة ثمَّ وجدوا أنّ خوفهم هذا قد تسرَّب إلىٰ ذرّياتهم التي تناسلَتْ مِن أرحامهم...بل علينا أن نلزم التوكّل الذي يقينا القلق إزاء المستقبل، ونعضّ علىٰ الرضا بالمقسوم الذي يَستلّ سخطَنا علىٰ الحاضر، ونطمع في عفْو الله الذي يَنسف ندمَنا علىٰ الماضي، ونكرِّر علىٰ مسامعِنا ونغرس في تفكيرنا؛ أنَّ أجملَ الأيام

هي التي لم تأتِ بعد، وأنّ الرِّيح القادمة هي مِن نوع الصّبا[1]، وأنّ الرياح تـأتي كثيـرا بمـا يَـشتهي الـسّفين، وأنَّ كثيـرا مِـن المخـاوف التـي تقـضّ مضاجعنا وتُذهب الكَرىٰ مِن عيوننا ماهي إلا خيالُ قلاع وأضغاثُ أحلام ووسْوسةُ شيطان، وأنَّ الكلابَ لا تنبح إلّا علىٰ مَـن خافَهـا ولا تعـضّ إلّا مَن فرَّ أمامها.

وصدَق الشاعر إذْ يقول:

"وإذا العنايـةُ لاحظَتْـك عيونُهـا،،

نَـمْ فالمخـاوفُ كلّهـنَّ أمـان"[2]

(1) ريح الصَّبا هي ريحٌ طيبة النسيم مُبشِّرةٌ بالخير، فيها ورد حديث (ابن عباس) الذي رواه الشيخان عن خيْر الأنام قال: "إنِّي نُصِرت بالصَّبا"، وفيها قال الشاعر:

"فإنَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تَنفّسَتْ  علىٰ نفْسِ مَحزونٍ تَجلَّتْ همومُها".

(2) البيت للشاعر (عبد الرحيم اللخمي) الذي عاش في القرن السادس الهجري.

# 6- انْصر مظلوما

"أحيانـا أَميـلُ إلى قـراءة
الكتابـات الخرافيّـة، بـالأمس
عكَفْتُ ساعةً على قراءة ميثاق
حقوق الإنسان"

الكاتب الساخر محمد عفيفي/ت 1981م

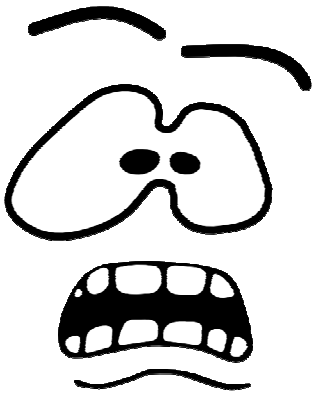

مِـنْ حجـارةٍ قاسـية نُحِتَـتْ أربـعُ جـدران بـاردة؛ ماتـتْ فيهـا النوافـذ وتقلّـصت الأبـواب فتَمَـدَّدَ الزمـانُ وانكمش المكان، وظلَّلها سقفٌ أَصمٌّ حجَـب ضـوءَ الـشمس وطمَـس بهـاء القمر فاحتلّ ظلامُ الليل ضياءَ النهار، وفي جنَباتها خَيَّم الخوف وعَمَّ الصمْتُ

وعَطَنت الرائحة بعد أن صارتْ خليطا من العرَق والبصاق والبول والبراز، وعلىٰ أرضها الرطِبة اللزِجة تكوَّمَتْ بقايا أشباح؛ صُفِّدت بالقيود والأغلال، والتحفَتْ بأغطية متربة مهترئة، بعد أنْ أَغمضَتْ أجفانَها علىٰ دمعات تحجَّرتْ، خشية افتضاح أمرها أمام زبانية قطَعتْ كلَّ ما أمر الله به أن يُوصل؛ فغَدَوْا في ضراوة الذئاب وخِسّة الضِّباع.

وصَفه الروائيُّ (الطاهر بن جلون) فقال: "قبرٌ رطبٌ كلَيْلٍ سرمديٍّ حالكِ الجلباب، استبدلَ الأسماءَ بأرقام، وانتزع الحواسَّ والآمال، ليتسلَّل الوهنُ ببطء فيُقصِي مَن يُحصِيه مِن الحياة ويُدْنيه مِن الموت"، وقال عنه الكاتب (مصطفىٰ أمين): "ما أطْول الليل فيه...كأنّه لا يَنتهِي أبدا! إنَّه أشْبه بالعَمَىٰ"، وقال أحدُ نزلائه السياسيِّين في حقبة (عبد الناصر): إنّه سُمِّي بالتّخْشيبة لأنَّ البشرَ يُكدَّسون فيه كما يُكدَّس الخشبُ في المخازن، ثمَّ وصَف جدرانَه بأنَّها ملطَّخةٌ بمزيج مِن دماء البشر ودماء الحشرات...بينما زاده الشِّعر وصفا فقال فيه (الرصافي):

"هو السّجن ما أدراك ما السّجن إنّه
جِلادُ البلايا في مَضيق التجلّد
بناءٌ محيطٌ بالتعاسةِ والشَّقَا
لِظلْمِ بريءٍ أو عقوبةِ مُعتدِ

مَحـلٌّ بـه تَهفـو القلـوبُ مِـن الأسـىٰ

فـإنْ زُرتَـه فـاربطْ علـىٰ القلـبِ باليـدِ

تَواصـــــلَتِ الأحـــــزانُ في جنباتِـــــه

بحيــث متــىٰ يَبْــلَ الأَســىٰ يَتجــدَّدِ"

مِنه مَرَّ يوسف النَّبي، وابن تيمية الإمام، وابن حنبل الفقيه، وسقراط الحكيم، ومانديلّا الزعيم، وسيد قطب الشهيد...ومازالت القافلةُ تسير.

والسّجن في عُرْف القانون الذي ارتضاه العالَمُ الحُرّ؛ ما هو إلاّ مكان لسلْب حرية شخصٍ أساء استخدامَها، وذلك بغرَض الزّجْر والرّدْع والتّوبة والإنابة، أمّا في عرْف اللاقانون الذي اختطّه الطغاةُ وانتهجَه ورثةُ الباستيل[1]؛ فقد أَضحت السجونُ مواقدَ جمْر، وفوّهات بنادق، وأقبِية تعذيب[2]؛ تُسلَب فيها الإنسانية، وتُهدَر فيها الحياة؛ بغرَض البطش والانتقام، والتحقير والتنكيل، والعسف والجور، وصولا لليأس والقنوط، وربّما الموت والنّفُوق... وصدِّق في هذا أو لا تُصدِّق، أنّ ملوك

(1) سجن (الباستيل)هو السجن الفرنسي الذي مثَّل رمزا للظلم والطغيان وانطلقت منه شرارة الثورة الفرنسية في 1789م.

(2) نقل (مهاتير محمد) في مذكراته إحدىٰ طرق التعذيب التي مارستْها الشرطة العسكرية اليابانية إبان غزوهم لماليزيا في الحرب العالمية الثانية؛ فقال: "كانوا يَضخُّون الماء بواسطة مضخّة عالية الضغط في فم المعتقَل، فتتمدَّد معدتُه، ثمَّ يضربونه عليها لتفريغها من الماء، وما هي إلا بضع مرات حتىٰ يَعترف...هذا إذا لم يكن قد مات!"

مصر الفرعونية وفارس القديمة، كانوا يفتحون السجون للخواص مِن أطبائهم، فيختاروا أحدَ النزلاء ويُعمِلوا فيه المَشارِط بحثا عن ماهية الحياة!، وأنَّ بعض الملوك كانوا يَستخدمون المساجين في تذوّق الطعام المَلكي أوّلا مخافة أن يكون مَسموما، وذلك بعدما اشتُهر القتلُ عن طريق تَسميم الطعام.

مِن الظّلمِ البيِّن أنْ يُحرَم السجينُ مِن حقوقه الأساسيّة في طعام وشراب ومَلبس ومِرحاض ومَنام يليق، ومِن حقِّه الإنساني في رعاية صحيّة وزيارة أُسَريّة، ومِن حقّه القانوني في ممارسة حياة زوجيّة وفي الخروج لحضور بعض المناسبات الاجتماعيّة الطارئة، ناهيك عن كامل حقِّه في ممارسة الرياضة وإقامة الشعائر الدينية ومواصلة التعليم إلىٰ أبعد الآماد.

وبهذا فإنَّ أيَّ أمّة تتوسَّع وتتفنَّن في إنشاء السجون وتدور رحىٰ مطابعُها علىٰ قمح وشعير أدبِ السجون؛ لهي أُمّة بائسة تبغض النور وتمجِّد الظلام وتخطو نحو الشقاء؛ لأنّها رسَبتْ في تربية الأفراد، وعجَزتْ عن توفير المُتطلَّبات الفِطْرية للمجتمع، ونكصَتْ عن تحقيق العدالة الاجتماعية، فكانت الجريمة هي النتيجة الحتْمِيَّة، وكانت السجون مجرد فضاء له سور يُخفي وراءه تلالا مِن سقوطها وانحدارها وفشلها الذريع.

ثـمَّ إنّ الممارسـات القمْعيّـة اللاإنـسانية داخـل الـسجون، لا تُفـضي لتهـذيب أو إصـلاح كمـا تـدّعي اليافطـات التـي تعتلـي جـدرانَها، بـل هـي للتعذيب[1] أقرب وبالإفْساد ألْصق، وهـو مـا حفظتْه الأضـابير بالـصّوت والصورة إزاء ما فعلَه الأمريكان في سجون جوانتانامو بكوبا وأبـو غريـب بـالعراق، ناهيـك عـن كونهـا قفـزة نحـو مـستنقع مـن الأحقـاد والثـارات، وتفريخٌ للعاهات والأمراض، ودعوةٌ للدخول إلـىٰ الكهـوف والـسراديب وممارسة العُنْف[2] والعُنْف المُضادّ.

ولكي تدرك مدىٰ التهذيب والإصلاح المزعوم، ما عليك إلا أنْ تطالع إحصاءات المساجين في جـرائم الـسرقة مِـن واقـع التقـارير الـشُّرَطيّة التـي تؤكِّد أنَّ ثلثاهـم(67٪) يعودون لارتكاب ذات الجرائم وكأنّ سـجنهم لـم يكـن إلا مدرسـة لتبـادل الخـبرات وجامعـة لاحـتراف الإجـرام واسـتراحة لالتقاط الأنفـاس، ومـا عليـك إلّا إلقـاء نظـرة علـىٰ نـسبة المـتردِّدين علـىٰ العيادات النفسية مِن المسجونين سابقا بعد أن أَظْلَمَت السجونُ أرواحَهم وأَفقَـدَتْهم الثقـة في ذواتهـم وشـوَّهتْ عقلَهـم الـواعِي والبـاطِن، فـسقطوا صرعىٰ للاضطرابات النّفسية والنَّفْسجسديّة... وهنا أَنقل لـك إحساس

---

(1) في كتابه (علـم الـنفس الـسياسي) يُعـرِّف الـدكتور (المهـدي) التعـذيب فيقـول: "التعـذيب صناعة بشريّة، يمارسه فئةٌ مِن الناس يتّسِمون باضطرابات في الشخصية، تجعلهـم قـادرين علىٰ تجاوز الحدود المعروفة للرحمة والعدل واحترام قدسية الحياة وكرامة الإنسان".

(2) يُعرَف العنف بأنّه: ضغط جسَدي أو معنوي، ذو طابع فردي أو جماعي، يمارسه الإنـسان ضد أخيه الإنسان.

القهر لدىٰ أحد النّزلاء لحظة خروجه مِن محبَسه، وهو الأستاذ (فتحي فضل) مؤلِّف كتاب (الزنزانة) حين يَقول:

"أَطللْتُ مِن النافذة وبصَقْتُ علىٰ السجن...ولو حلَّلَتْ المعاملُ الترابَ الذي يُحيط بالسجن لوجَدَتْه مُشَبَّعًا ببصاق آلاف المساجين".

قُلْ لِي مَن تَسجِن؟ أَقُلْ لك مَن أنت؛ فإذا أَردتَ أنْ تحكمَ علىٰ عدالة أُمّة فتمَعّنْ في معاملتها لمَسجونيها، وإذا أَردتَ أنْ تؤشّر علىٰ حضارة أُمّة فانظر في نوعية مسجونيها...فحين يُصبح جُلّهم مِن أهل الرأي والفكر والدّين فاعلم أنها أمّة للجهل أقرب وللضحالة أدنىٰ، وحين يُصبح جلّهم مِن الأمَناء المصلِحين فاعلم أنها أُمّةٌ للخيانة أقْرب وللإفساد أدْنىٰ.

ليس في ذلك دعوة فوْريّة لفضّ السجون علىٰ غرار هولندا[1] التي تراجعتْ فيها نسبة الجريمة وخلَت الزنازين مِن قاطنيها حتىٰ فاقتْ أعدادُ العامِلين والحرّاس أعدادَ النزلاء، بل هي دعوة لتحويل شعارات الإصلاح إلىٰ حقائق وللوصول بفلسفة التهذيب إلىٰ أرض الواقع، وهو ما لا يَتأتّىٰ إلّا بهجْر سياط الزبانية ونصْب ميزان العدل، و كسْر مناشير الظُّلم وفرْش بساط الحق، وغمْد سيْف القوّة وشدّ قوْس الدِّين والعقل.

(1) في عام 2009م أَقدمتْ هولندا علىٰ إغلاق 8 سجون، ثمّ أَغلقت 19 سجنا في عام 20014م، أمّا في عام 2016م فقد قامت بإغلاق 6 سجون أخرىٰ.

تحيَّة إلىٰ مَن قهروا القهْر ورفعوا لواء الحقّ؛ فما أَهمَّهم ليلٌ غَضوب ولا فَتَّ في عضدهم يومٌ عصيب، بل كانت السجون لهم خلوة وتأمّلا، وقراءة وتأليفا، ومراجعة وتمحيصا، وبوّابة للمجْد والسُّؤدد...وكانوا كما قال أحدُ نزلائه الكِبار:

"والليثُ لنْ تَحْنِيَ الأقفاصُ هامتَهُ،،،

وإنْ تَحكَّم فيهِ ألْفُ سجَّانِ"(1)

(1) من قصيدة للشيخ الدكتور (يوسف القرضاوي).

# 7- لا تَحزنْ

"مَهْــلا فقــد يَــلِدُ الأَسَى أفراحــا
فالليــلُ يُنجِــب للحيــاةِ صــباحا"

عبد الرحمن العشماوي

الابتلاءُ سُنَّةُ الله في عباده وقَدَرُ الله المَحتوم الذي مِن أجْله خُلق البشَر وأُنشِأَت الدنيا ودارتْ الأيام؛ فكثيرا ما تتكاثف السُّحُب وتلُوح الكوارث وتتوالىٰ المِحن وتهبّ العواصف وتنشط الأعاصير، فيموت عزيز أو تبور تجارة، أو يطعنك صديق أو تُفتَن في دين، أو نُصاب بحادث أليم و مرض عُضال...

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1]

وتحت نِير هذه الفتن ووقْع تلك الإحَن ينهدم البعض وينهزم؛ فتذِّل النفوس وتنكسر القلوب وتختلّ الموازين وتلوح في الأفق نُذُر الحيرة وبوادر التِّيه، فيغدو فئامٌ منّا قوالبَ بلا قلوب وأشباحًا بلا روح وخِرَقًا بالية وأعجاز نخلٍ خاوية، وتُصبح الثقافة المهيْمِنة هي ثقافة الإحباط واليأس، وتبدو كلُّ الطّرق مَسدودة وجميع النوافذ مُغلَقة وسُدول الحزْن[2] مَرخيَّة.

في رحاب الطبّ، وعندما يختلُّ النبض ويتوقّف الفؤاد وتُشرف النّفس علىٰ الرحيل؛ يهرع طبيبُ الحالات الطارئة فيصْدم القلبَ بجهاز الصدمات الكهربائية ليُعيد الأملَ لماكينة الحياة، وعندما تُظلِم دنيا الروح وتنكسر قناديلُ النفوس ويَصرعنا المرضُ ويَبلغ الاكتئابُ أقصاه؛ يُبادر طبيبُ الأمراض النفسية فيَصْدم الدماغَ بشحنة كهربائية تُعيد التوازنَ وتَمحو الهواجس.

وكما كانتْ هذه الصدمات الكهربائية مُنقِذة لقلبٍ تَوقَّفَ ولِمُخٍّ شُلَّ...

---

(1) العنكبوت 3.2

(2) قال الإمام النووي: "لو قرأ حزينٌ سورةَ يوسف لذهب حزنُه".

أفلا يمكن أن تكون تلك الابتلاءات، بلْسمًا للنفوس وشفاءً للعقول وتطهيرا للأبدان؟

و كما كان تحت الرغوة لبنٌ صافٍ ووراء الرّعد غيْثٌ وافِر ودون اللحاف فراشٌ وثير...أفلا يمكن أن تكونَ تلك المصائب التي تحوم فوق رؤوسنا وتغتالنا مِن تحتنا، هي في حقيقتها هدايا رائعة ولكنّها مُتنكِّرة؟

ظَلوم مَن يَنشد نعيما بلا مشقّة ونجاحا بلا عثْرة وانتصارا بلا انكسار، وغافِلٌ مَن لا يَعرف عن النار إلّا الدخان، وأَعمشٌ مَن لا يرىٰ في البلاء إلّا البَلِيّة؛ فكَم مِن أتراح أضحتْ أفراحا[1]، وكَم مِن مِحَن أَمْستْ مِنَحا، وكم مِن نِقَم صارت نِعَما...فمِن صلْد الصخور نبَعَ الماء، ومِن قلْب الطين نبتَتْ الأزهار، ومِن سواد الفحم كان بريق الماس، ومِن سُمّ الأفاعي تقاطَر الترياق، ووسط الدماء والصّراخ برَز الوليد الجديد، وعلىٰ وقْع صليل السيوف وُهِبت الشّهادةُ والجِنان، وعبْر بوابة الابتلاء كانت جائزة التمكين والاستِخْلاف...وفي هذا سُئِل الإمامُ (الشافعيّ) رحِمه الله:

أَيّهما أفضل للرَّجُل أن يُمَكَّن أو يُبتَلىٰ؟

---

(1) في هذا تقول الأديبة الأمريكية (هيلين كيلر) والتي شقَّت طريقَها بإرادة فولاذية متغلِّبة علىٰ إعاقتَيْ السمْع والبصر: "أَشكُرُ اللهَ علىٰ إعاقتي، فمِن خلالِها استطعتُ العثورَ علىٰ نفسي وعمَلي وإيماني بالله".

فأجاب بقوله: "لا يُمَكَّن حتّىٰ يُبْتَلىٰ".

## الثَّباتَ... الثَّباتَ[1]

إيّاك أن يتهدّج صوتُك أو تذلّ رقبتُك أو ينخلع قلبُك أو تتخلّىٰ عن مبادئك، إيّاك أنْ تسجد علىٰ عتبات البشَر أو تَسقط في فخِّ اليأس والقنوط أو تُسْلم قِيادك لشيطان رجيم؛ اجْعل الصدْمة سُلّمَ وصولٍ لا مُنحدَر سقوط، وميلاد نجاح لا نهاية حياة، ومطرا يُنبت ويروي لا سيْلا يُدمِّر ويُغرِق، وأملا يُحيِيك لا جرحا يُدميك فيُرديك.

## والرَّشادَ...الرَّشادَ

فالابتلاء اصطفاء كاصطفاء عواصف الريح لِعالي الأشجار[2]؛ ليَسمع اللهُ فيه أنّاتِنا ودعواتِنا، ويَختبر به صبرَنا وإيمانَنا، ويَترقَّب معه توبتَنا واستغفارَنا، ويُكفِّر به ذنوبَنا وسيّئاتِنا...والصّدْمة صرْخة؛ تَحثّنا علىٰ ردّ الحقوق والمظالم، وتَهيب بنا لمضاعفة الجهد وتصحيح المسار، وتدفعنا لتعديل الخطط وإجراء المراجعات، وتكشف لنا الصديق الصّدوق مِن الدَّعِيّ الكَذوب...أمَّا الهديّة والعطِيّة بعد التّخْلِية والتَّحْلِية؛

---

(1) هنا أسلوب إغراء، وفيه يتمّ تنبيه المُخاطَب علىٰ أمر محمود ليفعله، ويأتي منصوبا لِفعلٍ محذوفٍ تقديره الْزم.

(2) "إنّ الرياحَ إذا اشتدّتْ عواصفُها فليس ترمِي سوىٰ العالي مِن الشجر"
الشاعر(أبو الفضل بن الحنزابة).

فخُبزٌ نضَج علىٰ نار، ولبنٌ خرَج من بين الفرْث والدماء، وغيْثٌ ساقتْه الرياح، وجنّةٌ عرضها الأرض والسماء.

## والفرَح...الفرَح

فالثبات علىٰ المبدأ نصْر، والصبر علىٰ البلاء فرج، وبعض المنْع عطاء، والموت علىٰ الحقّ حياة.

وفي هذا تَروِي كتبُ السيرة أنَّ الصحابي الجليل (ابن عباس) -رضي الله عنه- فقد ضياءَ بصره وذهب نورُ عينيه، فتمْتم قائلا: "إنْ يَأخذ اللهُ مِن عيْنيَّ نورَهما،،، ففي لساني وقلبي منهما نور/ قلبي ذكيٌّ وعقلي غير ذي دخَل،،، وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثور"...كما يُحكَىٰ أنّ ثلاثةَ أشخاص ساقتْهم الأقدارُ إلىٰ الحبْس في حجرة ضيقة مع زاد قليل وماء أقلّ؛ فاغْتمَّ أوّلُهم أشدّ الغمّ وجُنّ، وضاقت علىٰ الثاني نفسُه فاكْتأب، أمّا الثالث فاعتبرها فرصة سانحة لتأليف كتاب ضمَّنه بنات أفكاره وعميق تجاربه، وبعد فترة أُطلِق سراحُهم، فذهب الأول إلىٰ سجن آخر وهو مستشفىٰ الأمراض العقلية، وحَبَس الثاني نفسَه في سجن الاكتئاب وانعزل عن تيار الحياة، أمَّا الثالث ففتح له كتابُه طريقَ الشهرة والثراء.

وهكذا يَكمن مفتاحُ الثّبات وسِرُّ الرَّشاد في تغيير ما نستطيع والرِّضا[1]

---

(1) في هذا يقول (الرافعي): جِئنا إلىٰ الحياة غير مُخيَّرين ونذهب عنها غير مخيَّرين، وما علينا إلا أن نمدّ يدَ الرضا والمتابَعة للأقدار، فقد تكون مُقبِلا والمنفعة من ورائك وقد تكون مُدبِرا والمنفعة أمامك.

بما لا نستطيع ولزوم عتبات مَن إذا أراد استطاع، وساعتها؛ طال البلاءُ أمْ قَصُر؛ هو غبارٌ سينجلي وسحابٌ سينقشع ودخانٌ سيزول، بعد أنْ يُميِّز الله مَن ثَبتَ فكان فارِسا ومَن انتكَس فكان غير ذلك، فما نبَتَ إلَّا ما ثَبَت كما قِيل في المثل...وطَيّب الله ثرىٰ مَن قال:

"كـلُّ الحادثـاتِ وإنْ تناهَـتْ فموصـولٌ بهـا فـرَجٌ قريـبُ"[1]

(1) يُنسَب البيتُ لسيدنا (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه.

# 8- افْتقِرْ إلى الله تكُن أغْنى النّاس

"ليس عيْبا أن تكون فقيرا
بل العيْب أن تكـون ثريّـا في
مجتمع يَعجّ بالفقراء"

**عزيز نيسين**

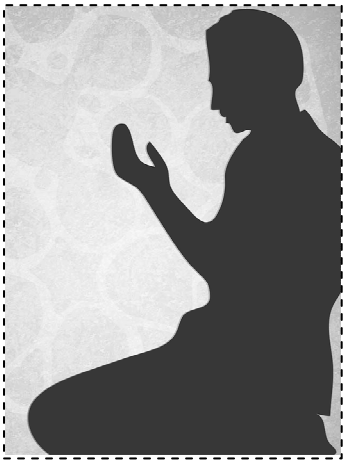

بـدْءًا مـن العـام الـسابع والثمـانين بعـد المائـة التاسـعة عـشرة(1987م)، دأَب العــالَمُ علــىٰ تدشــين الحلــم المــستحيل عــبر الاحتفــال بــاليوم العالمي للقضاء علىٰ الفقْر، وذلك في السابع عشر مِن شهر أكتوبر كلّ عام؛ وكلّمـا لاح ذِكـرُ كلمـة الفقْـر؛ تبـادَر للـذهن خـواءُ الجيـوب وشُـحُّ الطعـام

ونذْرةُ الماء واعتلالُ الصحَّة ورداءَةُ المسكَن وانتشارُ الجهل، وتَداعَىٰ للخاطر خطّ الفقر[1] الذي يقبع خلفه قرابة ربع سكان العالم، وتَراءىٰ لناظريْنا كروشٌ علىٰ وشك الانفجار وأرحام حُبْلىٰ بالدولار وجلودٌ التحمَتْ بالعظام وعروقٌ غاضتْ منها الدماء، كما استدْعت الذاكرةُ مقولةَ الإمام (عليّ) رضي الله عنه:

"لو كانَ الفقْرُ رَجُلا لقتَلْته".

تقول الأمثال أنَّ الشيطانَ يَرقص في جيْب المفلس، والواقع أنه يرقص ويغني ويمرح لا في جيبه فقط -وإلّا لهان الخطْب- بل في عقله ونفسه أيضا؛ فالفقْر وعيدٌ مِن الشيطان ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾[2] وبريدٌ للكُفر ومُقدّمة لأرتالٍ مِن المصائب وجيوشٍ مِن الآفات، حتىٰ قِيل أنَّ مَن يَجوع يوما يَغضب ومَن يَجوع يوميْن يَسرق ومَن يجوع ثلاثا يَقتل، فهو أحد أركان ثلاثية التخلّف المشهورة (الفقل-الجهل-المرض)، ويُصنَّف علىٰ أنه مشكلة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وأمنية وأخلاقية، وعلىٰ أكتافه قامت العديد من الحروب الأهلية الطاحنة وباسمه ارتُكبَتْ أقبح الجرائمُ المُجتمَعيّة، وقد تَعوَّذ منه خيرُ الأنام فدعا لأُمّته بالغِنىٰ والعَفاف، ودَعتْ لجنة نوبل النرويجية إلىٰ إيجاد حلول تضمن للعالم العيش في

---

(1) كلُّ فرد تدنّىٰ دخله إلىٰ ما دُون الدولاريْن ونأىٰ بصاحبه عن حدِّ الكفاف فهو داخلٌ تحت خطّ الفقر، أمّا الغني فهو مَن تراكم فائضُ المال لديه بعد إنفاقه علىٰ حاجاته الضروريّة والتحسينيّة والكماليّة.

(2) البقرة 268.

رَفاه فقالتْ: "لا سلام دائم مِن دون أن يجد الناسُ سبيلا لكسر طوق الفقر"، وذلك في معرض تعليقها علىٰ منح جائزة نوبل في السلام لبنك جرامين[1] المَعروف ببنك الفقراء ولمُؤسِّسه أستاذ الاقتصاد البنجالي (محمد يونس) المُلقَّب بقدِّيس الفقراء والذي يرىٰ أنَّ الفقيرَ في حقيقته مُفقَر بفعل منظومة اجتماعية واقتصادية ظالمة، وذلك في العام 2006م.

ورغم أنّ البارئ -جلّ عُلاه- قد قدّر في الأرض أقواتها وضمن لكل دابّة رزقَها؛ فالواقع المُعاش يقول بأنَّ الفقرَ ظاهرةٌ واسعة الانتشار، وما خلا منه زمانٌ ولا مكان خاصة فيما يُعرف ببلدان العالم النامي، ومِن بابه الواسع يُمكننا أن ندلف لحلّ جلّ المشكلات؛ فعندما أُخبِر حكيم الصين(كونفوشيوس) عن مشكلة النموّ السكاني المُتزايِد في ولاية (وي) الصينيّة، وسُأل عن حلِّها، أجاب: "أَغْنوهم ثمَّ عَلِّموهم" بمعنىٰ أنّ الفقرَ يَجرّ في أذياله كلّ النقائص.

أمّا عن أسبابه فهي مُركَّبةٌ بحجم تركيب الظاهرة ومعقَّدةٌ بحجم تعقيدها، ويُخطئ مَن يَختزل دراسةَ عِلَلِه و يَحصُر طرائقَ علاجه في الاقتصاد دون استدعاء البُعد الأخلاقي والاجتماعي إلىٰ الواجهة، خاصة إذا علمنا أن أقلّ من عَشرة بالمائة فقط مِن البشر يَمتلكون حوالي 90٪

(1) وُلِد البنك في عام 1976م كتجربة اجتماعية في ثوب اقتصادي بغرض محاربة الفقر في بنجلاديش التي تُعدّ مِن أفقر بلدان العالم، ويقوم علىٰ الإقراض بدون ضمانات وبأقلّ الفوائد الربوية(0-10٪)، ويَرىٰ أن القرضَ حقٌّ أساسي مِن حقوق الإنسان، ويُركِّز علىٰ النساء -اللائي يُشكِّلن 96٪ من عملائه- كمدخل لتحسين أحوال الأسر الفقيرة.

مِن الثروة العالمية بينما يتحارب 90٪ منهم علىٰ العَشرة بالمائة الباقية، وإذا أَمعنّا النظر أيضا في التقارير الاقتصادية التي تُشير إلىٰ أنَّ ما علىٰ الأرض مِن موارد يكفي لثلاثين مليارا مِن السكان وليس لسبعة مليارات كما هو التعداد العالمي الآن، وذلك خلافا لما افتراه (توماس مالتس) في كتابه الشهير (مبادئ السكان) مِن أنَّ الطبيعةَ فقيرة وبخيلة وأنَّ مواردَها محدودة لأنها تنمو في شكل متوالية عددية(1،2،3،...) بينما يزداد السكان في شكل متوالية هندسية(1،2،4،8،...)، فلو صحّ أنّ الاقتصاد فقط هو الباعث علىٰ الفقْر، لخلَت الخريطة العالمية للفقْر مِن حضور أمريكا؛ التي تَستعبِد العالمَ بدولارها، وتَقبض علىٰ شرايين رأس المال العالمي عبر شارع (وول ستريت)، وتَحتضِن في سجلّاتها أثْرىٰ أثرياء العالَم، وتمتلك أقْوىٰ اقتصاد في المعمورة حتىٰ صارتْ قلبَها النابض الذي إنْ توقّف أو اعتلّ تكلَّس الاقتصادُ العالمي واختلّ، ولكنها ذاتها بقضِّها وقضيضها هي مَن يُجلِّل بالعار جبينَها أربعون مليون فقير أغلبهم مِن السُّود ومعظمهم مِن ساكني الجنوب!

وهو -أي الفقْر- وإنْ كان خِزْيا وعارًا في جبين الحكومات والمسئولين الذين يبيعوننا الوهْم، فيعلفوننا وعودا برَّاقة بالقضاء علىٰ البطالة[1] وتحقيق العدالة الاجتماعية والارتقاء بالخدمات الصحيّة والتعليميّة، وذلك عبْر خطط خَمْسيّة وعَشْريّة لم تُجاوز الحبرَ علىٰ الورق

(1) في حين يبلغ معدل البطالة العالمي نحو 6٪، فإن معدّل البطالة في الدول العربية يزيد عن ضعف هذا الرقم!

والكلامَ علىٰ اللسان، لأنّ مُسطِّريها لـم يَرتـدوا يومـا أحذيـةَ الفقـراء ولـم يَسيروا ولو برهة في شوارعهم ولم يُفكِّروا لحظة بعقـولهم قبـل أن يـضعوا لهم تلك الخطط علىٰ حدِّ تعبير الاقتصادي الجنوب أمريكي (هرناندو دي سوتو)...

فـإنّ جريـرة المجتمـع الـذي تَنـصَّل مِـن التزاماتـه تجـاه الـضعفاء والعاجزين، وجريمـة الأغنيـاء الـذين أَعمـاهُم الجشَع عـن الـصّدَقة وغَـلّ الطمـعُ أيـديهم عـن الزّكـاة وسـاقهم الـشَّرَهُ إلـىٰ الإفـراط في الاسـتهلاك وسوّغتْ لهم الرأسماليةُ الاحتكار وتعطيل حركة الإنتاج ودورة المال، لا تقِلّ عارا ولا شَنارا–الشّنار أقبح العيْب–وهو ما عبَّر عنه الشِّعرُ خيْر تعبير فقال:...

"وحــسْبُك داءً أنْ تَبِيــت ببِطْنــةٍ

وحولَك أكبادٌ تحِنُّ إلىٰ القِدْر"[1]

أمـا في حـقّ الفقـراء الـذين طرَقـوا الأسـبابَ وسَـعوْا في الأرض وسْـع جهدهم[2]، واحتفظوا بإباء الـنّفس وثبـات الجَنـان ورسـوخ الإيمـان، فـلا يُعتبَر الفقْر مَسبّة ولا مَعـرّة؛ فـالأرزاقُ مُقـدَّرة قبْـل الخَلْـق لحِكمـة يعلَمُهـا

(1) يُنسَب البيتُ إلىٰ سيدنا (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه.

(2) يرىٰ صاحبُ كتاب القوانين الكونيّة(د. محمد الخضر): أنَّ الفقْر ليس مِن كينونـة الكـوْن، وأنَّ الكـونَ مُـشبَع بـالوفْرة لا بالقلَّـة، ويُلقِـي باللائمـة علـىٰ الفقـراء الـذين لـم يَسألوا الله بالطريقة المناسِبة!

فاطرُها، ولا مناص في الدنيا مِن وجود فقراء وأغنياء، إذْ لو كان الكلُّ أغنياء لما كان للثراء معنىٰ، ولو كان الكلّ فقراء لانْتفىٰ ألمُ الفقر وما طمح أحدٌ في الثّراء، علاوة علىٰ أنَّ كثيرا مِن أهل العِلم وأرباب الفِقه[1] والفِكر عاشوا فقراء مفاليك كما أَسْماهم (ابن علي الدلجيّ) في مَسْلاته لهم عبْر كتابه (الفلاكة والمفلوكون)، ناهيك عن أنّ الناس في ميزان الحقِّ لا يتفاضلون بما يملِكون بل بما يَعملون ويُحسِنون؛ فأكثر أهل الجنّة مِن الفقراء وهُم لها أسْبق من الأغنياء بأربعين خريفا كما رَوىٰ (الترمذيّ) في سُنَنه، بل إنَّ الزعيم الإفريقي (نيلسون مانديلا) ذهب بعيدا، فجعل للفقر فضائل؛ ووصَفه بأنّه محضنا لأكثر العلاقات البشريّة والصداقات ودّا وإخلاصا وأنَّه فرصة سانحة لإظهار ما في الآخَرين مِن صفات الكرم، وهو عيْن ما قاله (المازني) الذي عدَّ الفقرَ أستاذه الأول، وإليه أَرْجَعَ الفضل في إعطائه القوّة والقدرة علىٰ الكفاح وفي تعليمه التسامح وتَعويده علىٰ ضبط النفس وتَجْنِيبه احترام المال لذاته، إضافة إلا أنَّ قلّة المؤونة تزيد في الحرية وتَسمو بالكرامة وتَقلِّل مِن المخاوف إذْ تنتفي عندها علّة المداهنة والنفاق ويَسهل الترحال والتجوال ولا يَجد الريحُ شيئا فوق البلاط.

---

(1) قال (الزبيدي): "قلتُ للفقْر: أين أنت مُقيم،،،قال لي: في عمائم الفقهاء"، وقال آخَر: "إنَّ الفقيهَ هو الفقيرُ وإنَّما،،،راءُ الفقيرِ تجمَّعتْ أطرافُها".

وإذا كان هذا هو الحال في الفقْر الماديّ الذي يُذيب الشَّحم ويَفرِي اللحم ويَبرِي العظْم بعد أنْ قضَم وصادَر حاجات[1] الفرد الأساسيّة مِن غذاء وماء ومَسْكن ومَلبَس وصحّة وتعليم، فإنَّ هناك أنواعا أخرىٰ من الفقر أوْسع انتشارا وأكثر فتْكا وأشدّ عارا؛ فعُقولٌ خيّم عليها الجهلُ[2] ورسَتْ في مرفأها زوارقُ الخرافة والأباطيل هي عقول فقيرة، وقلوبٌ أكَلها الحِقدُ وانتحر علىٰ شاطئِها الحُبُّ وغارتْ في سمائها نجومُ العفْو والصّفْح هي قلوبٌ فقيرة، ونفوسٌ عمِيتْ عن الآخَر وسمنتْ فيها الذّات وصارتْ مرْتعا للوساوس والأوهام هي نفوسٌ فقيرة، وأرواحٌ زايَلها الخيْر ولازَمها الشرّ وأخْلدَتْ إلىٰ الأرض واتّبعَتْ هواها هي أرواحٌ فقيرة، وشخوص فقدَتْ حاسّة الإلْف وثمِلتْ مِن كؤوس الوَحدة فانفضّ عنها الأصدقاء الذين نركن إليهم في المُلِمّات ونستعين بهم في الحاجات ونستشيرهم في المُهمّات همْ أيضا شخوص فقيرة.

لاشكَّ أنَّ كلّ صور الفقر مَمقوُتة، سواء ما تَعلَّق منه بالمادّة فكان فقرا ماديًّا أو ما اتصلَتْ جذوره بالعقل والنّفس والروح فكان فقرا معنويّا، ولا

---

(1) تنقسم حاجات الإنسان إلىٰ ضروريات لا يمكن الاستغناء عنها ولا تتمّ الحياة بدونها، وحاجيّات تصعب الحياة بدونها، وتحسينيّات توفِّر مزيدا من الراحة والرفاه في العيش ويمكن الاستغناء عنها.

(2) للمفكِّر الإيراني (علي شريعتي) تعريف فِكْريّ للفقر يقول فيه: ليس الفقرُ ليلةً تقضيها دون طعام، بل هو يوم يمرّ عليك دون تفكير.

يُحْمَد مِن تلك الصور إلّا هذا الفقرُ[1] الحقيقيُّ الذي يُمثّل أُسّ الاعتقاد وشِيمة الأتقياء وحِلْية الأولياء؛ ألَا وهو الافتقار والاحتياج واللجوء الدائم إلىٰ الله جلّ علاه...ففَقْرنا في دنيا النّاس حرمان[2]، وفقْرنا في جوار الله عطـــــاء... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15].

(1) ورَد في كتاب (المساكين) لشكسبير العرب(الرافعي) : أنّ الفقيرَ هو أشْرف الألقاب لدىٰ الصّوفِيين.

(2) في هذا المعنىٰ يقول الشاعر(عبيد بن الأبرص): "مَن يَسأل النَاسَ يَحْرِموهُ، وسائلُ اللهَ لا يَخيبُ"، ويَقول (ابن عطاء الله) في حِكَمه: "العَطاء مِن المخلوق حِرمان والمنْع مِن الله إحسان".

# 9- حاذِرْ مِن فتنة المال

"المـــالُ كالمـــاءِ إنْ تُحـــبَس سَـــواقيه،،،
يَأســنْ وإنْ يُجْـرَ يَعـذبْ منـه سلـسَالُ"

يُـروَىٰ أنَّ شـابّا رأىٰ شـيخا قـد وثَــب وثْبــة عظيمــة علــىٰ نهــرٍ فتَخطّاه، والشّابُ يَعجز عن ذلك، فسأله عـن الـسِرّ وراء ذلـك، فـأراه الـشيخُ ألـفَ دينـار مربوطـة علىٰ خـصره!...و كـأنَّ شـغفَ الـشَّيخ بالمال وحرصـه عليه وخوْفه مِن فقْده حال السّقوط في الماء، هو ما بـثَّ القـوّةَ في عظامـه والطّاقـةَ في عـضلاته والرّشـاقةَ في قـدِّه والـشّبابَ في شيخوخته، فقفَز قفْز الفرسان وطار فوق الماء بلا جناح.

ولكن... هل يُبرِّر هذا الشغف وذاك الحرص قصَّة ذلك المأْفون الذي ورث جِينا مزدوجا لحُبّ المال فخالط شِغاف قلبه، ثمّ ساير العصرَ ودلف لأحد مواقع التسوّق الإلكترونية، وعرض ضميرَه للبيع في مزاد علنيّ يتقاذفه الدرهمُ والدينارُ والدولار، وذلك بعد أنْ باعه في الخفاء مِرارا حين شهد شهادة زورٍ في محكمة نظير دريهمات، أو أَنْجز معاملةً تحت بند الرشوة ببضع جنيهات، أو أَعطىٰ صوتَه الانتخابي لمَن ملأ له جيبَه ونفَخ له كِرشَه؟!

المالُ عصَب الحياة ووقود حركتها ودماء دوْرتها؛ فهو نصف زينة الدنيا علىٰ اعتبار أنّ البنون هم النصف الثاني ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [1]، وهو أمان مِن الفقْر، وحِصن ضدّ العوَز، ومصدر للقوّة ومَجْلبة للشجاعة. وله يَسيل لعابُ الكبير وتَطفِر دموعُ الصّغير، إلىٰ حدّ أنه قد يُذيب الرِّجالَ كما تُذيب النارُ الحديد ويُليِّن العقولَ كما تُليِّن الزيوتُ الجلود، وطالِبُه كوارِدٍ علىٰ ماء البحْر كلَّما شرب منه ازداد عطشا[2]، وقليلٌ مَن يَقنع منه بدون القناطير المُقنطَرة والألوف المُؤلَّفَة... ولذا؛ فقد ذَلّتْ له رقاب، وتَقطّعتْ أرحام، وأُزهِقَتْ أنفُس، وشُنّتْ

(1) الكهف 46.

(2) قيل لحكيم: لِمَ يَشبع الأَكولُ مِن الطعام بينما لا يَشبع الحريصُ مِن المال؟ فقال: لأنَّ الطعامَ يُحَصَّل في البطن التي لا يُستطاع أن يُزاد فيها، بينما المالُ يُحَصَّل في الخزائن التي يُستطاع أن يُزاد فيها.

حروب، و بِيعَ به سيدنا عيسىٰ (عليه السلام) مِن قِبَل تلميذه وحواريه الثاني عشر(يهوذا الإسخريوطي)، ورفعه الشاعر إلىٰ مرتبة اللسان في البيان والسّلاح في القتال فقال:

"إنَّ الدراهمَ في الأماكن كلّها تكسو الرّجالَ مهابة وجلالا

فهي اللسان لِمَن أراد بيانا وهي السلاح لِمن أراد قتالا"

ويَتَّسع مفهومُ المال فيتجاوز حدودَ النقود والأوراق المالية التي لَم ترَ النورَ إلا قبل بضع مئات مِن السّنين بعد أشواط طويلة من المُقايضة بالسِّلَع والمبادلَة بالذهب والفضة، ليشمل كلّ ما مالتْ إليه النّفس فامتشقَتْ حسامَها وسعَتْ جاهدة لاقتنائه والاستحواذ عليه واكتنازِه علىٰ أمل إشباع غريزة التملُّك[1] التي هي أحد أقوىٰ الغرائز الإنسانية، وهو ما يكون في صورة عقارٍ أو أرضٍ أو سيارةٍ أو ذهبٍ ويُصطلَح علىٰ تسميته بالمال الصامت، خلافا للماشية التي يُطلَق عليها المال الناطق.

وفي محاولة لاستطلاع مفهوم المال الذي قِيل عنه أنه الحاسة السادسة التي تَخدم الحواس الخَمْس، طرَحتْ إحدىٰ الصحف البريطانية سؤالا يقول: ما هو المال؟

---

(1) أحد الخناجر التي طعنَتْ بها الشيوعية نفسَها وعجَّلتْ بفنائها في أقلّ مِن قرن، هي محاولتها قتْل غريزة التملُّك والخصوصية، وذلك بتحويل البشر إلىٰ مجتمعات أشبه ما تكون بعوالم النحل والنمل.

فكان الجوابُ الذي استحقَّ الجائزة:

"المالُ جوازُ سَفَرٍ عالمي، يُمَكِّن صاحبَه مِن السّفَر إلىٰ كل مكان ماعدا السماء، كما يَجلب له كلَّ شيء ما عدا السعادة".

أمّا مركز دراسة أحوال الناس في ألمانيا، فقد أجرىٰ دراسة عمّا يراه الناسُ ضامنا لسعادتهم، وكانت النتيجة أنْ أجاب 80٪ من العينة المدروسة والتي ضمّت فئات مختلفة، بأنَّ غياب الهموم المالية هو الضامن الأوّل لسعادتهم.

كما أدْلىٰ الصحابيُّ الحكيمُ (أبو الدرداء) بدلوه في ذلك حين دأَب علىٰ الدعاء قائلا: اللهمّ إني أعوذ بك مِن شتات القلب، ولمَّا سُئِل عن شتات القلب، أجاب: أنْ يكون لك في كلِّ وادٍ مال.

ولكنْ...

ماذا بعد كل هذا التَّطاحن مِن أجل الدّرهم والدّينار؟

وماذا بعد كلّ هذه الحرْب الضَّروس لإشباع شهْوة المال؟

موتٌ يأتي بغتة، وكفَنٌ بلا جيوب، وقبرٌ بلا خزينة، ووَرثةٌ[1] يَتمتَّعون ويَلعنون، وميزانٌ يُنصَب للحساب والسؤال عن الفتيل والنّقير والقِطمير، وآخِرةٌ لا تعترف باليورو أو الدولار؛ بل العُملة الوحيدة المُعتَمَدة هي

(1) يقول الشاعر الجاهلي (الأضبط بن قُرَيع):
"قد يَجمعُ المالَ غيرُ آكله ويَأكلُ المالَ غيرُ مَن جمَعَه"

حسنات ندفعها جزاء وِفاقا جرّاء ما أجْرمنا في حقّ الآخَرين، أو سيئات نحملها عدْلا قَصاصا حين تنفد حسناتُنا ويُطالبنا الغرماء بالمزيد.

وما المطلوب إذَنْ؟

المطلوب؛

أنْ نجمع المالَ ولا نكنزه...

وأنْ نَمْلِكه ولا نُمَلِّكه...

وأنْ نُنفِقَه[1] ولا نُتلِفَه...

وأن نَستعبِدَه ولا نَعبُدَه[2]...

للمال وظائفُ ثلاث: فبه نَحفظ ماءَ وجوهنا، ونُكرِم أَهْلِينا، ونُودِع عند الله رصيدَنا؛ وهو ما أُثِر عن بعض الصحابة الأجلّاء الذي قال: حبّذا المال أَصون به عِرضي وأُرضِي به ربي، وعيْن ما قام به (هرم بن سنان) و(الحارث بن عوف) حين دفعا مِن حُرِّ مالِهما ما بلَغ ثلاثة آلاف بعير لإطفاء حرب داحس والغبراء[3] بين قبيلتَيْ عبس وذبيان، وما جاد به

(1) ورَد في الأثر أنَّ كلّ ما أُنفِق فيما لا يَنفع فهو حرام.

(2) "واللهِ ما شدَدْتُ عليه خيطا ولا منعْتُه مِن سائل"... تلك كانت السياسة النقدية للصحابي الجليل (خبّاب بن الأرت)، حيث كان يَضع مالَه في مكان يَعرفه روّادُ البيت، حتىٰ إذا ألمّ بأحدهم حاجة أخذَ منه.

(3) حرْبٌ جاهليةٌ وقَعتْ في منطقة نجد، واستمرّت أربعين عاما، علىٰ إثر خلاف في سباق بين الحصان العبسي المُلقَّب بداحس والحصان الذبياني المُلقَّب بالغبراء، وقد كان عنترة العبْسي أحد فرسانها المبرّزين.

صِدِّيق الأمّة حين وضع كلَّ ماله بين يدَيْ الحبيب وتحت قدمَيْ الدعوة فِداءً لنبيّ ونصرةً لدِين، وما بادر به ذو النُّورَيْن حين جهّز جيشَ العُسْرة واشترىٰ بئرَ رومة ليَحمي الحِمىٰ ويَروي الظمآن، وما فعله (صخر) مع أخته (الخنساء) حين قاسَمَها مالَه مرارا ليُقيم أودَها ويَفكّ ضائقتَها، وما دأب سيدنا (عروة بن الزبير) علىٰ فعله حين كان يفتح فتحة في جدار بستانه وقت الرُّطَب ليدخل مَن شاء فيأكل ثمّ يغلق الجدار بعد انقضاء الموسم، وما يُمارسه اليوم أصحابُ المروءات الأجْواد[1] حين تُظِلّ سماءُ كرمهم صرحا تربويّا أو اجتماعيّا أو صِحيّا وحين تُقِلّ أرضُ سخائهم يتيما أو مسكينا أو ابنَ سبيل.

أمّا حين يَغدو المال غايةً لا وسيلة وسَيِّدًا لا خادما وحاكِمًا لا محكوما؛ فيَسكن القلوبَ، ويَتربَّع علىٰ عرش النّفوس، ويُصبحُ راعيًا رئيسيّا ومُتحدِّثًا رسميّا، فساعتَها تذكَّر أن سيدنا (عيسىٰ) عليه السلام كان يُسمِّيه بالمَعبود الظالم، وتَذكّرْ (بني إسرائيل) الذين أُشرِبوا العِجلَ في قلوبهم، وكَبِّر علىٰ الدِّين ثلاثا وقُلْ علىٰ الدنيا السّلام، إذْ إنَّ المال هو مال الله وما نحن إلّا مُستخلَفون فيه، بمعنىٰ أنّه لله عندنا أمانة[2] ننتفع به فيما أَحلَّه ورخَّص لنا فيه، فاليوْم في يدنا وغدا في يد غيرنا، بل إنَّ أفْقر الفقراء هو مَن لا يملك إلّا المال وذلك لفقدانه ثراءَ الروح وغِنىٰ الشمائل، وهو ما أَوْمأَ إليه المفكِّر (عبد الكريم بكار) عندما قال: "حين تُصبح الوسائلُ

(1) الجُود أعلىٰ مِن الكرم؛ إذْ يَعني العطاء بلا سؤال أو فوق السؤال.

(2) كان بعض السلف الصالح يَأنَف مِن نسبة ما يَمتلكه إلىٰ نفسه، فيقول هو لله عندي!

غايات فإنَّ ذلك لا يعني سوىٰ شيء واحد؛ هو فقْد الاتّجاه وضياع المعنىٰ".

ويُمكننا هنا تشبيه المال والصحة وراحة البال بثلاث كُرات مِن نوع كرات البولينج التي تشبه البطّيخة ويَصعب علىٰ الإنسان حمْل أكثر مِن كرة واحدة في كلّ يد، ومِن ثَمَّ يَتوجَّب عليه أن يَقْنع باثنتيْن مِن الثلاثة فيحمل واحدة في كلِّ يد، و يا حبّذا لو كانتا كُرَتيْ الصحّة وراحَة البال...كما يُمكننا القول أنّ المال للإنسان كالماء للسفينة، فكما أنَّ السفينة لا تُبحِر إلّا في وجود الماء لكنّها تغرق حتما إنْ تَسرّب إلىٰ جوفها عبر ثُلُماتِها وغَمَر أحواضها، فكذلك الإنسان يلزمه المال لكي يمارس دوره ويَسبح في الحياة، لكنَّه يهلك حتما إنْ غزا قلبَه وشغفتْ به نفسُه.

فهذا هو الأعْشىٰ الكبير[1] أو (ميمون بن قيس)، مِن كِبار شعراء اليمامة، بلغ التسعين من عمره فشدَّ الرِّحال ليُسلِم بين يدي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقابَله أبالسةُ الكفْر وذكَّروه بدين آبائه وبحرْمانه من متعة الزنا وسكْرة الخمْر حال إسلامه، فما لانتْ له قناة، فأغروه بالمال ومنحوه مائة من الإبل، فلانتْ عريكتُه وهاجتْ غريزتُه وكَرَّ عائدا بكُفْرِه

(1) عدّد (الآمدي) في كتابه (المؤتلف والمختلف) سبعة عشر شاعرا يُلقَّبون بالأعشىٰ، وهذا هو كبيرهم وأَشْهرهم وأَشْعرهم الذي لُقِّب بصَنَّاجة العرب، وذلك لجودة شِعره وصلاحيته للتغنِّي به علىٰ وقْع الصنوج.

إلىٰ اليمامة، وقبْل بلوغ يَمامَته عثرَتْ دابّتُه ووقع علىٰ رقبته فمات!...ولله درّ (شوقي) حين قال:

"ولَـمْ أَرَ مثـل جمْـعِ المـالِ داءً ولا مِثــل البخيــلِ بــه مُــصابا

فــلا تَقتلــكَ شــهوتُه وزِنْـــها كمــا تَــزِنُ الطعــامَ أو الــشّرابا

وخُــذْ لِبَنِيــك والأيّــامِ ذُخْـــرا وأَعــطِ اللهَ حِــصّتَه احْتــسابا"

# 10- عقلُك عُمْرك

**"لا يُقــاس العُمْــر بطــول الــسنين، بــل يُقــاس بعــرْض الأحداث"**

**الشيخ علي الطنطاوي**

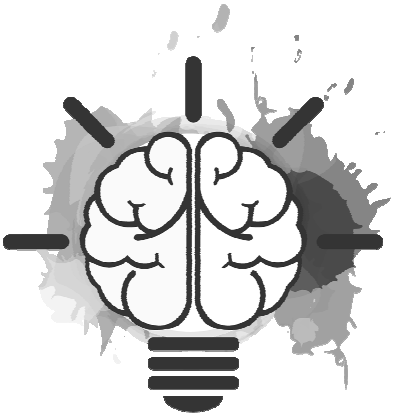

يقــول الكاتــبُ الإنجليــزي (برتراند رَسِل): "مِن المفيد أحيانا أن نغلِّــف المُــسَلَّمات بــبعض التّــساؤلات"؛ والمُــسلَّمات هــي المقولات التي ورِثناها كابرا عن كابر فالتصقتْ بالذاكرة وتَسلّلتْ إلىٰ قاموسنا اللغوي حتىٰ صارتْ قاعدةً ومَثَلًا تَبنّاه العقْل الجمْعي وأصبح في حُكم الثابت الذي لا يَنتطِح فيه عنْزان، فتَأبَّىٰ علىٰ النّقد، وتَرفَّع عن الدليل، وانتقَص مِن أيِّ تَبرُّم أو

شكّ أو اعتراض، مع أنَّ الشكَّ إنْ صادف زمانَه وموضوعَه كان طريقَ العالِمِ للوصول إلىٰ الحقيقة ودرْب الطبيبِ للظفر بالتشخيص وسبيل القاضي لضبط ميزان العدالة، وهو ما بَنىٰ عليه (فرانسيس بيكون) منهجه التجريبي حين قال: "لو بدأ الإنسان مِن المؤكَّدات لانتهىٰ إلىٰ الشكّ، ولو بدأ مِن الشكّ لانتهىٰ إلىٰ المؤكَّدات".

ومن جُملة تلك الأمثال ما يقول: "مَن زادَك في العُمْرِ زادَك في العَقْل"، مِمّا يَعني مشروعيّة الطَّعن في رأيٍ أو فكرة، لا لِخطَل في ذاتهما أو عِوَج في مضمونهما، ولكن فقط لأنَّ مَن فاهَ بهما يُناقض رأيا لمَن هو أكْبر منه وأَسَنّ عنه، ودون اعتبار لِما يُعرف بالانفتاح الفكري الذي يقوم علىٰ الاستعداد لمراجعة القناعات وتغييرها، ويتطلَّب جرأة في الطرح ونضجا في الفكر، ويعمل علىٰ هدم الأنماط الفِكرية غيْر الموضوعية.

وقريبٌ مِن ذلك المثل، ما عنَتْه العربُ حين قالتْ: "أكْبر منك بيوْم أَخْبرُ منك بسَنَة"، وحين زادَتْ: "زاحِم بعَوْدٍ أو فَدَعْ"، والعَوْد هو الجَمَل المُسِنّ، أمّا المَعنىٰ فيرمِي إلىٰ عدم الاستعانة إلّا بأهل السِنِّ وأرباب الخِبرة.

مَن أنتَ؟ وكَم عُمرك؟...تُكَأةٌ يتداولها المُفلِسون عندما يَعجزون عن المقارعة بالحجّة والتفنيد بالدليل والقياس بالمنطق؛ فيَلجؤون للشَّخْصَنة وميزان العُمر ليَحيدوا عن اللُّب إلىٰ القشرة، وعن المتْن إلىٰ الهامش،

وعن العيْن إلىٰ الحاجب، ليصبح الحوار باردا أجوفا؛ لا يغني مِن جوع، ولا يُثمر إلا خُفَّيْ حُنيْن.

ورغم أنَّ العالَم الثالث -ومِنه العالَم العربي-يُعرف بأنَّه مجتَمَعٌ شابّ؛ حيث يَندر أن تقترب فيه نِسبُ المسِنّين مِن حاجز العشرة بالمئة، فإنَّنا نجد المُتنفِّذين مِن حكّام ومسئولين في إداراته العليا لا ينتمون إلىٰ فئة الشباب عُمرا أو فكرا أو روحا، بل جلّهم ممّن أكل عليهم الدّهرُ وشرب وممَّن لبسهم الزمنُ وأبْلاهم؛ فدخلوا القصور من باب المستشفىٰ، وفاق أطباؤُهم مستشاريهم عددا، وشُغِلوا بأدوائهم عن أدوارهم... هذا لأنَّهم فقط زادوك عُمرا فزادوك عقْلا!

والشباب هي مرحلة الرجولة المبكِّرة بعد مرحلتي الطفولة والمراهَقة والتي اخْتُلف كثيرا في تحديدها زمنيا وتعيينها عُمْريا، وفي حين يُعرِّفها علماء البيولوجيا بأنها المرحلة التي يكتمل فيها وظائف الأعضاء الداخلية والخارجية، فإنَّ علماء نفس النموّ[1] يربطون بينها وبين اكتمال البناء النفسي والعقلي بشكل يُمكِّن الفرد مِن التفاعل السويّ في رحاب المجتمَع.

(1) يَختصّ عِلم نفس النموّ أو علم النفس الارتقائي بدراسة خصائص الإنسان في مراحله العُمرية المختلِفة بدءا مِن المرحلة الجنينية وانتهاء بمرحلة الشيخوخة، وذلك مِن حيث الخصائص الانفعالية واللغوية والعقلية والحركية والجنسية والدينية والاجتماعية والفسيولوجية.

وقد روَىٰ (البخاريّ) في صحيحه عن (ابن عباس) قوله:

"كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَأْذَنُ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَيَأْذَنُ لِي مَعَهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَأْذَنُ لِهَذَا الْفَتَىٰ مَعَنَا، وَمِنْ أَبْنَائِنَا مَنْ هُوَ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ.

قَالَ: فَأَذِنَ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَأَذِنَ لِي مَعَهُمْ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ السُّورَةِ (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) فَقَالُوا: أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فُتِحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ وَيَتُوبَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا تَقُولُ يَا بْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بِحُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَالَ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَذَلِكَ عَلَامَةُ مَوْتِكَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَلُومُونِي عَلَىٰ مَا تَرَوْنَ؟".

كما روَتْ كتُبُ الأدب[1] مناظَرة الغلام الأعرابيّ لأبي العلاء المعرّي حين سأله: أنتَ القائلُ؛

وإنِّـي وإنْ كنـتُ الأخيـرَ زمانُـه لآتٍ بمـا لَـمْ تَـستَطِعْه الأوائـلُ؟

فقال (المَعرِّي): نعم أنا القائل ولا فخْر.

فقال الغلام: ولكنّ الأوائلَ قد وضعوا ثمانيةً وعشرين حرفا للهجاء، فهل لك أن تزيد عليها حرفا واحدا.

---

(1) كتاب عالَم المكفوفين لمؤلِّفه د.الشرباصي.

فسكت أبو العلاء ولم يُحِرْ جوابا بعد أن أَفحمه الغلامُ وعَقر لسانَه.

ويُعضِّد ذلك (مالك بن دينار) بقوله:

"الجاهلُ صغيرٌ ولو كان شيخا، والعالِمُ كبيرٌ ولو كان حدَثا".

وكما ثَمَّن (الجاحظُ) المعتزليّ[1] العقلَ ووضع سيفه وذهبه فيه حين وصَفه بأنَّه وكيل الله في الإنسان بعد أنْ جَرَىٰ علىٰ الثقَلَيْن قانون التّخْيير لا التّسخِير، فإنَّ الأمثالَ أيضا تُوصَف بأنها شِعر العامّة وذؤابة البلاغة وعقل الحكمة؛ لِما فيها مِن إيجاز في اللفظ وإصابة في المعنىٰ وحُسْنٌ في التشبيه وجوْدة في الكناية[2]، علاوة علىٰ أنَّها عصارة الفكر الإنسانيّ وزبدة التجربة البشرية عبْر رحلتها الضاربة في عمق التاريخ...إلّا أنّ بعض تلك الأمثال يَصْدق فيها وصْف الهواء الفاسد والطعام المُلوَّث والماء العسِر؛ فاحترام الكبير لا يعني إجحاف الصغير والغضّ مِن قيمته، كما أنّ الاحتكام للخبرة لا يَجُبُّ رأيا سديدا بحجّة أنَّ قائله لَم تشِبْ ناصيتُه ولَم ينحنِ ظهرُه أو تنخر عظامُه، علاوة علىٰ أنَّ عامل العُمر وحده ليس مؤهِّلا للسِّيادة ولا خليقا بالسُّلطة، حتىٰ لو سلّمنا بصحة ما قاله الأعرابي بأنَّ

---

(1) المُعتزِلة والأشاعِرة والقدَريّة والجهْميّة؛ هي فرَق ضلّت في باب توحيد الصفات، فمنهم مَن عطّلها، ومنهم مَن أوّلها بتكييف أو تمثيل.

(2) هكذا قال (إبراهيم النظّام) الذي عاش في القرن الثالث الهجري، وكان أستاذا للجاحظ، ورأسا في المعتزلة الذين حكَّموا العقل في النقْل وخرجوا به عن إطاره الذي يقتصر في علاقته بالنقل والوحي علىٰ التأكُّد مِن صحّة المنقول وفهْمه لا غيْر.

خيْرَ عُمْر الرجل آخرُه إذْ يَذهب جهلُه ويَجتمع رأيُه ويَثوب حلمُه، وأَمَّنّا علىٰ أنّ مرور الزمن وتَقدُّم العُمر يَقترب بالإنسان من دولة العقل والمنطق ويُخرجه مِن بيْت طاعة المشاعر والعواطف ويَجعله أقلّ حيرة وارتباكا أمام كلّ موقف طارئ.

ما الأجيال إلّا حلقاتٌ تتشابك وخيوطٌ تتآزر في نسيج مجتمعي واحد بلا تطاحُن أو تهارُش، فالشباب يَرتكبون كبيرة ويُغَذُّون مفهوم الصّراع؛ حين يظنُّون أنّ حيويّتَهم وذكاءَهم يُغنيهم عن خبرات وتجارب أسلافهم، وحين يُصنِّفون الكبار علىٰ أنّهم رديفا للرّجعية والتشدُّد والجمود، وحين يغفلون أنَّ المَزِيَّة لا تقتضي الأفضلِيّة علىٰ حدٍّ ما قِيل. كما يَقترف الشيوخُ جريمة؛ حين يَدَّعون احتكار الرأي السديد والقيادة الحكيمة، وحين ينعتون الشبابَ[1] بالطيْش وعدم المسئولية، وحين يُؤمِّنون علىٰ ما يُقال بأنَّ الشباب مَطِيّة الجهْل، وحين يَتيهون فخرا مُحتجِّين بأنَّ الثمرةَ علىٰ الغُصْن تزداد حلاوة مع مرور الزمن وبأنَّ أفضل الحساء ما كان للهرِم مِن الدجاج.

لازلتُ أذكر قصّة إمام المسجد الذي انتهر صبيًّا وأمره بالرجوع للصلاة في الصفوف الخلفية، فتوارَىٰ الصبيُّ كمدا وانزوىٰ في طرف

(1) يَسُوق البعض دلائلَه علىٰ ذلك فيقول؛ بأنّ (إيفان) الرهيب الذي روَّع روسيا، و(هتلر) وحليفه (موسوليني) اللذان زجَّا بالعالم في أتون الحروب، لم يكونوا إلا شبابا في مقتبل أعمارهم؛ حيث بلغتْ أعمارهم(38،44،31 عاما) حال تولِّيهم الحكم.

الصفّ، ويشاء السميع العليم أن يتلعثمَ الإمامُ في القراءة ويختلطَ عليه الأمر، فما رَدَّه للجادّة ولا فتَح عليه في القراءة إلّا ذاك الصبي الحافِظ الحاذِق.

ولا زال التاريخ يُسجِّل قدوم وفد علىٰ خامس الخلفاء الراشدين (عمر بن عبد العزيز) ليعرضوا شكايتَهم، وكان المتحدِّثُ باسمهم صبيًّا صغير السنّ، فخاطبه الخليفةُ مستنكِرا: "يا بنيّ، أليس هناك مَن هو أسنّ منك فيتحدّث بلسان القوم؟!"، فأجابه الصبيّ النابه: "يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسِنّ لكان هناك مَن هو أحقّ منك بالخلافة".

وعلىٰ طريقة الرائد الذي لا يَكذِب أهلَه، وفي إنصاف القاضي وبلاغة اللّغوي، يَفْصِل صاحبُ الكامل[1] في المسألة فيقول: "ليس لقِدَم العهد يُفَضَّل القائل، ولا لحدثان عهده يُهتَضَم المُصيب، ولكنْ يُعطَىٰ كلٌّ ما يَستحقّ"... فليكُن الشباب نهر الحياة المتدفِّق ولْيكُن الكبار جسورا علىٰ ضفّتيْه؛ فللشباب حرارة وللشيخوخة برودة، والمزج بينهما يُثمر دفئا لذيذا في العقل وخيْرا عميما في جنَبات المجتمع.

(1) كتاب (الكامل في اللغة والأدب)، أحد أركان الأدب، لصاحبه أبي العباس المبرّد/ ت 286هـ.

# 11- أدِّ واجبَك وطالِب بحقِّك

"الحقوقُ ليست إلّا نتيجةً
حتْميةً للقيام بالواجب"

**مالك بن نبي**

ما اسْتقرّت الحياةُ علىٰ جُوديِّها ولا اسْتقامتْ علىٰ جادّتها إلّا في كنف ميزان ذي كفّتيْن متوازيَتيْن، وما أصابها الخَللُ ولا اعْتوَرَها الخراب إلا بحيْف إحدىٰ تلكما الكفّتيْن والخسْف بالأخرىٰ، بل إنّ ذلك الميزان الحياتيّ المقصود هو أَقْدم الموازين وأَلْزمها قاطبة... ولِمَ لا، وقد سوّاه واهبُ الحياة الذي هو -سبحانه- أعْلم بها وأخبَر بما يُصلحها ويُقوِّمها.

ميزان الحياة الذي أَرْستْه الشرائع السماويّة وأَقرَّتْه القوانين الأرضيّة وتَوافَقَ عليه البشر مِن بدْو وحضَر وعرب وعجم؛ قائم علىٰ ثنائية الحقّ الذي هو الأخْذ، والواجب[1] الذي هو العطاء، وماثِل للعيان في زاوية الأسرة ورحاب المجتمَع وميْدان الدولة، ولو فتَّشْتَ عن كلِّ خلَل في جنبات الحياة المترامِية ما وجدْتَ إلا غياب أحد طرفيْ تلك المعادلة التضامنيّة أو طمْس أحد وجهيْها المتلازِمَيْن؛ فما رسب طالبٌ إلا لأنّه طلب النجاح ولم يُعْطه حقّه من العرق والسهر، وما خسر تاجرٌ إلا لأنه انتظر ربحا لم يدفع ثمنَه من الصِّدق والأمانة، وما فشل حاكمٌ إلا لأنّه نشد الرّفعة والسيادة دون أن يُوفّيها حقّها من التواضع وخدمة الرعيّة، وما ولج أحدٌ النَّارَ إلا لأنّه أسْرف في المعاصي وتَمنّىٰ علىٰ الله الأماني.

وتُعرَف الحقوق بأنّها الأمور التي لا يَجوز منعها وتجوز المطالبة بها، ومنها ما هي حقوق طبيعيّة فِطْرية ثابتة كحقّ الحياة والتفكير والتَّملُّك والتناسل والاعتقاد والحُريّة وهي ما تُفصِّلها المقاصد الكليّة للشريعة أو ما اصطُلِح علىٰ تسميتِها بالضروريّات، ومِنها ماهي حقوق وضْعيّة مُتغيِّرة اكتسَبها الشّخصُ بفعل القانون والأعراف كحقّ العمل والسكن والعلاج وغيره...أمَّا الواجبات فهي ما لا يجوز تركه مِن الأقوال والأفعال، ومنها

(1) يقول الفيلسوف الفرنسي(جيل سيمون) في كتابه(الواجب): "الواجب هو التضحية، والتضحية حياة لله وللناس لا لأنفسنا فقط".

ما هي أخلاقيّة نابعة مِن الضمير، ومنها ما هي اجتماعيّة تضبطها القوانينُ والأعراف ولكنّها يجب ألّا تتعارض مع الأخلاق والضمير كذلك.

في طُرقات الحياة ودروبها، تلتقي بأناس يَضجّون بالشكوىٰ وتَرتفع عقيرتُهم بالصراخ مُعدِّدين حقوقَهم التي هُضِمَت وامتيازاتهم التي صُودِرت، بينما يُطأطِؤون الرؤوسَ ويَصمتون صمت القبور عند مطالبتهم بواجباتهم التي قصَّروا في أدائها والتزاماتهم التي أَخَلُّوا بها، فكانوا كالطامِعين المتواكِلين الذين يَسيرون في الحياة سيْر الأعور والأعرج ثم يَنقمون عليها حرمانهم من نصف الرؤية وشطر الخطوة، وهم في ذلك أصدق مثَل وأنْصع وصْف لقول الإمام (علي) -رضي الله عنه- في خطبة له خطَبها بصفِّين: "الحقّ أوْسع الأشياء عند التواصُف وأضْيقها عند التناصُف"، وهم في ذلك أيضا أبعد ما يكون عن حكمة الرجل المُسِنِّ الذي شُوهد يَزرع نخلة ولا يُنتظَر أن يَجني ثمارها في حياته ومُعلِّلا ذلك بقوله: زرَع مَن قبلنا فحصدْنا وها نحن نزرع ليحصد مَن بعدنا.

وببعض التمعّن في الأمور نجد أنّ جذور الحقّ والواجب واحدة؛ وكأنّهما فلْقتان لحبّة فول أو وجهان لذات الثوب، فحقِّي هو واجبٌ علىٰ غيري وواجبك هو حقٌّ لغيرك، بما يعنىٰ أنَّ الناسَ بعضهم لبعض وإن لم يَشعروا خدَم، وفي هذا يقول الفيلسوف المغربي (محمد عابد الجابري): "والغالب أنَّ فكرة الحقّ قد ظهرت هي وفكرة الواجب في وقت واحد،

وذلك لعلاقة التلازُم والتضايُف القائمة بينهما، وهي علاقة مازالت حيَّة في معاجم اللغة التي تعني بالبحث في أصل الكلمات"، وقد أكَّد الفيلسوف الجزائري المُتوفَّىٰ في عام 1973(مالك بن نبي)علىٰ تلازُم الحقّ والواجب كشرط من شروط النهضة التي قعَّد لها في أطروحاته الفكريّة، كما حرص علماء القانون والاجتماع علىٰ تأكيد ذلك حين أَردَفوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في منتصف القرن العشرين بما يُكمِّله ويُتمِّمه من الإعلان العالمي لواجبات الإنسان وذلك في نهاية القرن ذاته، بل إنّ الأديب الإيرلندي(برنارد شو) يُعرِّف الرجلَ الفاضل-أو المرأة الفاضلة- بأنّه الذي يُعطي الدنيا أكثر مِمّا يأخذ منها؛ أي يُقدِّم الواجبَ علىٰ الحقّ، ويُسائل الحياة عمّا يمكن أن يمنحها إيّاه أكثر مِن سؤاله لها عمّا يمكن أن تهبه وتمنحه، وذلك لما في أداء الواجب مِن مصاعب وتكاليف ومخاطر وآلام.

مِن الحصافة أن ندرك بأنّ بذل الواجبات هو أفْصح محام وأعْدل قاض وأمْضَىٰ سلاح لنيْل الحقوق علىٰ مستوىٰ الدوائر الخمس التي يدور في فلكها الفرد علىٰ مدار الساعة(الدين، الذات، الأسرة، الأمّة، الإنسانيّة)، وما سوىٰ ذلك لا يَعدُو قعْقعة بلا جيْش وجعْجعة بلا طحين وتأْتأة بلا حديث، فما نهضَت الأممُ من كبواتها ولا برأت الشعوبُ مِن نكباتها إلا بعد أن علا صوتُ الواجب وبعد أنْ تقدَّمتْ مصلحةُ المجتمع علىٰ مصلحة الفرد-دون سحقه وتهميشه-حتىٰ عَدّتْ دولةٌ -كاليابان-

مَن يتخلّف عن الوفاء بواجبه الاجتماعي خائنا يَستحقّ أقصىٰ العقوبة، مع أنَّ المواطنَ الياباني يَعمل أكثر مِن أي مواطن في العالم إذْ تبلغ إنتاجيّته أربعين ضعفا مقارَنة بغيره في ديارنا المسلِمة[1].

قد يَتحسّر واقعُنا المُعاش فيَجأر ملء حنجرته قائلا: ها نحن نُعطِي ولا نأخُذ ونبذل الواجب ولا نظفر بالحقّ و نَمنَح ما علينا ونُمنَع ما لنا، وليس في ذلك مُجانَبةً للحقيقة ولا تكذيبًا للواقع ولا غيابًا للميزان ولا حماقةً في الحكمة العَقَّادِيّة-إنْ جاز التعبير- القائلة: "عليك بالواجب ودَعْ الحقوق تسعىٰ إليك بغير عناء"، بل هو وصْف بائس للحياة حين تتسلَّل الإنسانيةُ مِن ثقوبها فتتدنّىٰ إلىٰ مستوىٰ الغابة، إلّا أنّ ذلك ليس مبرِّرا لترْك أداء الواجبات والوفاء بها؛ إذْ إنَّ العطاء غالبا ما يَسبق الأخْذ وانظر في ذلك ما قاله الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾[محمد:7] ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:60] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[الرعد:11]، كما أنّ المسافة بينهما-أي بين أداء الواجب والحصول علىٰ الحقّ- قد تطول في الأرض اعتمادا علىٰ مقدار العدالة التىٰ تَحكم العلاقات الإنسانية، وقد تَتخطَّىٰ حدودَ الدنيا إلىٰ الآخرة التي تُنصب فيها الموازينُ ويُقضىٰ بيْن الخلائق في النقير والفتيل والقطمير.

---

(1) في كتابه (أُفُق أخضر)، أوْرد (عبد الكريم بكار)، أنَّ الناتج القومي الياباني أربعة أضعاف ناتج العالم الإسلامي برمته، في حين يبلغ عدد سكان اليابان عُشْر عدد سكان العالم الإسلامي، بما يعني أنَّ إنتاجية الياباني توازي أربعين ضعفا لأحدنا.

وهنا آن لنا أن نقول؛ إذا كانت المعادلة المَنطِقيّة تُقرّ بأنَّ الحُريّةَ بلا مسؤولية فوضىٰ وأنّ الحياةَ بدون دِين مَرْعَىٰ، فإنَّها أيضا لا تنفكّ عن التأكيد علىٰ أنَّ الحقَّ بلا واجب فرعوْنيّة والواجبَ بدون حقٍّ عبوديّة.

كما لزم التأكيد علىٰ أنه إذا جاز أنْ تكون العُملة ذا وجه واحد-وهو ما لا يكون أبدا- فما جاز للحياة أنْ تكون بلا ميزان ولا جاز للحقّ أنْ ينفصم عن الواجب، إذْ ما أشبهَهما-أي الحقّ والواجب- بتِرْسان يَلتحمان ليُديرا عجلة الحياة، تماما كما تتلاحم تروسُ الساقية لتفيض بالماء وتروسُ الساعة لتضبط الوقت، إلَّا أنَّ مجتمَعا يَغلب فيه الحقُّ علىٰ الواجب هو مجتمَعٌ طامِع متواكِل، ومُجتمَعا يَغلب فيه الواجبُ علىٰ الحقِّ هو مجتمَعٌ خانِع كسِير...وكلاهما خطر علىٰ صحّة الحياة.

أَلَا ما أَحْوجَنا إلىٰ هكذا ميزان تُشرق به شمسُ العدالة علىٰ البشَر ويُرفرف فيه عَلَم المسئولية فوق رؤوسها، وما أَحْوجَنا كذلك إلىٰ موازين أخرىٰ ساق بعضَها نفرٌ مِن أهلُ العِلم فقال:

"الصلوات الخمس ميزان اليوم والليلة، وصلاة الجُمعة ميزان الأسبوع، وصيام رمضان ميزان العام، والحجّ ميزان العُمْر".

# 12- عليكَ بالأدَب الحقّ

"الأَدبُ الحـقّ هـو مـا كان
نقْـشا في الأرواح لا غـشاوة
للأبـصار، والأُدبـاء بحـقّ هُـم
رسُلٌ للروح لا حاكةً للأقنعـة
المُزركَشة"

**ميخائيل نعيمة**

يقـول (ابـنُ منظـور) في لـسانه الـذي يَحـوِي ثمـانين ألـف مـادّة لغويـة وتـسعة آلاف جـذر[1] لـسانيّ: "إنّ الأدبَ مـا سُـمِّيَ

(1) جذر(بفتح الجيم أو كسرها)الشئ هو أصله، والجذر اللغوي هو الوحدة المعجمية الأوّلية للكلمة والتي تحمل معناها ودلالتها، وهي الفِعل أو المصْدر عند بعض اللغويين.

كـذلك، إلا لأنّـه يـدعو النّـاسَ إلـىٰ المَحامِـد، وينهـاهم عـن المَقـابِح"، والمَحامِدُ هي كلّ ما يُقبَل ويُحمَد مِن الفضائل والمَحاسن والمَكارم، أمّا المَقابِح فهي كلّ ما يُنكَر ويُذَمّ مِن الرذائل والعيوب والنقائص.

ويُضيف شيخُ الكتابة(عبد الحميد الكاتب) في رسالته إلىٰ الكُتَّاب الـذين وصَّـفَهم بـأنّهم أهـلُ الأدب والمـروءات:"ارْغَبـوا بأنفسِكم عـن المطامع سَنِيِّها ودَنِيِّها وسِفْسَاف الأمور ومَحاقِرِها، ونَزِّهوا صناعتكم عن الـدَّناءة"، ولعـلَّ في تـسميتهم بأهـل المـروءات إشـارة إلـىٰ قـول بعـض السلف: "مِن المروءة أن يُرىٰ في ثوب الرجل وشفتيْه مِداد".

ولو اعتمدْنا هذا القياس الأخلاقيّ وطبّقْنا ذاك المعيار التربـويّ علـىٰ بعض ما بين أيدينا مِن منثور الأدب[1] ومَنظومه، لأَنّت الأوراقُ وتَأوّهَـت الأقلامُ وارتدّ البصرُ خاسئا وهو حسير، ولَهتفْنا مع (جبران خليل جبران) قائلِين: مَن يبيعنا فكرا جميلا بقنطار من الـذهب؟، فـبعض مـا كُتب علـىٰ الورق أقلّ قيمة مِن الورق وأسْود مِن لون المداد، إلـىٰ حدٍّ أنَّ مِنه مَـن لا تشتهي أن تَقربَه ومِنه مَن لا تَستحي أن تَصفعَه، إذْ لا أدَب ولا يَحزنون...

وإنَّمـا هـي عـشراتٌ مِـن المؤلَّفـات التـي قـذَفتْ بهـا أجـوافُ المطـابع وأرحـامُ دور النـشر في حُلّـة قـشيبة ودعايـة زاعقـة، ثـمّ جـاءتْ أقْـبحَ مِـن

(1) ذَكَر (الزيات) في كتابه (تاريخ الأدب العربي)؛ أنَّ الأدبَ قد يُطلق علىٰ جميع ما صُنِّف في كلِّ لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيَشمل كل ما أَنتجَتْه خواطرُ العلماء وقرائحُ الكُتّاب والشُّعراء.

الجدري في الوجه علىٰ حدّ قول (عبد الملك بن مروان)، وكانتْ تهاويلَ فارغة مِن الحقيقة علىٰ حدّ تعبير (ابن الشجريّ) وكانت أقرب للهالوك منها إلىٰ الوُرود علىٰ حدّ وصف الأديب الأريب (حلمي القاعود) وكانت سقوطا مِن سموّ متعة الثقافة إلىٰ وحْل ثقافة المتعة؛ وذلك حين خلَتْ مِن لون وطعم ورائحة الأدب الذي قصده (الكاتب) و(ابن منظور)، وبعد أنْ فصَمَت المدلول الفنيّ للأدب عن بُعده الأخلاقيّ؛ فكان الفنّ[1] للفنّ لا للحياة، وكانت جماليةُ الأدب مُقَدَّمة علىٰ مضامينه-هذا إنْ وُجدت مَضامين- وتَنصَّل مِن كوْنه بالأساس مُنتَجا اجتماعيا لكائن اجتماعي.

أمَّا الأمثِلة علىٰ ذلك فنجدها في كتابٍ ضَمّ إلىٰ الحشَف سُوءَ الكيْلة بدعوىٰ أنَّ الالتزام قيْد علىٰ الإبداع وأنَّ الحرية المُطلَقة عشيقةٌ لليراع، وفي مقالةٍ نقضَت القيَم وشكّكَتْ في العقيدة وافْتأتَتْ علىٰ الحقيقة، وفي قصّةٍ عارية مكشوفة أَلهبَت الغريزة ودَغدغَت الشعور وزيَّنَت الخبيث وكانت كالمُخدِّر الذي يُسكِّن ويُهيِّج علىٰ حدّ تعبير(الرافعيّ)، وفي روايةٍ لمْ تَرَ في ربوع المجتمع إلّا شابا وفتاة ولم تَعِ مِن حروف اللغة إلا الحاء والباء، وفي مسرحيّةٍ كلّ مبتغاها أنْ يُفصح قارِئُها أو مشاهدُها عن بياض أسنانه حين يُباعد بين شفتيْه وشدقيْه، وفي شِعرٍ مُخدِّرٍ استلَّ الآهَ واستحَثَّ الدمعَ واستمْلَح القبيح وكان أبعد ما يكون عن قول (أبي تمام):

---

(1) عن الحُكم الشرعي في الفنّ يقول الشيخ (عمر عبد الكافي): "الفنّ شيء إبداعي؛ حلاله حلال وحرامه حرام".

"ولـولا خِـلالٌ سَـنَّها الـشِّعرُ مـا دَرَىٰ

بُغـاةُ المَعـالِي كيـف تُبنَـىٰ المكـارمُ"

فارِقٌ بين مَن يَتوضّأ ويَتعطَّر ويُصلِّي قبل أن يَكتب وبين مَن يُدخِّن أو حتىٰ يَسْكر ليَكتب، فالقلم -الذي تَسمَّتْ به ثاني سور القرآن نزولا وافتَتَح الخـطَّ بـه نبـيُّ الله (إدريـس) عليـه الـسلام ووصـفه (العتـابي) بأنّـه مَطِيّـة الذّهن- أمانةٌ ومسئوليّةٌ وشرَف[1]؛ انتهكَها البعضُ فأَتىٰ بالمقابح، بينما أَدّاها ووفّاها أصحابُ المحامِد، إدراكا منهم أنَّ اللفظ يَزول والمَكتوب يَـدوم، وأنَّ رضـا القـارئ دون رضـا القـادر، وأنَّ الرسـالةَ أوَّلا والـشُّهرة عاشرا، وأنَّ الدنيا وإن كانتْ أكبر مِن كونها وسيلة إلا أنّها لا ترتقي بحال إلىٰ مرتبة الغاية.. ولقدْ سُئل الشيخُ (الشعراوي) -رحمه الله- عن سبب توقّفـه عـن الكتابـة في أُخْريـات حياتـه فقـال: لأنّـي أعـرف شـرائط الكتابـة....وهكـذا لا يُقـدِّر الأمـورَ حـقّ قـدْرها إلا العقـلاء، ولا يَعـرِف العظائمَ إلا العظماء، ولا يَرِد المهالكَ امرؤٌ عرف قدْرَه.

للأدب صُنَّاع ثلاث: أديبٌ يُبدع ويَكتب، وقارئ يَقرأ ويُطالع، وناشر بمثابة الجسر الذي يَصل الكاتبَ بالقارئ، ولِكلٍّ نصيبه ووِزره من تلك الكعْكة العفِنة التي تُسمِّم أجواءَ المعرفة وتُلوّث نهرَ الثقافة وتُزري بأمانة

(1) قد يُعبِّر الشخصُ عن مكنوناته باللفظ أو الإشارة حال حضور المُخاطَب، وقد يُعبِّر بالكتابة التي لا تتطلّب حضور المُخاطَب، وهذه تدوم أطول مِن اللفظ والإشارة ويَختص بها الإنسانُ دون غيره، ولذا كان نفعها أعمّ ومنزلتها أشرف ومسئوليتها أكبر وأعظم.

الكلمة؛ فتُلْبِس الأدبَ رداء اللّا أدب، وتَجذِب الأمَّة إلىٰ غياهب العتمة وقِيعان الرزيلة.

فالأديبُ الشاعر[1] حادَ عن قانون الشِّعر الذي صاغه أميرُه (أحمد شوقي) حين قال:

"والشِّعرُ مالم يكُن ذِكرىٰ وعَاطفةً
أو حِكمــةً فهــو تقطيــعٌ وأوزانُ"

ثمَّ تلاه الأديبُ الناثِر الذي ضرب عرض الحائط بمقولة الدكاترة (زكي مبارك): "ليس مِن المروءة ولا مِن الشرف أنْ يُسَخَّر القلمُ فيما لا يَليق بالأدب الصحيح".

و في أثرهما واصل الناشرُ أو التاجر الثقافي رحلة التِّيه الأدبي، فغفل عن أنَّ الدالّ علىٰ الشرّ كفاعله تماما كما أنَّ الدالّ علىٰ الخير كفاعله، ثمّ كال في ذلك بمكياليْن حين أدَّىٰ حقَّ المؤلِّف ووفَّاه بحكم القانون، بينما لم يُراعِ ما للقارئ مِن حقوق[2] كفَلها المنطقُ لا القانون ونصّت عليها الأخلاقُ لا الأَعْراف.

---

(1) يرىٰ (أفلاطون) أنَّ الشعراء كاذبون وفاسدون ولا مكان لهم في مدينته الفاضلة!

(2) تتضمَّن حقوق القارئ أحقيَّته في الحصول علىٰ جوْدة المحتوىٰ والمضمون، وهما ما يُسأل عنهما الكاتب والناشر معا ولكن بنسب متفاوتة، وذلك جزَّاء ما دفعه القارئ مِن مال وبذله مِن جهد واستنزفه مِن وقت.

ويَبقىٰ القارئ هو الفاعل الأكبر؛ باعتباره الوجه الثاني لعُمْلة الكتابة، وبحسبانه صاحب الكلمة الأخيرة في كلّ كتاب، فاختيار غذاء العقل وأديم الروح يستوجِب التدقيق فيما نَقرأ[1] والتمحيص عمَّن نقرأ، إذْ إنّ ما يزرعه المرْء في روْعه يحصده في سلوكه وما يطوف بعقله ينسكب في فعله، إضافة إلىٰ أنّ أنفع المكتوب وأجداه هو ما جمَع بين أدب الكاتب وأدب القارئ؛ إذْ يَسقيه الكاتبُ مِن عيْن الفضيلة ونبْع الأخلاق، ثمَّ يَأتي القارئ فيرْتديه ثوبا ويرْتضيه منهجا ويَختطّه سلوكا.

سيظلّ الأدَب أدبا؛ ماهيّته الإلمام مِن كل فنٍّ بطرف، وغايته تحويل المتعة إلىٰ فائدة والفائدة إلىٰ متعة ورياضة النفوس علىٰ محاسن الأخلاق، وإطاره الحريّة المَسئولة، دون أنْ نعتسفه ليكون عِلما جافا باردا أو وَعْظا أقرب إلىٰ الطبْل الأجوف أو خطابة يَملّها السامعُ بعد حين...وساعتها نؤمِّن علىٰ الافتراض القائل "لو أنَّ في الصناعات صناعة معبودة لكانت الكتابة رَبًّا لكلِّ الصناعات".

أمَّا حين يَنزِع عنه رداءَ الأدب ويُصبح أدبا بلا أدب واسْما علىٰ غير مُسمّىٰ ونهرا بلا ماء... فمِن حقِّنا هنا أنْ نتساءل مع (فرجينيا وولف) كأحد رموز الأدب الإنجليزي في القرن العشرين حين قالت: "ألَا يَجب أن نَعتبر بعضَ المؤلِّفين كالمجرمين؟ وألَا يحقّ لنا أن نعتبر الذين يَكتبون

---

(1) قد تكون القراءة رذيلة وقد تكون فضيلة، فإن كانتْ قتْلا للوقت فيما لا ينفع وتغْييبا عن الوعي كالمخدِّر فهي رذيلة، أمَّا إن كانت للنفْع والوعْي فهي فضيلة.

كُتُبا سيِّئة تملأ هواءَنا بالعفَن والأمراض أخْبث أعداء المجتمع؟"، ومن واجبنا ساعتها أنْ نخذل فقيد الكُتُب وشيخ الأدب وصاحب البيان والتبيين الذي نَصَح بقراءة كل ما طالتْه الأيدي، ولا مَحيد عندها أيضا مِن لزوم مقياس (الكاتب) و(ابن منظور)، فنغذّ السيرَ ونسرع الخُطا إلىٰ أدباء المحامد بعيدا عن دعاة المقابح الذين يَستحقّون اللفظ كالنواة والمفارَقة كالكُفْر.

قُرّائي الأعزاء: تَذكّروا أنَّ اللباسَ لا يَصنع الرجل والحصانَ لا يصنع البطَل والإخراجَ الجيِّد للكتاب لا يُجوِّد الكاتِب الرديء، وكونوا مِن النوع القرائي الثالث الذي وصفه (جوته) بأنّه يُقيِّم ويَستمتِع في آن واحد وبأنَّه يُعيد إنتاج العمل الفني بشكل جديد، وإيّاكم وأشعة الانبهار؛ فليس كلُّ مطبوعٍ ومنشورٍ يَستحقّ الاحتفاء به أو التبتّل إليه كراهبٍ في محراب عبادة أو طالبٍ في مقام درْس أو مُريدٍ في حضْرة شيخ، فمَا الكُتَّاب إلا صيّادون في بحر المعرفة؛ منهم مَن يصطاد أحجارا ومنهم مَن يصيد أسماكا ومنهم مَن يصطاد أصدافا ومنهم مَن لا يصيد إلّا اللآلئ...وبهذا يظلّ السموّ الأدبيّ قليلا كالخيْر ومُخالِفا كالحقّ ومُحيِّرا كالحُسْن وكثيرَ التكاليف كالحرّية حسْبما صدَّر بذلك (الرافعيُّ) كتابَه (المساكين).

# مرحلة الانطلاق

## ( 12 خطوة )

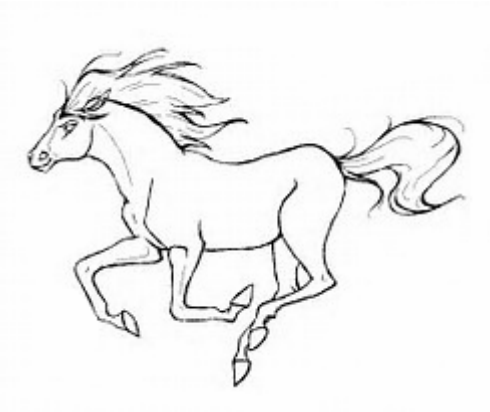

# 1- اصْنع مِن الماضي الجميل حاضراً أجمل

"ليس العـلاجُ سـوى مظـاهرَ حِكمـةٍ
فـلِذاك قـد دُعِيَ الطّبيـبُ حَكيمَـا"

المؤرِّخ والأديب اللبناني (عيسى المعلوف)

كثيرا ما يأتي الحديثُ عن الماضي مُفعَما بعبق الزهور، و مُعَطَّرا برائحة البخور، ومُنعِشا كنسمات الربيع؛ ربّما لأنّه ولّىٰ فصار مفقودا والنّفس جُبِلت علىٰ نعي الفقيد، وربّما لأنّ إيابه صار ممنوعا فكان في النفس مرغوبا، وربّما لأنّ صُورتَه اكتملَتْ ومعالمَه اتّضحَتْ فلم يَعُدْ به مِن المجهول ما نَخافه ونَرهَبه، وربّما لأنّنا كشَرقِيِّين أَمْيل إلىٰ الماضي مِنّا إلىٰ

الحاضر والمستقبل كما يَرىٰ (جبران خليل جبران)، وربّما لأنّ تَباعُد الأيام يُذيب مرارتَها ويُخفِّف أنينَها ويُسكِّن أوجاعَها بينما تَتلألأ وتَبرُق ذكرياتُها الجميلة فتزداد توهُّجا ولمعانا ويُصبح الحنينُ للزمن الجميل تيّارا جارفا لا يُقاوَم...خاصَّة عندما تغيم سماءُ الحاضر وتتكثَّف سُحُبُ المستقبل ويَأتي السيْلُ مُحَمَّلا بالزّبَد.

وفي هذا السياق سألْتُ جدّتي[1] يوما – باعتبارها مكْمن الأسرار وأُمّ التاريخ ــعن سبب تسميتي بهذا الاسم المَيمون(مُنير)[2] الذي شَذَّ عن المألوف في زمانه ونَدَّ عن الشّائع في حينه رغم أنَّ قواميس اللغة احتفَتْ به وذكرَتْ أنّه اسم فاعل للفعل أَنار وأَنّ مِن معانيه مُضيء ومُشرِق وحَسَن المنظر ورائع الحُسْن، فأخْبرَتْني-رحمها الله- أنّه كان تيمُّنا باسم طبيب القرية وحكيمِها آنذاك...

ولا غرْو؛ فقد كان الحكيمُ في ذاك الزمن الجميل مُلهِما للأحلام ووقودا للآمال ومُعجَما للأسماء لدىٰ الكثيرين؛ أَلبَسوه رداء الحكمة التي هي أعلىٰ درجات العقْل وأَسمىٰ مراتب الفِطنة وأرْفع الفضائل علىٰ حد الوصْف الأفلاطوني، ثمّ قلّدوه لقب الباشويّة -التي كانت مَطْمحا

---

(1) الحاجّة (زينب) رحمها الله.

(2) أذكر أثناء عملي بالمملكة العربية السعودية، أنَّ أحدَهم كان لا يناديني إلا (مَنير) بفتح الميم، وهو اسم فاعل مِن الفعل نار الذي يرتبط بالنار والإضرام والاشتعال، وبهذا فإنه قد طوَّح بالمعنىٰ بعيدا-مِن غير عِلم ولا قصد-وعُذره في ذلك أنّه كان أُميّا.

ومَطْمعا لذوي الوجاهة وأرباب الثراء آنذاك- فصار(باش حكيم)، كما كان رمزا وأيقونة في رحاب المجتمع؛ إذْ تراه إماما في الصلاة، وحَكَما في المُلِمَّات، وضيفَ شرفٍ في المناسبات، ومصدرَ فخرٍ لِمَن يُجالسه، ومَثار تِيهٍ لِمَن يُصافحه، ومَبعث زهوٍ لِمَن يُصادقه ويُصاحبه، حتىٰ سَرَتْ مقولة: "لا تستطيع أن تكون امبراطورا بين يدىٰ الطبيب"...هذا لأنَّ الامبراطورَ هو الطبيب.

ومِن إشراق الماضي إلىٰ غيوم الحاضر نطير، ويأتي ذِكْر الطبيب فيُزايله لقبُ (الحكيم) و(الباشا) و(البيك)، وتَختفي الهالةُ ويَغيب التبجيل، ولا صوت يَعلو علىٰ التجاهُل وربّما التطاوُل!

هل الدولة ضالعة في هذا؟

نعم...

فبعض المِهَن تُؤمِّنها الدولةُ ماديّا ومعنويا، بحجّة أنّها جهات سيادية وتضطلع بمسؤوليات بالغة الحساسية؛ كالأمْن للشرطي والعدل للقاضي والدفاع للجندي، وغفلتْ عن أنَّ أنفس مسئولية هي تلك المُلقَاة علىٰ عاتق الطبيب، وله كامل الحق في تأمين مهنته كهؤلاء، وإلّا فإننا لسنا بمَنأىٰ عن مقولة (برنارد شو): "ليس هناك ما هو أكبر خطرا مِن الطبيب الفقير".

إضافة إلىٰ أنّ الامتثال للعوْلمة واعتبار الصحّة سلعة وليست خِدمة في إطار التسْليع والتَّشَيُّؤ لكلّ ما هو إنساني؛ انتقَص مِن قَدْرِمهنة الطبّ،

وأَزْرىٰ بالمتعاملين فيها، وجلَب لها كلّ أمراض السلع التي تعتمد ابتداءً علىٰ مبدأَيْ العرض والطلب والربح والخسارة.

هل تَغيّر المجتمع؟

بالتأكيد...

فقد صارت المادة عنوانا وميزانا بها يكيل النّاسُ البشرَ وعليها يجرِي التصنيف والتبجيل، فما رجحتْ كفّة الطبيب، ولكنَّها مالتْ بلَذَاته مِن أرباب الملايين، أشباه لاعبي الكرة والمُمثِّلين والإعلاميّين!

وهل تَصنع النُّدرة القيمة؟

ربّما...

فلو أصبح التِّبر في نُدرته ترابا في كثرته لَما احتفىٰ به التُّجَّار ولا اشتاقتْ له أجياد النساء ولا سال له لعاب الفتيات، وها أنتَ ترىٰ بأمّ عينيْك في كل بيت طبيب وعلىٰ كل قارعة طريقٍ ترتفع لافتةٌ لطبيب.

وهل تَغيَّر الطِبّ؟

بالقطع...

فبعد أن كان الطبُّ رسالة إنسانية بما فيها مِن جلال المشاعر وفلسفة الخيْر وعذوبة العطاء، أصبح مهنة احترافية كباقي المِهن وسوقا استثماريا كأسواق المال، يُدير دفَّتَه رجالُ أعمال يُسَمُّون المريض زَبون، ويُقيِّمونه كمشروع، ولا يَحترمون فيه إلّا حافظة نقوده وبطاقتَه البنكيّة، مع التأكيد

هنا علىٰ أنّه لا غضاضة في تحقيق الأرباح طالما اندرجتْ ضمن فلسفة الاقتصادي الأمريكي الشهير(فردريك سميث) وصاحب أول شركة بريد سريع في العالم؛ والذي قدّم فيها الإنسانيّة أوّلا، ثمّ الخدمة المُميّزة ثانية، ثمّ وضع الربح في المرتبة الثالثة والأخيرة.

وهل تَغيّر الطبيب؟

نعم...

فقد صار البعضُ مِثالا للجشع بعدما غزت المادّة عقلَه وقلبَه في غفلة مِن شريعة (حمورابي)[1] التي يَعود تاريخها إلىٰ القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وكانتْ تقضي بحبس الطبيب الذي يزيد في الأجْر المُقدَّر له، كما بات البعضُ اسما علىٰ غير مسمَّىٰ[2] بعدما تراجع دورُه مِن طبيب يُعالج المريض إلىٰ نصف طبيب يعالج المرَضَ لا غيْر...وما أَفسدَ الطبَّ إلا أنْصافُ الأطباء.

تُرىٰ، بعد هذا التحوّل مِن الطَّرَف إلىٰ نقيضه...

هل مازال الإمام (الشافعي) عند رغبته التي أَبْداها يوما في أن يكون طبيبا؟

---

(1) تَربَّع (حمورابي) علىٰ عرش بابل مدة اثنتين وأربعين سنة، وكان سادس ملوكها، وتألّفت شريعته من مائتين وإحدىٰ وثمانين مادّة تناولت مختلف جوانب الحياة.

(2) في هذا أُثِر عن (أبقراط) قوله: "الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل"... ففي الوقت الذي يُعالِج الدواء المرض؛ علىٰ الطبيب أن يوجّه اهتمامه إلىٰ علاج الإنسان المريض.

وهل ثَمَّةَ نوستالجيا (الحنين المَرَضي إلىٰ الماضي) عندما ننادِي بعودة الماضي الجميل، أو عندما نردِّد مع الشاعر(عبد الوهاب القطب) قوله:

"كَمْ أمْسِ ضاحَكْنا عُهودًا عَذْبةً  واليومَ ذكراها تُثيرُ الأَدْمُعَا"؟

أمْ هي دعوة لأن نصنع مِن الماضي الجميل حاضرا أجمل؟

# 2- احْلَم تَسعَدْ

"أحـلامُ الأمـس حقـائق اليـوم، وأحـلامُ اليـوم حقـائق الغد"

تاريخُ الإنسان مع المرض قديمٌ وعتيد؛ منذ أنْ فتكَتْ به الأمراض المُعدِيـة كالطـاعون والكـوليرا والجدَري، إلىٰ صراعِه مع أمراض الحداثـة كالبَدانـة وارتفـاع ضـغط الـدم والـسُّكّري، إلـىٰ أدواءٍ مـازال يفكّ رموزَها ويلهث وراء مُسبِّباتِها كالسرطان و الزهايمر.

تستمرُّ القافلة ويتخرَّج الأطباء بـالآلاف كـلّ عـام، ليواصـلوا زحفَهـم المقدَّس في تفحُّص أجساد المرضىٰ ووصْف أطنان الدواء، فيبرأ مَـن يـبرأ

ويموت مَن يموت؛ فما الطبيب في عُرف الحكيم والعالِم (أبو القاسم الكرماني) إلَّا "خادمٌ للقدَر صحَّ المريضُ أو هلَك".

لَم تَرُقْ لي فكرة اللحاق بذاك الرّكْب المُجاهِد، فماذا أُضيفُ لجحافلهم الجرَّارة وأدويتهم المُقَنْطَرة؛ وبعد بحْثٍ واستقصاء، قرَّرتُ فتْح عيادتي الخاصّة للغوْص في الأحلام التي نضَبتْ فقارَبت الغُول والعنقاء، ولترميم الإنسان الذي ثمَّنه الطبيب والفيلسوف (خالص جلبي) بثمنٍ لانهائي ، على قاعدة أنّ ثمن أيّ شيء يُعادِل ساعات العمل المبذولة فيه، وأنَّ شَعرةً تَسقط مِن رأس الإنسان تعجز عن صنعها كلُّ ساعات العمل في مصانع العالَم أجمعين.

جاءني أوّلُ مريض مُنكَّس الرأس خفيض الصوت زائغ البصَر مُبَعثَر القسَمات شاحب الوجنات؛ لو رآه زميلٌ متخصِّصٌ في الطبّ النفسي لأعطاه وصفة دواء (البروزاك)[1] وأَنهى الاستشارة في ثوانٍ معدودات قبْل أن يفتح المريض فمه أو ينبس ببنت شفة.

ومَا إنْ جلس المريضُ على حافَّة كُرسيِّه؛ حتى صَمَتَ صمْتَ الصّخور التي يعتمل في باطنها بركانٌ يثور، وثنى جِذعَه للأمام كقوْس على أهبة الرمي، ووضع رأسَه الأشيب بين راحتيْه، وأَسْندَ مرفقيْه

(1) دواء مضاد للاكتئاب، تمّ طرحه في الأسواق عام 1987م بعد تجارب دامت ثلاث عشرة سنة على آلاف المرضى، ويَعمل على زيادة الناقل العصبي (السيروتونين) والذي يُتهَّم في علاقته السببيّة بمرض الاكتئاب.

المُدبَّبَيْن إلىٰ ركبتيْه التي هدّها الوقوف في بلد خالِي الوِفاض؛ لكنّه عامرٌ -بحمد الله- بكل ما لذَّ وطاب مِن طوابير الانتظار والانكسار.

لم يكن لديَّ سمّاعة الطبيب ولا معطفه الأنيق ولا جهازه لقياس نسبة الأوكسجين؛ بل قُصاصةٌ ورَقِيّةٌ فحسْب، أُناولها للمريض وبها سؤال وحيد ...

ماهي أحلامك؟

انفرَجَتْ أساريرُ مريضي -فتلك فرصته ليُثبت أنّه فاعلٌ مرفوع، وله إرادة في هذا الكون الفسيح- وشمَخ برأسه ولمَعتْ عيناه وتورّد خدّاه واستوىٰ منكباه وذهبَت بحَّةُ صوته وقال:

أريد شقَّةً ولو بالإيجار، وزوجةً ولو بمنقار، وسيارةً ولو يَجرّها حمار...

أريد أن أقول ما أشاء، وأنفخ في الهواء حين أغتاظ، وأرفع يدي عند الاعتراض...

أريد جيشا يحمي ظهري ولا يطعنني في صدري...

أريد شرطة تحميني حين أنام ولا تداهِمني فجرا للاعتقال...

أريد ماءً يرويني ولا يُمرضني...

أريد طعاما يُسمِّنني ولا يُسمِّمني...

أريد دواء يستلّ أسقامي ولا يسلبني أموالي...

أريد طريقًا خاليًا من الحفر والجبال التي يُسمُّونها مطبّات.. أريد أن لا يحرمني كائنٌ ما كان مِن حقِّي في أن أريد.

يا إلهي!!!

لقد خانه العنوان ...أُرِيه السُّهىٰ فيُرِيني القمر، وأسأله عن الأحلام فيحدِّثني عن الحقوق!

أعَدْتُ صياغة السؤال قائلا: حدِّثني عن أحلامك حين تنام؟

فردّ مُمتعِضًا: وهل ينام خائفٌ وجوْعان!

ثُمَّ طرَحني أرْضًا حين زاد: وهل تجرؤ الأحلام علىٰ التسلُّل إلىٰ أسفل الكباري وبالوعات المجاري!

قرّائي الأعزاء:

عندما تضيق بكم بوابة الحياة أطْلِقوا العِنان للخيال[1] وافرشوا البساط للأحلام، أَرْكِبوهما-أي الخيال والأحلام- البُراق وافْتحُوا لهما أبواب السماوات واستوْدِعُوهما آمالكم وأمنياتكم؛ فما الخيال[2] إلّا واقعٌ

(1) يقول (مايكل انجلو): "الخيال لا يُستهلك، فكلما استعملْته أكثر ازدهر أكثر".

(2) أَبْدعُ تعريفٍ للخيال هو ما قاله (ميخائيل نعيمة) من أنّ الخيال هو أنْ "تُبصِروا وأجفانكم مُغمَضة، وتَسمعوا وآذانكم مَسدودة، وتَشمُّوا وفي أنوفكم سماط، وتَذوقوا وألسنتكم في غلاف، وتَلمسوا وأيديكم مشلولة".

يكسوه الأمل وإشراقةُ روح مِن وراء حجُب، وما الأحلام[1] إلّا مستقبَلٌ علىٰ مَدْرَج الإقلاع وأهدافٌ علىٰ طاولة الزمن، وما البرزخ بين الأمل والعمل سوىٰ مرمىٰ حجَر مِن العزيمة والإرادة والتوكّل علىٰ الله...

ولكنْ حذارٍ مِن التحليق بجناح الوهْم فيَدقّ عنقَك ويُرديك علىٰ أمِّ رأسك، وحذارٍ مِن الاستغراق في دوّامة الأحلام والفناء فيها بدلا مِن العيش فيها والحياة بها.

والبدار البدار إلىٰ ما سطّره أديبُ المهجر(جبران خليل جبران) فقال: "أَن أكون إنسانا صغيرا وأملك أحلاما مع الرغبة في تحقيقها، أروع من أن أكون أعظم إنسان بدون أحلام ورغبات"، وإلىٰ ما قالتْه شاعرة فلسطين(فدوىٰ طوقان): "لا يكفي أن نحمل آمالا كبارا وأحلاما واسعة، حتىٰ الإرادة وحدها لا تكفي، فالعمل هو الوجه الآخَر للحلم والإرادة"، وإلىٰ ما نادىٰ به (محمود درويش) فقال: "قِف علىٰ ناصية الحُلم وقاتِل".

وعليكم بقانون (الجذْب) الذي يَتسم بالشمول والحياديّة ويَنص علىٰ أنّ الشبيه يَجذب إليه الشبيه، فالأفكار الإيجابية تجذب إليها شبيهاتها، والمشاعر الطيبة تنادي علىٰ مثيلاتها، والأعمال الصالحة تفتح الباب لرفيقاتها، وربما يَصِحّ القول هنا بأنَّ الأفكارَ بذور والمشاعرَ أشجار والسلوكَ ثمار.

---

(1) يقول (أندريه بريتون) أبو السريالية والمُلقَّب بالحالِم النهائي: "الحلْم هو المُنقِذ مِن جحيم الواقع".

# 3- أمانُك في إيمانِك

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾

[الأنعام: 82]

قد تسمع بطفلٍ لقيطٍ مجهول الأبويْن لأنَّ العارَ لاً أب له، ولكنّك لن تعثرَ أبدا علىٰ اختراع لقيط فاقد النَّسب لأنَّ للنجاح ألْف أب ومُدَّعُوه بلا عَدّ أو حصْر. وأبُ الاختراعِ يَتمثَّل دوْما في ذلك العبقري الفذّ الذي أعْمَلَ قريحتَه فكان مُخترِعا، أمَّا الأُمُّ فهي الحاجَة التي أَلَحَّتْ علىٰ هذا الاختراع

واستدعتْه لحيِّز الوجود، وعلىٰ هذا جرَىٰ المثَل القائل: "الحاجَة أمُّ الاختراع"، وجاءت الحكمةُ القائلة: "الحاجةُ هي المهماز الذي لا يُعادِله ثمن".

تحْتَ وطْأةِ شلَّالات الدّم التي سالت وملايين الجرحَىٰ الذين نزَفوا في الحرب العالمية الأولىٰ(1914-1918م) تَفتّق الذّهنُ عن اختراع بنوك الدم لتضخّ سائلَ الحياة في عروق العابرين علىٰ جسر الموت، ووسط الأشلاء الممزّقة والجروح الملوَّثة في أتون الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) شقَّ دواء البنسلين طريقَه للمرّة الأولىٰ لينقِذ ملايين الجرحىٰ ويفتك بالجراثيم والميكروبات، وامتدادا للحرب الباردة بين روسيا وأمريكا تفتَّق الذهن عن استكشاف الفضاء وارتياد القمر...وعلىٰ ذات الوتيرة كان اختراع الإنترنت.

ففي العام التاسع والستين بعد المائة التاسعة عشرة(1969م) أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية شهادة ميلاد الإنترنت عبر الربط بين بضعة مؤسَّسات بحثيّة لأغراض عسكرية، وفي أقلّ من خمسين عاما هي العُمْر المديد لذلك الوليد، حجَز ثلثُ سكان العالم -أي ما يقارب المليارات ونصف المليار- بطاقة الدخول لذلك العالم الافتراضي الخلّاب الذي بلغتْ عددُ صفحاته المُعْلَنة غير المخفيّة أربع مليارات ونصف صفحة إنترنتيّة تحتاج عند طباعتها إلىٰ مائة وثمانية وستين مليار

ورقةِ طباعةٍ مِن القطْع الكبير، وبات العَمّ (جوجل) الذي يَستحوذ علىٰ رصيد البشريّة وتاريخها مِن المعلومات والمَنوط به تنظيمها وتقديمها للباحثين عنها أشبه ما يكون بكوكب لا موقِع، وصارت ساحة (اليوتيوب) الذي وضع حجرَ أساسها البنجالي(جاود كريم) قبل عشرة أعوام ويرتادها عشرات الملايين كلّ يوم هي أكبر مَزار في العالم.

قد لا تُصدِّق بعد كل تلك المياه التي سالتْ في نهر الإنترنت العظيم، أنَّ بين أظهرنا في القرن الواحد والعشرين مَن يعيشون خارج حدود الزمن، فينظرون له-أي الإنترنت- شزْرا بحسبانه رجْسا مِن عمل الشيطان يستوجب الاستعاذة عند الدخول والاستغفار عند الخروج، حتىٰ بعد أن تغلْغل في كل مناحي الحياة وتخطّىٰ حواجز الزمان والمكان؛ فأصبح سوقا للبيع والشراء، وبنكا للسَّحب والإيداع، وجامعةً للبحث والتعليم، ومكتبةً للقراءة والاطلاع، ومنبرا للوعظ والإرشاد، وبوابةً للسفر والترحال، وخارطة لتحديد الاتجاه، ولوحةً للدعاية والإعلان، وساحةً للتواصل واللقاء، وبساطَ ريح يحملك إلىٰ حيث تريد، إلىٰ حدّ أنَّ الجيل الحديث قد لُقِّب بالجيل الرقمي وتَفرّد بصفات شخصية واجتماعية وثقافية مغايِرة، كما أَضحىٰ زمانُنا زمن الصورة والمعلومة التي باتتْ مادّة خام العصر وطاقته المحرِّكة، تماما كما كان البخارُ في عصر البخار وكما كان الفحم في عصر الفحم وكما هو النفط في عصر النفط.

واصلَتْ القافلةُ سَيْرها المبارَك مُخلِّفةً وراءها صياحا ونباحا، وبروحٍ مسئولة إزاء هذا الطوفان مِن المستخدِمين، ومِن إحدىٰ عشرة سنةٍ خلَتْ - أي في العام الرابع بعد الألفين- دشَّن العالَمُ اليومَ العالميّ لإنترنت آمن، ليكون الثلاثاء الأوّل مِن كلّ فبراير هو المَرْسَىٰ لبرٍّ آمنٍ وسْط أمواج الإنترنت العاتية، خاصّة لفئتي الأطفال والشباب مِن الجنسين.

فما معنىٰ الإنترنت الآمن؟

هل هو الخالي من الفيروسات والآمن من القرْصنة؟

أمْ الذي يفتح أبواب الخصوصيّة علىٰ مصراعيها؟

أمْ الذي لا يعترف بسياسة الغلق وإحكام الرقابة بدعوىٰ الليبرالية الثقافيّة؟

أمْ هو الاستعمال الحكيم والمسئول لتلك النّعمة العظيمة والمِنّة الكبيرة؟

تهدف الدعوةُ للأمان في الإنترنت إلىٰ حماية المعلومات والبيانات المُتداوَلَة بين الأفراد والمُؤسَّسات، لتنعم بكامل سرِّيَّتها وخصوصيتها، بعيدا عن أعين المُتطفِّلين وأيدي العابثين وعقول المُخرِّبين...

فهل هذا يكفي للحصول علىٰ الأمان المنشود؟ !

تُجيبنا دراسةٌ عن وزارة العدل الأمريكية، بأنَّ الإنترنت أكبر سوق للاتّجار في المواد الإباحية التي تأتي كثالث أكبر مصدر دخل للجريمة

المنظَّمة بعد المخدّرات والقمار، ويُصدِّق على تلك الدراسة تَخطِّي عدَّاد الزوّار لأحد المواقع الساقطة حاجز السبعة ملايين زائر يوميا.

ويُجيبنا علمُ النفس الذي دشّن مرضا جديدا أسماه إدمان الإنترنت وعرّفه بأنه: "حالة من الاستخدام المَرَضي وغير التوافقي للإنترنت يؤدي إلى اضطرابات إكلينيكية".

وتُجيبنا التقاريرُ البنكية عن ملايين الدولارات التي تتبخَّر من حساباتها بفعل الاحتيال والسّرقات الالكترونية.

كما يُجيبنا القلقُ العالمي المتزايد الذي تَمخَّض عن اتفاقات دوليّة لمكافحة الجرائم عبْر الإنترنت.

وهنا تؤكّد تلك الإجابات وغيرها على أنّ الأمان الحقيقي للإنترنت؛ لا يتحقّق إلا بعد هجرِه للأفكار المضلِّلة وخلوّه من إشاعة الفاحشة وبراءته مِن مضيعة الوقت وترفُّعه عن الكذب والإشاعات، كما تُصدِّق أيضا على أنَّ هذا الأمان المَنشود لا يكتمل إلا حين يُصبح ذاك الفضاء الرحب أداةً لغوْث المنكوبين وعوْن المظلومين، ووسيلة مأمونة للتواصل مع الأهل والأصدقاء، ومعْملا لنتاج العقول وتيسير الخدمات على خلْق الله.

قد يكون مِن المفيد التسلُّح ببرامج محاربة الفيروسات ومُضادّات التجسُّس والقرْصنة، وقد يكون من الحكمة الحذر في تداول المعلومات الشخصية والكفّ عن التجاوب مع المجهولين، وقد يتوجَّب على الآباء

والأمهات مراقبة أنشطة أبنائهم في خِضمّ هذا العالم المتلاطم ببحاره الزاخرة وفضاءاته العامرة، وقد يتعين علىٰ السلطات الرسمية والمؤسسات التربية القيام بمسؤوليتها تجاه هذا الوافد الجديد؛ ولكن يبقىٰ صمام الأمان في هذا الكون الالكتروني الفسيح مرهونا بفقه مُرتاديه؛ أنّ كلّ أنشطتنا علىٰ تلك الشبكة العنكبوتية مرصودة، وأنّ خبايا النفس ومكنونات الصدر عند الله معلومة، وأنّ أنفاسنا في تلك الحياة الفانية معدودة، وأن الحُمْق كل الحمق أن نجعل اللهَ أهون الناظرين إلينا.

رائعٌ أن يكون في الإنترنت تعليمات للأمان، وأن يكون في السيارة حزام للأمان وكابح للسرعات ومانع للانزلاق، وأن يكون في قانون المرور مسافة للأمان، وأن يكون في المباني والإنشاءات احتياطات عامّة للأمان، وأن يكون في قطاعنا الصحي تدابير احترازية للأمان... ولكن الأسمىٰ والأكمل هو مظلة إيمان شاملة تَسكُن الفؤاد، فتخالط النخاع في العظام وتنساب في العروق مع الدماء، لتصدّ عنَّا وساوس الشيطان وهلاوس الإنس ونزغات الجِنّ.

# 4- صِلْ لا تَتواصَلْ

"إنَّ التّقــــانةَ قــد أَتــتْ بعجـــائب

والنَّـــاسُ مَفتونـــةٌ بـــمَ يُبهِـــرُ

أَضْـــحَى التواصـــلُ في البريّـــة مُطلَقــا

سهْـــــلا سريعـــا إذْ تَنْقُـــرُ

فكــأنّ عالمَنــا الرّحيـــبَ كقريـــةٍ

في شاشـــةِ الحاســوبِ إذْ يَظهَــرُ"

الشاعر محمد رشيد

الهـاتف المحمـول، الفـيس بـوك، تـويتر، الواتـساب؛ سـناب شـات، إنستجرام... مفردات صارتْ جزءًا من اللـوازم الشخـصية، وعلامـة علـى الوجاهـة الاجتماعيـة، وشـطرا مِـن

التكوين النفسي، وربّما بعد حين تُصبح مكوّنا جِينيا في الشفرة الوراثية وطبقة ثالثة للجِلد فوق البَشَرة والأَدَمَة.

في إحصائية عالميّة صادِرة مع مطلع العام الرابع عشر بعد المائة العشرين(2014م)، تبيّن أنّ هناك هاتف محمول لكل نسمة تقريبا، وأنّ مستخدمي الفيس بوك تجاوزوا حاجز المليار، وأنّ ما يُقارب النصف مليار يتواصلون بالواتساب، وأنّ المغرِّدين في تويتر قاربوا الربع مليار، ناهيك عمَّا ذُكر بأنَّ بلوغ أبناء هذا الجيل حاجز العشرينيات في العُمر يَعني أنهم قد أَمضوا ما يزيد علىٰ 20000 ساعة في ضيافة الإنترنت.

وفي العام الحالي(2017م) صدرت إحصائية تدير الرأس وتذهل العقل، عمّا يَجري خلال دقيقة واحدة في عالم الإنترنت؛ فكانت الحصيلة900000ألف دخول للفيس بوك، وثلاثة ملايين ونصف عملية بحث علىٰ جوجل، وستة عشر مليون رسالة واتساب، وأكثر من أربعة ملايين مرور علىٰ اليوتيوب، و452000تغريدة علىٰ تويتر، و156مليون بريد الكتروني، و750000دولار أنفقت في التسوّق الالكتروني!!!

ولربّما يرجع الفضل في ذلك كلّه للمهندس الأمريكي (مارتن كوبر) الذي قاد فريق العمل في شركة موتورولا للاتصالات ونجح في تصنيع أوّل هاتف جوّال وزنه 1كجم وثمنه 4000دولار، وذلك في عام 1983م... وكذا لأستاذ التكنولوجيا الأمريكي (ليونارد كلينروك) الذي حاز قصب السبق في إنضاج اختراع الإنترنت، عبر أبحاثه وتطبيقاته عن

حزم البيانات المَنوط بها نقل المعلومات، وهو ما أهَّله لنيل لقب "أبو الإنترنت"، وذلك في أواخر ستينيات القرن الماضي...وكذلك لأستاذ الرياضيات والمهندس الميكانيكي البريطاني (تشارلز باباج) الذي وضع البذرة الأولىٰ في اختراع الحاسوب، واستحق لقب "أبو الحاسوب"، وذلك في أواخر القرن قبل الماضي...هذا بالإضافة إلىٰ (جاك دورسي) مبتكِر موقع التغريدات الشهير تويتر، و(مارك زوكربيرغ) مؤسِّس موقع الفيس بوك الأشهر مِن نار علىٰ علَم، و(جان كوم)الذي ظهر علىٰ يديه برنامج(الواتس آب) عام 2009م وأصبح ملك الدردشة في العالَم.

ولك أن تتخيّل في اللحظة الراهنة حجْم الجموع الغفيرة وهم مُصفَّدين إلىٰ الحاسوب بلا أغلال، ومَسجونِين في الإنترنت بلا قضبان، كما لك أن تطالعهم هنا وهناك وتراهم مُهطِعين مُقنعِي الرؤوس، ومُدقِّقي النظر، وفاغرِي الأفواه، وشاهِرِي إصبع السبابة الذي يَروغ يَمْنة ويَسْرة علىٰ شاشات ملْساء مضيئة تحكي جديد الأحداث وخبايا الأشخاص، إضافة إلىٰ طازج الإشاعات التي يُروِّج لها الخُبثاء ويُصدِّقها الحمقىٰ ويَذهب ضحيّتَها الأبرياء.

حال هؤلاء – وما أُبرّئ نفسي – عجَبٌ عُجاب؛ تَجمعهم المَجالس؛ فتتجاور المقاعِد وتَتلاصق الأكتاف وتَختلط الأنفاس، ولكن هيهات علىٰ القُرْب التلاقِي... فكلٌّ منهم في واديه السحيق؛ يغنّي ويرقص مع قيْسه أو يَبكي ويَنتحب مع لَيلاه، إذْ هُم في حالة توحُّد مع أجهزتهم

الجوالة؛ يشتهونها كالطعام ويتعاطونها كالشّراب ويَلتحِفونها كالشِّعار والدِّثار؛ فهي في الصحّة سامِرهم وفي المرض سلواهم وفي العمل ملهاهم وفي الفراغ نديمهم وعند الأرق مخدعهم، في الفرح تأتيهم بالتهاني وفي الحزن تغدو سرادقا للتعازي وفي الضجَر تمنحهم ساحة للتباكي، وعند الاكتئاب تمنّيهم بالتعافي...لتصبح حصيلة مجالسهم وأسمارهم؛ الحوائط المُزرْكَشة، والتغريدات المنمَّقة، والتوقيعات المجَمَّلة علىٰ هيئة إعجاب وتعليق ومشاركة مِن أشباح تُسمَّىٰ أصدقاء.

فهل هكذا يكون التعارف والتواصل الاجتماعي؟!

أَمْ هكذا يكون التنافر والتناحر الاجتماعي!

عاشت البشريّة قرونا عديدة أشبعَتْ فيها روح المدنيّة في الإنسان وواءَمتْ فِطْرَتَه التي تنتمي إلىٰ الآخَر وتحِنّ إلىٰ الإلْف، فكان اللقاء وجها لوجه وليس جَوَّالا لجوَّال أو رسالة لرسالة أو صورة لصورة، فجاء نابضا بالحياة، وعامرا بالروح؛ فيه حرارة اليد مع المصافحة، وبريق العيون[1] عند الإنصات، وبسْمة المُحيَّا عند البِشْر، ودفء المشاعر مع رنين الصوت، وصِدْق الوعْد مع صفاء الوجه، وحنين الذكريات مع عبَق المكان.. وذلك قبل بزوغ فجر العالم الافتراضي ودخول مثلث برمودا للقطيعة الاجتماعية الذي نَسجتْ خيوطَه تلك الشبكاتُ وشيّدَتْ عتباتِه تلك المواقع، وشتّان بيْن الحاليْن...

---

(1) يقول الشاعر: "إشاراتُ العيون مُترْجِمات لِما تطوِي القلوبُ عن القلوبِ"

فكيف تستوي وردة طبيعية تُبلِّلها قطرات الندىٰ ويفوح منها الشّذىٰ، مع وردة بلاستيكية ماتتْ فيها الرائحة وجفَّ فيها الماء؟!

وهل تُغْني الأكواب الفارغة المزركَشة في ري ظمآنٍ أو إغاثة عطشان؟!

وهل تُقارَن كلماتٌ طازجة دافئة تحمِل نَفَس المُحِبّ، برسالة إلكترونية باردة متجمِّدة؟!

لا يُمارِ عاقلٌ في الإسهام الفاعل لوسائل الاتصال والتواصل الحديثة في طيّ المسافات وتقريب البعيد[1] واختصار الوقت وتوفير الجهد وسرعة الإنجاز وتلاقُح الأفكار وتوسيع المَعارف وإثراء الحوار واكتشاف الذات وتعميق الحريّة، إضافة إلىٰ مساهمتها الفاعلة في التخفيف مِن صدمة الحداثة وفي التقليص مِن فجوة الحضارة-ولو علىٰ المستوىٰ النظري- بين الشمال الغني المتقدِّم والجنوب الفقير المتخلِّف، ولكنّها بذات القَدْر خصَمتْ مِن رصيدنا الاجتماعي؛ حين اخْتَصرتْ قُبُلاتِ العيد في مكالمة هاتفية وأغاريدَ الفرح في أيقونة وجه مبتسم ودموعَ الوداع في شارة كفٍّ يُلوِّح، وحين صارتْ صداقاتُ الفضاء

(1) في عام 2009 تَمكَّن رائد فضاء أمريكي من كتابة تدوينة علىٰ موقع تويتر، وهو علىٰ متن مكوك الفضاء الذي حلَّق في الفضاء الخارجي ونفّذ مهمّة إصلاح المرصد الفضائي(هابلhubble)، هذا في الوقت الذي لم تصلْ فيه أنباء انفجار تامبورا البركاني - الذي حدث في اندونيسيا وقتل نحو مائة ألف شخص في عام 1815م-إلىٰ لندن إلا بعد سبعة أشهر مِن حدوثه.

أكثر وأعمق من صداقات الواقع التي تشبَّعتْ بالبرود وارتوتْ بالجمود، وحين تراجعتْ أخوّةُ الدم والنّسب لتحتلّها أخوّة الإعجابات والتعليقات، وحين حرمَتْنا مِن أهمّ مقوِّمات التعاطف الإنساني الذي يتمّ عبر التواصل البصري أثناء اللقاء المباشر وعبر التواصل العاطفي الذي يُعبر عن نفسه في تعبيرات الوجه ونبرة الصوت وحركات الجسد، وهو ما لا يُدانيه اتصال الهاتف أو رسائل البريد الالكتروني أو وسائل التواصل الأخرىٰ المختلفة.

ولعلّ أخطر ما في تلك الوسائل، أنها بما تمتلكه مِن جاذبية آسِرة، قد قبضت علىٰ رقاب مستخدِميها بقفازات حريرية، فأوْجدَتْ لديهم حالة من السيولة والتلقائية، لدرجة صاروا فيها كمرضىٰ مُمَدَّدِين علىٰ أريك بين يدي أبي التحليل النفسي (فرويد)، أو كمُذنبين جلوسا علىٰ كرسي اعتراف في كنيس، أو كأطفال تَوسَّدوا أفخاذ أمهاتهم بعد نوبة ركض علىٰ درَج، ثمَّ شرعوا في إظهار ما يُبطنون والبوح بما يَكبِتون والإعلان عمَّا يُسرّون، وهو ما ولَّد فرصة سانحة وغنيمة باردة للنفوس المريضة التي انتحَلَتْ شخصيّات وهميّة وتَسمَّتْ بأسماء مُستعارة، وجعلَتْ من تلك الوسائل اللصوصيّة سلاحا للتشهير وساحة للتشويه وميدانا للخداع ومنابر للمعارك[1]، وعندها انقلبَت الموازين واختلّت المعايير واختلط الحابل بالنابل واستطاعت الكذبة والإشاعة أن تطوف نصف العالَم قبل

(1) تُعتبَر الشبكات الاجتماعية أحد أهمّ الأساليب الحديثة للحرب النفسية التي تنتهجها الدول والمنظمات بغية تحقيق أغراض سياسية وعسكرية ودينية واقتصادية واجتماعية.

أن ترتدي الحقيقة بنطالَها أو حتىٰ قفّازَها، فكانت القطيعة التي دمَّرتْ صداقات، والشكَّ الذي هدم بُيوتات، والفضائح التي هتكَت الأستار وانتهكَتِ الأعراض، والكذب الذي تَفشَّىٰ ولم يترك للصِّدْق سَمَّ خِياط.

وإنْ شئتَ مِن الخطورة بيتا آخر، فهي حالة الأَسْر الاختياري التي حرمَتْنا بها تلك الوسائل مِن مزايا الخلوة، التي نتبصّر فيها أحوالَنا بصفاء ذهن، ونُقلِّب معها آراءَنا علىٰ جمر الفكر، ونحاسب فيها أنفسَنا بميزان صِدْق وعَدْل...ولعل هذا ما حدا بالكاتب الأمريكي (مايكل لويس) ليتبنىٰ نهجا متفرِّدا يقول: "لا موقع الكتروني، لا صفحة فيسبوك، لا حساب في تويتر، فلديَّ ما يكفي لأقوم به".

والآن، وبعد كل تلك المحاذير...

متىٰ تُصبح علاقتنا بمواقع التواصل الاجتماعي علاقة زواج إسلامي وليس كاثوليكي؟

ومتىٰ نَقْوَىٰ علىٰ الفطام الجزئيّ مِن تلك الرضاعة التكنولوجية؟!

ومتىٰ نتجاوز الاندهاش أمام عتبات أصنام التكنولوجيا فنلِج أبوابَها ونأخذ بفلسفتها ونتَبنَّي أهدافَها؟!

ومتىٰ نُحكِّم عقولَنا؛ فنأخذ ما صفا، وندَع ما كدَر، ونأكل العسلَ دون الشّمع، ونتناول اللُّبّ دون الحَبّ؟!

# 5- لا تُسْلِم قيادَك لِجُوبَلزي

"إذا لم تكن فَطِنا، فإنَّ وسائلَ الإعلام ستجعلك تكره المضطهَدين وتُحبّ المضطهِدين"

مالكوم إكس(الحاج مالك الشباز)

الإعلام ما هو إلا اتّصال بين مُرسِل يُسمَّىٰ إعلاميّ، ومُستقبِل يُسمَّىٰ جمهور، عبر وسيلة قد تكون مقروءة كالجريدة أو مسموعة كالراديو أو مرئيّة كالتّلفاز أو مقروءة ومسموعة ومرئية كما هو الحال في وسائل

التواصل الحديثة التي كسرتْ حواجز الزمانْ وتخطّتْ حدود المكان، وذلك بغرض الإدلاء بالمعلومات الصحيحة والحقائق الثابتة الواضحة التي تُسمَّىٰ بالرِّسالة الإعلامية وتُتمِّم عناصر الإعلام الأربع(مُرسِل-مُستقبِل-وسيلة-رسالة)، وهو-أي الإعلام- بهذا مُغايِر كلّ المغايَرة للدّعاية؛ التي تعمل علىٰ إلباس الرغبة لباس الحاجة، وتعتمد في أغلبها علىٰ فنّ الكذب بغية ترويج السِّلَع والتَّربُّح، كما كان الحال مع صابون (بالموليف) الذي ادّعىٰ مُنتجوه -زورا وبهتانا- أنَّ الملكة (كليوباترا) كانت تستحمّ به!

لم يكتسب الإعلامُ قوّة الحضور كرافد رابع لعناصر البيئة التربويّة المُتضمِّنة للأسرة والمدرسة[1] والأصدقاء، ولم يَتبوّأ سطوتَه كسُلطة معنويّة رابعة إلىٰ جوار السلطات الدستوريّة الثلاث المُتمثِّلة في السلطات التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة، ولمْ يَرْقَ إلىٰ درجةٍ أصبح فيها ثالث أكبر صناعة في العالم وصار عِلْما وفنّا، ولم تتصارع القوىٰ الكبرىٰ لتكون لها الكلمة الإعلامية الأُولىٰ والعليا؛ إلَّا لأهميّته القصوىٰ في تكوين الوعْي وترويج الفِكر وصياغة القيم وتوجيه الأمم، وذلك نظرا لانتشاره وجاذبيّته وتعدُّد وسائله وسهولة الوصول إليه...وهو ما عبّر عنه الطبيب الأديب (مصطفىٰ محمود) بقوله: "إنَّ أخطر أسلحة القرن العشرين، والاختراع رقم واحد الذي غير مسار التاريخ، هو جهاز الإعلام"، وهو

(1) يقول أخصائيو التربية أن 60٪ مِن العملية التربوية يقع علىٰ عاتق الأسرة والمدرسة.

أيضا ما قَصَده الرئيس الفرنسي شارل ديجول حينما قال: "أَعْطِني شاشة أُغيِّر لك الشَّعب الفرنسيّ".

ولذا فقد حَرص كلُّ مشهور أو صاحبُ نفوذ أو رجلُ أعمال أو سياسيّ أو حاكم، علىٰ أن يُشيِّد له ظهيرا إعلاميا يَتَّكأ عليه ويُقِيم به صُلبَه؛ فيُبرِّر به هفواتِه ويُعظِّم إنجازاتِه ويُبيِّض ماضيه ويُبشِّر بمستقبله، تماما كالمحامي المُزيِّف الذي لا يُتوقَّع منه أن ينحاز إلَّا إلىٰ موكِّله ولو علىٰ حساب الحقيقة وجثة العدالة، مستغلِّين في ذلك انتفاء الكمال عن العقل البشري، ووجود الثغرات والبؤر الصمّاء العمياء في زوايا بعض العقول، مع اللعب علىٰ أحبال المُغالطات المَنطقيّة التي قد تنطلي علىٰ الكثير.

"لا يهمّ أن تلمّ بموضوع الحوار، ولكن الأهمّ أن تملك مِن القدرة البلاغيّة واللفظيّة ما تكسب به جولة الحوار"؛ هكذا قال (برتوجلاس) أستاذ السفوسطائية اليونانية، وبهذا ساق تلامذتَه وأتباعَه في القرن الخامس قبل الميلاد، وصَنع منهم جيشا إعلاميّا يَفتقر إلىٰ المصداقيّة والواقعيّة والمرونة التي تَأسَّست عليها الرسالةُ الإعلامية الصحيحة؛ فهدموا أصول الحكم والسياسة، ونقضوا أُسس العلم، وسخروا مِن الآلهة، ولم تسْلم الأخلاق مِن تحريفهم حين اتخذوا الشكّ وسيلة لهدمها وحين تنكَّروا للقيم الموضوعية التي تؤطِّر السلوكَ وتَصون الأخلاق، بل كانوا يعلِّمون الناس المراءَ والجدال ويَتقاضون علىٰ ذلك أجرا!

أما جوزيف جوبلز(1897-1945م) وزير إعلام النازيّة وأستاذ الدعاية السوداء فيقول: "لكي يصدِّقك النّاس يجب أن تكون الكذبة كبيرة"، وهو في ذلك مجرد هامش شارِح لمَتْن معلِّمه (هتلر) الذي قال: "نصيبُ كلِّ كذبة مِن التصديق يتناسب طردا مع حجمها"، وهما بهذا يَخلطان الإعلام بالدعاية ويعجنان الخَبَر بماء البهتان، فتصبح الغاية هي أن تكذب أكثر وأكبر... وبما يعني أنّ كلّ إعلامي كبير هو مُسيْلمة جديد.

مضىٰ (برتوجلاس) إلىٰ حال سبيله غير مأسوف عليه، وأَودع التاريخُ (جوبلز) سلّة القمامة، ولكنّ الحيّة ولدتْ حيّات والأفعىٰ أنجبتْ أفاعيا، وهنا نحن الآن-إلّا ما رحم ربي- بين مطرقة إعلام حكومي يعزف علىٰ نغم السلطان وسندان إعلام خاص يَرقص في حِجر صاحب المال، وهو ما تناوَله المؤلف الأمريكي (روبرت شيللر) في كتاب عنوانه(المتلاعِبون بالعقول).

ستكلّ عيناك مِن الحصر ويداك مِن العدّ حين تحصي تلك النماذج الجوبلزيّة عبر وسائل الإعلام المختلفة؛ فمنهم مَن يُمارس أقصىٰ درجات الكذب فيحجب كامل الحقيقة، ومنهم مَن يتجمّل فيَقضم جزءا منها، ومنهم مَن يُمارس دور الماشِطة فيطمسها ويلبسها مسوحا لا تنتمي إليها وألوانا لا تنطلي عليها، وهمْ في ذلك يَنتمون جميعا إلىٰ فئة القَتَلة بناء علىٰ ما قاله (جُوته): "أنْ تعرف الحقيقةَ ثمّ تُحاول إخفاءَها أو تشويهَها فأنتَ إنسانٌ قاتل".

وكما تتكاثر الجراثيمُ في البيئة الملوَّثة وتتوالد الجرذانُ في الأماكن الخربة، فإنّ هؤلاء المتلاعِبين بأمانة الكلمة والبعيدِين عن جوهر الرسالة الإعلامية، لصيقون بأجواء الفساد والديكتاتورية؛ حيث يدورون في فلكها ويلفون لفّها ويَسْحَرون لفَرْعونِها، فكانوا الرَّحىٰ التىٰ تَطحن لهم دقيقَهم، والفرن الذي يُنضِج لهم خبزَهم، والسّوق الذي يروِّج لهم بضاعتَهم المُزجاة، أما في أجواء الحريّة والشفافيّة؛ فإنَّ البضاعةَ الجيّدة الصادقة تطرد تلك البضاعة الرديئة الكاسدة وتدفعها دفع الحسنات للسيّئات، فتمحوها محْوا وتودعها ذاكرة النسيان.

ربما لا نُجاوِز الوصف، إذا قلنا بأنَّ التضليل الإعلامي والوعي المُعلَّب هو نوع ركيك مِن تجارة الرقيق التىٰ مضىٰ زمانُها، وفرع جديد لأسواق النخاسة التي أَوصدَتْ أبوابَها، إذْ إنّها قائمة علىٰ شراء الألسنة والعقول، بغْية استعباد وتطويع عقول أخرىٰ، لتسوقها سوْق العبيد وتجرّها جرّ القطيع، فتركبها وقتما تشاء وتحلبها حين يحين الأوان...كما لا نبالغ إنْ شبَّهناه بالمخدِّر الرخيص الذي يُؤذي الصحة والوعي ويُشوّش الوجدان والعقل، خاصة بعد أن تفوَّق الإعلام علىٰ نفسه وبات أقوىٰ الكيانات والهيئات المُنتخَبة منها وغيْر المُنتخَبة!

كثيرٌ من الأمراض الفتَّاكة –كالجدري– لم يكن للأدوية كلمة الفصل في كتابة شهادة وفاتها، ولكنّها اللقاحات هي ما تدين لها البشرية بكامل الفضل في الخلاص مِن شرِّها والفكاك مِن أسْرها، وهكذا الحال مع تلك

الآفات الإعلامية التي لا تقلّ خطرا عن الأوبئة الفتّاكة، فالوعي والثقافة والعقلية النَّقديّة والإعلام الأمين البديل؛ هم اللقاح الذي يتكفَّل بقطع دابر هؤلاء، وهُم الأحجار التي يتوجَّب علينا إلقامهم إيّاها علىٰ أمل إخراسهم ووضع حدّ لعوائهم.

# 6- فَعِّل بطاقاتِك الحمراء

"إذا كان الطِّبــاعُ طبــاعَ سُــوء

فلــيسَ بنــافعٍ أدَبُ الأديــبِ"

ضمن منظومة برامج مكافَحَة الفيروسات الإلكترونية بالحواسيب، تلوح في أفق العلاج خيارات ثلاث؛ فقد يُجدِي الإصلاح وتعود المياه إلىٰ مجاريها، أو ينفع العزْل وكفىٰ اللهُ المؤمنين شرّ القتال، وقد يصبح الحلّ هو الحذف بلا أسَف آسِفٍ أو ندم نادِمٍ أو وداع مُودِّع.

ليت شعري ما أَشْبهَ الحواسيب البشريّة التي أبدعَها عقلُ البشَر بالحواسيب الإلهيّة التي سوّاها ربُّ البشَر، مِن

ناحية العُرضة للإصابة بالفيروسات ومِن جهة لزوميَّة برنامج مناعيّ لمكافحة تلك الفيروسات، فالخَوْض في غمار الحياة ليس بسكِّينٍ يمرق في قطعة زُبد ولا بسهمٍ ينطلق في فضاءٍ رحْب؛ بل هو رحلةٌ وعِرَة تنهال فيها علىٰ الحاسوب الإلهي ألاعيبُ بعض البشَر فتقع عليه كوخْز الإبر ودقَّات المطارق وقرْض المقاريض.

يَطلب منك هذا قرضا فتعتذر، فيصبّ عليك جامّ غضبه ويتّهمك بما فيه وليس فيك؛ وينتظر آخَرٌ منك ما يَعتبره له حقّا، فإذا خاب رجاؤه اسْتعدَىٰ عليك القريبَ قبل البعيد؛ وتَمُدّ يدَ خيْرٍ لثالث بعطِيّة أو هديّة، فيَتَّهمك الحضورُ في نيّتك ويُسيئون الظنّ في سلامة طويّتك؛ وتُخالِف رابعا في رأي أو تَنقده في فِكر، فيُقطِّب لك الجبين ويَقلِبُ لك ظَهْر المِجَنِّ وكأنَّه رزّاق وهّاب...هي السّفاهة إذنْ التي تعبِّر عن نفسها بأساليب شتّىٰ وبأفعال عدّة، فتُعطِب القرصَ الصلب للحاسوب، وتُتلف ملفّ (لتعارَفوا) ومُجلَّد(ولا تتفرّقوا) وبرنامج (فاعْفوا واصْفحوا) وأيْقونة (وأَحسِنوا).

وتُعرَف السفاهةُ بأنَّها فسادُ الرأي وقلّةُ العقل وسوءُ التدبير وخِفَّةُ الدِّين، وهي نقيض الحِلم والرُّشد وضدّ العِلم والمعرفة، وقد عرّفها (الجرجاني) بأنها "خِفَّة تَعرِض للإنسان مِن الفرح والغضب؛ فتحمِله علىٰ العمل بخلاف طوْر العقل وموجِب الشّرع"، ووصفها (ابن القيم) بأنها غاية الجهل، وعلاماتها طول اللسان وقبْح الجواب وسُوء الفِعال، وما

خلا منها عصْرٌ ولا سلِم مِن لهيبها وأُوارِها عاقلٌ أو حكيم، فقد سفِه الكفّار علىٰ الله سبحانه ونَسبوا له الولدَ والشّرِيك، ، وسفِه ما يَربو علىٰ ثُلثي سكان المعمورة حين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا وثَنِيِّين أو مُشركين أو لا دِينيّين، وسفِه المنافِقون علىٰ رسول الله في عِرضه الشريف، وسفه آخَرون حين سبّوا الصحابة الأكرمِين.

ولأنَّ الأيامَ تمرق كالسّهم والعُمْرَ أنفاس ونبضات، فعلىٰ العاقل أن لا يبدّد طاقتَه في مواجهة هؤلاء وأن لا يَستنفذ قواه في نِزالٍ لا طائل مِن ورائه، فإن كان البعضُ مِن نبهاء الناس يَفتح لك طريق الوصول ويُمهِّد لك درب الصعود، فإنَّ هؤلاء السفهاء يُثقلون الكاهل ويُعرقلون الخطىٰ ويُضيِّقون الخناق.

وإلىٰ هذا نبّه كبيرُ أطباء الدولة العباسيّة (بختيشوع بن جبريل)الذي حاز براءة اختراع لمرض جديد أسْماه حُمَّىٰ الروح، وحصَر أسبابَه في مخالَطة أهل الكثافة ومجالسَة الثُّقَلاء ومعاشَرة السُّفهاء، ثمَّ أَتىٰ (عُمَيْر بن خماشة) فتكفّل بالوقاية حين قال: "إيَّاكم ومجالسَة السُّفهاء، فإنّ مجالستهم داء".

وعلىٰ طاولة العلاج ورَفِّ الدواء؛ يتقمّص الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) دور الطبيب ويصف خطّته العلاجيّة قائلا: "لكي تتعلّمَ كيف تحتمِل البشَر، يَحسُن التدرُّب علىٰ الصبْر مع الجمادات"، بينما يبقىٰ أنْجَعُ دواء هو الضغط علىٰ ذرّ التشغيل لبرنامج مكافحة الفيروسات، فإمّا

الإصلاح الذي يقتضي صبْرا دون ضجَر وحلْما دون غضَب وعفْوا دون حساب علىٰ طريقة (أبي العتاهية) حين قال: "كم مِن سفيه غاظني سفَهًا،،،فشفيتُ نفسي منه بالحِلْم"، وإمّا التغافُل الذي يُمثِّل ثلثي الذكاء ويُضاهي الكروت الصفراء التي يُبرزها الحكّام للّاعبين المخطِئين في المباريات ويُؤمِّن علىٰ قول (أبي تمام): "ليس الغبيُّ بسيِّدٍ في قومِه، لكنَّ سيِّدَ قومِه المُتغابي"، وإمّا الكيّ الذي هو آخر الدواء والحَجْر الذي أحلّه الشرع والإعراض الذي حضَّ عليه القرآن[1]، وذلك عبْر إشهار البطاقة الحمراء والقذْف في سلّة المحذوفات...فخسارة بعض الناس مكاسب، والوحدة خيْر مِن جليس السُّوء، والبشرة السوداء لا يُجدي معها الصابون.

وهو عيْن ما فعله(ديوجين)فيلسوفُ اليونان الشهير حين لقّبوه وأتباعَه بالكلاب، فصكَّ دونهم البابَ ورماهم غيْر آبِهٍ في سلَّة المحذوفات قائلا: "حقًّا إنّنا كلاب، لكنّنا كلابُ حراسةٍ، نَتولّىٰ حراسة الأخلاق والأفكار".

وكذلك فعَل(الإمام الشافعيّ) مُجدِّد المائة الإسلاميّة الثانية، حين سفِهتْ عليه جاريةٌ اشتراها له أصحابُه، فوصفَتْه بالجنون حالما انصرف إلىٰ درسِه ليلا ولمْ يُعِرْها انتباها، وكذلك حين أضْناه الخُبْثُ الذي طالَه مِن بعض معاصِريه، فكان أنْ قصف جبهتَهم وتغافَل عنْهم وأَنْشَد فيهم:

(1) "خُذِ العفْوَ وأْمُرْ بالعُرْف وأَعْرِضْ عنِ الجاهلِين" الأعراف 199

"يُخاطِبُني السّفيهُ بِكلّ قُبْحٍ...

فأَكْرهُ أنْ أكونَ له مُجِيبا

يَزيد سفاهةً فأَزيد حِلْما...

كعُـودٍ زادَه الإحراقُ طِيبا"

ثمَّ زادَهم وأَثْخن جراحَهم ومزَّق شِباكَهم، فقال:

"مُتارَكَةُ السّفيهِ بلا جوابٍ...

أَشَدُّ علىٰ السَّفيهِ مِن الجوابِ"

أمّا (بشار بن بُرد) الذي اشْتُهِر بظرفه وحِدّة لسانه، فقد جاء في كتاب (الأغاني) أنَّ رجلا سأله قائلا: يا أبا مُعاذ، إنَّ الله لم يسلب أحدا نعمة إلا عوَّضه عنها بشيء، أمَا وقد سلبك الله نعمةَ البصر منذ مولدك، فماذا عوَّضك عنها؟ قال بشّار: عوَّضني الكثير...فسأله الرجل: وما هذا؟ قال: أن لا أراك وأمثالك مِن الثقلاء!

# 7- كُن رسولا للقِيَم



"إنّمـا الأمـمُ الأخـلاقُ مـا بَقِيـتْ

فإنْ هُـمُ ذهبـتْ أخلاقُهـم ذهبـوا"

أحمد شوقي

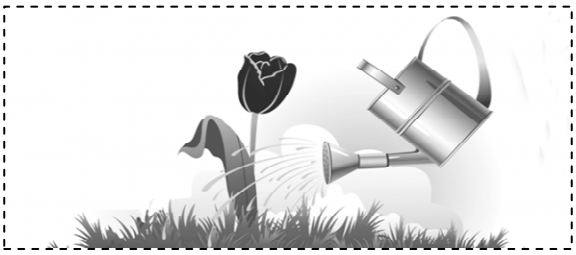



لِلْكــون قِــيَمٌ ثــلاث يَتأسَّــس عليها ويَستمدُّ منها ديمومتَـه وبقـاءَه، ورغـم وضـوحها كالشمس في رائعة النهار ولزومها كالماء والهواء وحاجتنا إليها كالعليل للدواء والأَصمّ للسّمْع، إلّا أنَّها عزيزةُ المنال في طول الحياة وعرْضها.

الاعتقادُ بالحقّ، والخَيْريَّةُ في السلوك، والجَمالُ في المشاعر...تلك هي أعمدة القِيَم الثلاث التي وافقَت الفطرة، وحام حولها الفلاسفة، واحتفىٰ بها الحكماء، ودنْدن في تضاعيف ساحِها المُفكِّرون، ومِن أجْلها أَنْزل الله ملائكتَه بالوحْي واصطفىٰ أنبياءَه بالرسالة وفاضَل بين البشَر في معادهم يوم الدين.

ومع اكتساب منظومة القيَم مِن مَعِين مدوّنة الوحْي وعبر القُدوة والتّعلُّم، تَتولَّىٰ -أي القيم- موقعَ الدفَّة التي تقود مركبَ السّلوك؛ فتعصم الفردَ من الزّلَل لتمنحه الأمان النّفسي والأُسَريّ، وتصُبّ الإسمنت في صلْب المجتمع ليزداد تماسكا وتكاتفا، كما تُنشئ أرضيَّة للتعايش والتفاهم بين ربوع مليارات العالم السّبعْ وقارّاته السّتْ وجِهاته الأربعْ بمَدَرِها ووَبَرِها لتُضفِي علىٰ لوحة الكون ألوان الوئام وإكليل السلام، خاصَّة إذا علمنا أنَّ ما لا يقل عن(80٪)مِن القِيم هي مِن المُشترَكات بيْن جميع الأُمم علىٰ حدّ تعبير المفكّر (عبد الكريم بكّار)، وأنَّ المهارات المهنية تُسهم في النجاح بنسبة 7٪ فقط بينما قِيَم الشخص وأخلاقه هي المسئولة عن 93٪ مِنه، وإلىٰ هذا يُلمّح عبقري الفيزياء وعديد الجنسيَّات[1] وأبو النسبيّة (ألبرت أينشتاين)فيقول:

"لولا الرّحمة والجمال والعدْل في هذه الدنيا ما كان لها معنىٰ".

---

(1) حمل ( أينشتين)الجنسية الألمانية بحكم المولد، إلىٰ جانب الجنسيتيْن الأمريكية والسويسرية.

وإذْ نـذكِّر بـأنَّ القِيَمَ في اللغـة جَمْـعُ قِيمـة، وأنَّ القِيمـةَ هـي "الخـصْلة الحميدة والخلَّة الشريفة التي تحضّ الإنسانَ علىٰ الاتّصاف بها"، وأنّها في الاصـطلاح تعني تلـك الأفكـار التـي صـمدتْ للنقْـد فلاقـتْ إجماعـا إنسانيًّا علىٰ مرِّ العصور ووافقَت الفطرة وعزَّزتْها الرّسالات السماويّة وأكَّـدَتْها التجـاربُ الحياتيّـة فـصارت القـرص الـصلب في الحاسـوب البشري؛ فإنَّنا لسنا بحاجة إلىٰ التأكيد علىٰ أنَّ منظومة القيَم لا تقتصر علىٰ تلك القيم الثلاث، بل تمتدّ المظلّة وتتّسع لتشمل شُعَب الإيمـان كلّهـا، والتـي يبلـغ عـددُها بـضع وسـتون أو بـضع وسـبعون؛ فتَتـصدّرُها كلمـةُ التوحيـد ويَتـذيّلها إماطـةُ الأذىٰ عـن الطريـق كمـا ورد في الحـديث الشريف[1]، إذْ إنَّ المعيـار الـذي نحتكِم إليـه في تفسير ماهيّة تلك القيَم ينطلـق مِـن التـصوّر الإسـلامي البحْـت، بعيـدا عـن التـصوّرات الفلـسفيّة المُختلَّة أو المقاييس الغربيّة الوافِدة التي قد تُأَوِّل الحقَّ والخيرَ والجمـالَ بخـلاف مـا نعتقـده وعلـىٰ نقـيض مـا نـدين بـه، وهـو مـا عنـاه صـاحبُ الظلال(سيد قطب)حين قال:" لا جَـرَمَ أنَّ أصْـدق الحـديث عـن منظومـة القِيم هو ما كـان منسوبا إلـىٰ الإسـلام، لأنّـه الـدين الخـالص ذو الأصـول المحفوظة".

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ "

ويُجمِع أساتذةُ الحضارات الذين أَشبعوها دراسة، مِن أمثال (ابن خلدون) و(ديورانت) و(توينبي)، علىٰ أنّ منظومة القيَم هي عمود الوسط في خيْمة الحضارة وكأنّها روحُ جسدها ودماءُ عروقها ونور أبصارها، وأنَّ سقوط الأمم يرجِع أساسا إلىٰ انهيار المنظومة القِيَميَّة وتَدَاعِي القوّة الأخلاقيّة، وأنَّ الحضارةَ لا تموت قتْلا وإنَّما تموت انتحارا علىٰ حدّ وصف (أرنولد توينبي).

كما يُضيف علماءُ الاجتماع ويزيدون الأمر جلاء بقولهم: "تفاخرَت الأُممُ في الحَرْف الأوّل مِن أبْجديّة تكوينِها بالقوّة الجسديّة، فإذا تجاوزَتْه تفاخرَتْ بالعِلْم، وإذا نالَتْ منه تفاخرَتْ بالأخلاق"، بما يعني أنَّ الأخلاق والقيَم هي النُّسخة الأَحدث واللبنة الأَقوىٰ في سلسلة البناء الحضاري.

وبهذا المنظور سقطَت الدولةُ العباسية قبل أن تجتاحها جحافلُ التتار، وتداعتْ حضارةُ الأندلس قبل أنْ يتداعىٰ عليها الأسبان، وقضَت الدولةُ العثمانية قبل أنْ تمنحها أوروبا شهادة الوفاة... فما كان مِن ترَف وبذَخ ومِن مؤامرات ودسائس ومِن غفْلة وبَلادة ذاع صيتُها وفاحتْ روائحُها، إلّا صرخات دولة تتألّم وحشْرجات حضارة تحتضر واسْتغاثات أُمّة علىٰ وشك الرحيل.

أمّا في فنّ الإدارة[1] ومع مطلع الألفيّة الثالثة، فقد تَبنّىٰ مُتخصِّصُوها اتجاها حديثا يُطلِقون عليه (الإدارة بالقيم)، وهو ما يَعني أَنْسنة الإدارة؛

(1) يُعرَف فنّ الإدارة بأنّه تنسيق العمل المُخطَّط لإنجاز هدف واضح ومُحدَّد.

فيَصبّ في اتجاه إعلاء شأن قِيم الشفافية والجودة واحترام الوقت وخدمة العملاء، لتكون تلك الاتجاهات حاكِما للمنافَسة ودافعا للإنجاز ومفتاحا لتحقيق الأهداف والطموحات وحارسا لأخلاقيّات بيئة العمل، وذلك باعتبارها-أي القيم- لبّ الثقافة الإنسانيّة التي تلائِم احتياجات أطراف العمل الثلاثة وهي العامل والزبون والمالِك.

نعلم جميعا أنّ للوزن ميزان يَختبر البدانة والنحافة، وللطُّول مقياس يحدّد الطّول والقِصَر، وللصحّة فحْص يُميِّز السقيم والسليم، وللدراسة اختبار يَفصل بين النّجاح والرّسوب...فهل يا تُرىٰ ثَمّة ميزان ومقياس أو فحْص واختبار، يكشف بجلاء ما تحُوزه ذواتُنا مِن تلك القِيَم كمًّا وكيْفًا؟

بديهي أنَّ كلَّ ما في الحياة يُقيَّم بالقياس إلىٰ غيره؛ فقيمة الأشياء هي في مقدار ما تَخدم به الإنسان، وقيمة الإنسان في مقدار استخدامه تلك الأشياء لعمارة الأرض وبناء الحضارة وأداء أمانة الاستخلاف...ولذا فإنَّ السُّلوكَ وحدَه هو مرآةُ القِيم وميزانُها وهو فحْصها ومقياسها؛ بمعنىٰ أنّ شهادة الجار في السكَن والبائع في السّوق والرفيق في السّفر والزميل في الدراسة والصَّديق في العمل والرّفيق في المسجد، هي معيارٌ موثوق وشهادة مُعتمَدة، إنْ كانتْ خيْرا فخيْرا وإن كانت شرًّا فشَرًّا... وفي هذا يُوجِز الإمام (أبو حامد الغزالي) -رحمه الله- في الإحياء فيقول: "إذا أثْنىٰ

علىٰ الرَّجل جيرانُه في الحضَر، وأصحابُه في السّفَر، ومُعامِلُوه في الأسواق، فلا تشكُّوا في صلاحِه".

أمّا أعظم اختراع يُمكن أن تفيد منه البشريّة، فهو مِرآةٌ يطالعها الشخص؛ فتتخطَّىٰ جمالَ الشّكل وأناقة الثّوب ومَلاحة القدّ ونضارة الوجه، وتَنفذ إلىٰ لُبّ العقل ومكنون النفس وجوهر الروح؛ فتكشف حقيقة المعتقَد وصدْق النوايا وسلامة الشعور، ومِن ثَمَّ يبدأ مشوار التغيير ويَدور مقود التوجيه...فهل هذا يكون؟!

# 8- صَلِّ لا تَتريَّض

"يـــا لَذَّة عـــيْش المُستأْنِـــسِين

و يـــا خـــسارة المُسْتوْحِـــشِين"

الإمام ابن الجوزي

عشِقَتْ فأرةٌ جَمَلا وجرّتْ خطامَه لجُحْرها، فوقَف بقامته الفارهـة علـىٰ بـاب الجُحـر الضيِّق قائلا: اتّخِذي دارا تليق بمحبوبِك أو محبوبا يَليق بدارِك.. أمّا ابنُ القيم -المُلَقَّب بشيخ الإسلام الثاني- فيُعقِّب علىٰ تلك الحكاية الرمزيَّة قائلا: صلِّ صلاةً تليق بمعبودك أو اتّخِذ معبودا يَليق بصلاتك.

وعندما سُئِل الرسّام الإسباني الشهير(بابلو بيكاسو)عن كيفيّة قضائه الساعات الطوال أمام لوحاته، مُنكَبًّا علىٰ الرسم دون سأَم أو ضجَر؟

أجاب:

"عندما أبدأ الرّسم، أَدَعُ جسدي خارج المرْسَم، كما يفعل المسلمون عندما يدخلون المسجدَ للصّلاة"!

ربَّما لا يغيب عن أفهام الكثيرين -حتىٰ صار مِن نافلة القول ومُعاد الكلام- أنّ الصلاةَ عماد الدين، وأنها الركن الثاني للإسلام، وأنها الفريضة التي ارتقَتْ وتَفرّدَتْ بفرضيّتها في السماء قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، وأنها آخر عروة تُنقَض قبل خلع رداء الإسلام، وأنها مع الشهادتيْن ركنان لا يَسقطان عن صاحبهما بأي حال، وأنها الحدّ الفاصل بين الإيمان والكُفر، وأنها أوّل ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة إنْ خيْرا فخيْر وإنْ شرّا فشرّ، وأنها في اللغة تعني الدُّعاء الذي هو مخّ العبادات.

ولذا، نُبادر عند الأذان-وليس الآذان التي هي جمع أُذُن- ونتوضّأ كأحسن ما يكون الوضوء؛ فنحرص علىٰ التدليك وإطالة الغُرّة وترديد الأذكار والمبالغة في المضْمضة والاستنشاق والاستنثار، ثمّ نَمشي الهُوَيْنَىٰ للصلاة؛ فنتَحرَّىٰ القبلة ونَرصّ الصفوف[1] ونَسدّ الخَلل ونُحاذِي بين المناكب ونَركع ونَسجد ونُسلِّم ونَنصرف...ما الخَلل إذنْ؟ وما وجه التقصير هاهنا؟

الخَلل هنا؛ أنَّنا وقفنا عند تعريف الفقهاء للصلاة بأنها "أفعالٌ وأقوالٌ مُفتَتَحةٌ بالتكبير مُختَتَمةٌ بالتسليم" وغضضْنا الطرفَ عن تعريف الصوفيّة

(1) للعلماء في مُلازَمة صلاة الجماعة ثلاثة أقوال: فرض كفاية، وسنّة مؤكّدة، وفرض عين.

لها بأنها "مناجاة قلبيّة بيْن العبد والربّ"؛ وضربنا عرض الحائط بقول ابن القيم في مدارج السالكين: "روح العبادة هو الإجلال والمحبّة، فإذا تخلّىٰ أحدُهما عن الآخَر فسدَت"، فتركْنا القلبَ في المنزل والعقْل في العمل وصلّينا صلاة بلا روح ولا وعْي، ثـمَّ تَوهَّمْنا أنَّ الجثة الهامدة يمكن أن تقيم حياة وأنَّ المجداف المكسور قادر علىٰ الإبحار وأنَّ المسمار الصدئ ما زال خليقا بأداء دوره!

أمّا وجه التقصير فهو تقزيم الشعائر التّعبُّدية واختصارها في طقوس فيزيائية لا تخرج عن كوْنها مجرّد حركات إيقاعية نمطيّة متكرِّرة، مع أنّ صلاتَنا ستحلّ في ذات الكفَّة وتستوي علىٰ نفس الميزان الذي يُعايِر صلاة (مُسلم بن يَسار) والتي أوْمَأ لأهله إبّان دخوله فيها قائلا: "تَحدَّثوا فلستُ أسمع حديثَكم"!

شتّان بين أَرِحْنا بها يا بلال، وأَرِحْنا مِنها يا بْن الحلال...فالأُولىٰ تنشد إقامة الصلاة وقليلٌ فاعلها، والأُخرىٰ تبغِي أداء الصلاة وهي لسان حالنا في الحلّ والترحال... في الأُولىٰ نخلع رداءَ الدنيا وفي الأُخرىٰ نلبسها كالسوار ونرتديها كالوشاح... في الأُولىٰ خشوعٌ[1] وفلاح وفي الأُخرىٰ رياضة وخُسران... في الأُولىٰ صلاة علىٰ سبيل الإخلاص وفي الأُخرىٰ صلاة علىٰ سبيل التّخلُّص...في الأُولىٰ تُصبح الصلاة لحظة مُتعة ولذّة

(1) مِن جميل ما قِيل: "الخشوع في الصلاة ليس بحاجة إلىٰ إمام حسَن الصوت بقدر حاجته إلىٰ قلب حسَن الحِسّ"، وأنّه تغيُّر داخلي مؤلِم لدرجة البكاء وعميق مثل المخاض.

وفي الأُخرىٰ تصير الصلاة شوْطا مَشُوبا بالتّعب والمشقّة؛ وعندها علينا أن نتفقَّد تلك المُضغة القابعة في منتصف القفص الصدري...

هل هي حاضرةٌ أَمْ غائبة؟

هل هي سليمةٌ أَمْ سقيمة؟

هل هي حيّة نابضة أَمْ ميتةٌ خامدة؟

تَعتصِر الحسرةُ قلوبَنا حين نَخرج مِن الصلاة كما دخلنا فيها وحين لا ينطبع سلوكنا بأخلاقياتها، وهو ما نبَّه إليه (العمري) في كتابه (كيمياء الصلاة) حين قال بأنَّ الغفلة عن معاني الصلاة وآثارها علىٰ صعيد الفرد والمجتمع هو سهْو أيضا بل هو السهْو بعينه-وذلك في إشارة إلىٰ قول الحق -جل وعلا- في سورة الماعون: "ويْل للمُصَلِّين. الذين هُم عنْ صَلاتهم ساهُون"- ودون تَعارُض مع التأويل السائد لمعنىٰ السهْو بأنّه تأخير الصلاة عن وقتها.

كما يُبلِّل الدّمْعُ جفونَنا حين نطالع حياة السّلف مع الصلاة؛ فهذا الصحابي الجواد بن الجواد (عديّ بن حاتم) يقول: "ما جاء وقتُ الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق"، وهذا التابعيّ المُحدِّث (ثابت البناني) يقول" كنتُ أَمُرّ بابن الزبير خلف المقام يُصلِّي كأنَّه خَشبة مَنصوبة لا تتحرّك"، وهذا التابعيّ الزاهد الوَرِع (أُويْس بن عامر) يُجيب حين سُأِل عن شدَّة تعلّقه بالصلاة فيقول: "لأَعبُدنَّ الله في الأرض كما تعبده الملائكةُ في

السماء"، أمّا حَبْر الأمّة (ابن عباس) فكان لسان حاله ما أُثر عنه وقال: "ركْعتان في تَفكُّر خيْر من قيام ليلة بلا قلب".

بالحبّ نتزوّج النساء، وبالحبّ ندرس ما نشاء، وبالحبّ نختار الأصدقاء، وبالحبّ ننتقِي ما نشتهي من الطعام والشراب واللباس...

لماذا إذنْ يتوقّف بنا الحبّ[1] عند عتبات الصلاة؟!

ولماذا تفارقنا النّشوةُ ويُزايلنا النّشاطُ عند التأهّب للصلاة؟!

و لماذا لا نُدير دفّة قلوبنا مع دعاء الاستفتاح للصلاة؟!

ولماذا نشكو مرّ الشكوىٰ ونجأر حَرَّ الصياح عند انقطاعٍ مؤقَّت للكهرباء ضجَرًا مِن ظلام الدنيا واشتداد الحرارة وتَعطُّل المصالح، ولا يَتذمّر أحدُنا أو يضجّ بشكواه عند إظلام الفؤاد بذهاب نوره وغياب الحُبّ مِن جنَباته؟!

ولماذا لا يَطير العبادُ إلىٰ ربهم علىٰ أجنحة مِن الشّوق بدل أن يُساقوا إليه بسياط الرهبة؟![2].

يَقينًا...لنْ تُثمرَ الطّاعةُ سعادةً إلا إذا اقترنَتْ بالمَحبّة ولنْ تغنَم النّفسُ اللذّة إلا حين تستأنِس بالطّاعة، فالعِبادةُ طائرٌ؛ جسدُه الحُبّ و جناحاه

---

(1) يقول الكاتب الامريكي (جريجوري جوديك): "الحُبّ يُمكِّنك مِن ممارسة عقيدتك بصورة أفضل إذْ هو رئيسي لأيّ دين".

(2) هكذا تساءل الشيخ (محمد الغزالي) في كتابه (جدد حياتك).

الخوْف والرجاء، وفي هذا يقول بعضُ السّلف: "مَن عبَد الله بالحُبّ وحْدَه فهو زنديق، ومَن عبَده بالخوف وحده فهو حَرُورِيّ، ومَن عبَده بالرجاء وحده فهو مُرجِئ، ومَن عبَده بالحُبّ والخوف والرجاء فهو مؤمن".

أمّا جبْر الكسر ورتْق الفتْق؛ فيَكمن في إدراكنا أنّ القلبَ سيّدٌ يقود الجوارح فإذا خشَع سكنَتْ وإذا غفل لهَتْ وعبَثتْ، وفي التأكيد علىٰ أنَّ القلب محلّ نظر الله سبحانه ولا فائدة مِن صلاة يَسرح قلبُ صاحبها في الزوجة والأولاد والطعام والشراب حتىٰ ليَصدق فيه قولُ مجنون ليلىٰ: "أُصلِّي فما أَدرِي إذا ما ذكرْتُها،،،اثنتيْن صلَّيْتُ العِشا أَمْ ثمانِيا"، وفي استحضار أنّه لا جدوىٰ مِن حركاتِ ثنْي ومَدّ نُسمّيها صلاة إذا كانت عقولُنا تتخذها فرصة سانحة لحساب الأموال ومراجعة الأعمال وشحْذ الذاكرة والتخطيط لما بعد الصلاة، كما يكمن الحَلّ في تدبُّرنا لجواب العابِد الربّاني (وهيب بن ورد) حين سُئِل: "هل يَجد طعمَ العبادة مَن يَعصِي الله؟ فقال: لا، ولا مَن يَهمّ بالمعصية"، وذلك علىٰ أمل اللحاق بركْب مَن جاء فيهم قول الحقّ سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: 1-2]

# 9- اقْهر النسيانَ بالتكرار

"التكرار يؤدِّي إلى الاعتقاد
ثـمّ يتحـوّل إلى قناعـة تبـدأ
بـدورها في التحقّـق...لذلـك
كنـت أردد دائمـا: أنـا أقـوى
ملاكم في العالَم"

محمد علي كلاي

علىٰ طريق اكتساب المعارف وتَعلُّم المهـارات وصـقْل الخـبرات، تَعـدَّدتْ الوسائلُ والسُّبُل وتَدرّجتْ في الرقيّ منذ إنـسان الرعـي والـصيد وحتـىٰ إنـسان الـصورة والمعلومـة، ورغـم الطاقـة الإيجابية الهائلة التي تمتلكها الوسائلُ التربويّة والتعليميّة الحديثة بما لها مِن جاذبية وتأثير، فإنَّ التكرار كقوّة معرفيّة ومهاريّة يَبقىٰ فارس الميدان وفرس الرهان، حتىٰ وإنَّ عدّه البعضُ وسيلةً قديمةً لا تلمع، فليس كلّ ما يَلمع ذهبا، وكثيرٌ مِن نفيس الأشياء قديم.

يَقول الكاتب الأمريكي (أنتوني روبنز): "التكرار أمّ المعارف"، وربما نضيف أيضا بأنّه أبو المهارات، فبالتكرار تَعلّمَ الطفل الكلام ورطَن بالعديد مِن اللغات، وبه قوي عودُه فمشىٰ وركض وعدا، وبه استقامتْ حروفُ أناملـه علىٰ السطور فغدا خطّاطا ورسّاما، وبه حفظ قوانين الرياضيات ورموز الكيمياء وقهر ذاكرة النسيان، ثمّ شبَّ عن الطوق ولكنّه لم يفارق مطيّة التكرار، فقد كانت سبيلَه لاحتراف ركوب الدراجة وقيادة السيارة وإتقان الصناعة واحتراف الطبابة وامتهان الهندسة والتجارة والزراعة.

وها هي كلّ العادات السّلبيّة والسّيِّئة ما كانتْ لتترسَّخ إلا بتكرار تعاطِيها علىٰ مدىٰ أيامٍ وليالٍ، حدَّدها البعضُ زمنيًّا بواحد وعشرين يوما وحدَّدها آخَرون عدديّا بعدد مرات تكرار تبلغ مائة مرة، وما مِن سبيل للخلاص مِن أَسْرها وكسْر أغلالها، إلا بتكرار ما يَنقضها ويهدم أركانها ويقوّض بنيانها مِن عادات إيجابيّة علىٰ فترة زمنية أطول وبعدد مرّات تكرار أكثر، علىٰ قاعدة أنَّ خيْر الترياق ما أتىٰ مِن السمّ وأنّ أنجع الدواء ما اشتُقَّ مِن الداء.

وعبر تجوالنا في دروب الحياة، كثيرا ما انْتابَنا الخوفُ حال الإطلالة مِن أعالي المباني، والرَّهبةُ عند ركوب الهواء بالطائرة، والجزعُ عند المشي فوق الماء بالسفين، والانقباضُ حال السفر إلىٰ مجاهيل البلدان، والوحشةُ حين الجلوس إلىٰ الغرباء، وبالتكرار تلو التكرار تَبدَّل الخوفُ

أمنا والجزع سكينة والوحشة صداقة، وغدا اللا مألوف مألوفا والمرفوض مقبولا والحزْن سهلا.

وفي سبيل اختراع المصباح الكهربائي كرّر الأمريكي توماس أديسون(ت1931م) محاولاته مئات المرات قبل أن يتحقَّق حلمه الذي أضاء به العالم، وفي سبيل اختراق الفضاء تكرَّرت المحاولاتُ؛ بدءا بعباس بن فرناس في القرن التاسع الميلادي(880م)، ومرورا بالأخَوَيْن (رايت) في بداية القرن العشرين(1903م)، وحتىٰ نجاح الإنسان الروسي في اصطحاب الكلبة (لا يكا) إلىٰ نزهة خلوية عبر المركبة الفضائية في 1957م، كما ذُكر أنَّ رجل الأعمال الأمريكي(والت ديزني) إبّان بحثه عن مموِّل لإقامة مدينة الألعاب الشهيرة (ديزني لا ند) قد كرر عرَض مشروعه علىٰ ثلاثمائة واثنين مصرفا قبل أن يوافق أحدُهم علىٰ طلَبه... هو إذنْ التكرار الذي يُعلِّم الشُّطّار.

وهكذا ليس التكرارُ ببغاءَ تُردِّد ولا دجاجةً تُقلِّد، ولكنّه أحد قوانين العقل الباطن المرتبطة بالحياة، والذي يتطلَّب سكْب زيت المثابرة والصبر، ونزْع فتيل الإحباط والملل، وإشعال نار الأمل والنجاح، كما يَتطلَّب حضور العقل واستدعاء الانتباه، حتىٰ يَفتح كلُّ تكرار زاوية جديدة ويَلج آفاقا وليدة ، فيُصبح عندئذ مدرجا للصعود لا مهبطا للنزول، ومحاولات نشطة حثيثة لا حركات رتيبة تَجلب الكَرَىٰ وتَستدعِي الرقاد، وصدق في ذلك مَن قال:

"وقــلَّ مَــن جَــدَّ في أمــرٍ يُطالِبُــه
فاسْتصْحَبَ الـصّبرَ إلّا فـاز بـالظّفَر"

وإضافة لما سبق، فإنّ لِقوّة التكرار تطبيقات عمليّة يَستخدمها خبراء التنمية البشرية لبناء الشخصية، والأطباء النفسانيون لعلاج مرضاهم، وأصحاب الأعمال لترويج بضائعهم، والسياسيّون البارزون لتسويق أنفسهم[1]، والدِّعائيّون للوصول إلىٰ بغيتهم، كما اسْتنتَج المُتمرِّسون في القراءة أنَّ الثمرة المَرجوّة مِن تكرار قراءة كتاب واحد تفوق قراءة أكثر مِن كتاب لمرّة واحدة...ولم يكن ذلك كذلك إلّا لأنّ هؤلاء جميعا يدركون أن ما تكَرَّر تقرَّر، وأن كلَّ تكرارٍ هو فتْحٌ لجديد واستكشافٌ لغامض وتأكيدٌ لمَعلوم، وأنَّ إدامة قرْع الباب كفيل بفتْحه، وأنَّ الولوج للعقل الباطن الذي يُمسك بلجام السلوك يَحتاج إلىٰ مِداد التكرار ووقود الترداد.

هذا وقد اعتنىٰ السّلفُ والمتقدّمون عنايةً فائقةً بالتكرار؛ فكان مطيّتهم في حفظ القرآن والحديث وإتقان المتون والمَنظومات، وكان سِرَّ

(1) في هذا يقول عالِم النفس(روبرتبورنستاين):"ليس مهما ما يحتوي الإعلان مِن معلومات، بل تكمن الأهمية في في التكرار الذي يعتمد علىٰ رؤية وجه الشخص بشكل مستمر، ويعتمد أيضا علىٰ تكرار الاسم لجذب الانتباه".

حافظتهم[1] التي يُضرب بها المثل عند بعض مَن يَستظهرون قواميسَ اللغة ومعاجمَها؛ فهذا (الحسن بن ذي النون أبو المفاخر النيسابوري) المُتوفَّىٰ في القرن السادس الهجري يقول: الشيء إذا لم يُكرَّر سبعين مرّة فلن يَستقرّ، كما سأل أحدُ التلاميذ شيخَه(أبا مسعود الرازي): إنّا ننسىٰ الحديث؟ فقال: أيّكم يَرجِع في حفظ حديث واحد خمسمائة مرة؟ فقال؟ ومَن يَقوىٰ علىٰ ذلك؟ قال: لذاك تنسون، أمَّا المؤرِّخ الشهير(ابن الأثير) فيقول في كتابه (المثل السائر): "كنتُ جرّدتُ مِن الأخبار النبويّة كتابا يَشتمل علىٰ ثلاثة آلاف خبر، وما زلتُ أواظب علىٰ مطالعته مدّة تزيد علىٰ عشر سنين، فكنتُ أطالعه في كل أسبوع مرّة، حتىٰ دار علىٰ ناظري وخاطري ما يَزيد علىٰ خمسمائة مرّة، وصار محفوظا لا يَشُذّ عنّي منه شيء".

خلاصة القول أنّ الطريقَ لاكتساب معرفةٍ أو إتقان مهارةٍ أو اكتساب عادةٍ أو التغلّب علىٰ صعوبة، لا بدّ أن يَمرّ عبر الجلوس علىٰ كرسيّ الصبر وتجرُّع كأسَ التكرار.

(1) يَشتهر الشناقطةُ الموريتانيون مِن طلّاب العِلم والعلماء، بقوّة الحفظ والاستظهار، ولهم في ذلك نوادر ونكات، ولا أدلّ علىٰ ذلك مِن العلّامة (محمد حسن الددو) نائب رئيس اتحاد العلماء المسلمين ورئيس مركز تكوين العلماء في موريتانيا.

# 10- حضارتُك أصيلة...فاسْتعِدْها

"أُمَّـتي هـل لـكِ بـين الأمـمِ منـبرٌ للـسيفِ ... أو للقـــلمِ
أتلقَّـــاكِ وطـــرْفي مُطـــرِقٌ خجـلًا مِـن أَمْـسِكِ المُنـصرِمِ"

عمر أبو ريشة

مـع التأكيـد علـىٰ أنّ هنالـك جوانـب عديـدة في الحيـاة يحكمهـا ناموس التناغم والتكامل والتوافق؛ فإنّ الحقَّ والباطل، والخيْرَ والشرّ، والنّـورَ والظـلام، مَثـاني تـتلازم وأضداد لا تأتلِف؛ وبهم تتمايز الأممُ والمجتمعـاتُ رُقِيًّـا ودُنُـوّا، وقُبحًـا وجَمـالًا، وخُلـودًا وزوالًا...فلـيس بالأشياء وحدها تَرقىٰ الأمم.

وهنا يأتي في المقدّمة المجتمعُ المسلِم الحقّ الذي يَنثر بذور الخير، ويَحمل مشاعل النور، ويشيع في الكون الضياء، ويُضفي علىٰ الحياة ألَقا وجمالا بما يَحمل في طيّات رسالته مِن قيم سامية وأخلاق سامقة وأهداف نبيلة؛ تهدِي بها الضالّ، وتَحنو علىٰ الضعيف، وتأخذ علىٰ يد الظالم، وترفع راية الحقّ، وتفرش بساط العدل، وتقود مسيرة الحياة.

ولكنَّ -ويا للأسف- نظرةً عُشْر فاحصةٍ علىٰ مجتمعات وأُمَم تتسمّىٰ بالإسلام وتتغنّىٰ بأمجاده وتقتات علىٰ ذكراه؛ مِن عراقٍ ومصرٍ وشامٍ وصومالٍ، وإلىٰ ما اتّسع بصرك وبلغ مداه؛ ستأتيك بأصدق الأخبار - دونما حاجة إلىٰ هدهد سليمان أو أخت موسىٰ(عليهما السلام)- مُفعَمَة بالآهات، ومُبَلَّلة بالدموع، ومُجَلَّلة بالظلم والقهر، ومُوَقَّعة باسم أمّةٍ[1] لبستْ كفَنا ونَصبَتْ مأْتما واستأجَرَتْ نائحة وعاشتْ خارج التاريخ منذ القرن السادس عشر، فلا اختراع لها في العقل الإنساني ولا تِرس لها في المصنع العالمي ولا صوت لها في السياسة الدولية ولا مدفع لها في الترسانة الأُمَمِيّة ولا مقعد لها في الصفوف الأمامية، ولسان حالها يردِّد:

---

(1) المقصود هنا أمّة الموحِّدين التي قامتْ علىٰ أساس الدينونة بربوبية الله وعبادته، والتي يسميها (د. عماد الدين الرشيد) في كتابه عن النفس البشرية، بأمّة الإجابة، تمييزا لها عن أمّة البلاغ التي عنتْها وثيقة المدينة.

"كُنّـــا عِظامـــا فـــصِرنا عِظامـــا

وكُنَّـا نَقُـوت فهـا نحـن قُـوت"(1)

يصِف أحدُ الغربيِّين علاقة المسلمين المعاصِرين بالإسلام، فينكأ الجرح ويَنثر عليه الملح ثمّ يَدعَسه فيقول: "أنتم أسوأ مندوبي مبيعات لأثمن بضاعة"، ويُؤمِّن علىٰ ذلك الشيخ الثائر(جمال الدين الأفغاني)بمقولة أكثر ألما وألْذع سخرية فيقول: "إذا أَردْنا أن ندعو للإسلام، فليكنْ أول ما نبدأ به أن نُبرهن للغربيِّين أننا لسنا مسلمين"، ثم يَصدمنا الشيخ (محمد الغزالي) بخلاصة مُؤلِمة تقول: "إن انتشار الكفر والظلم في العالم يحمل نصف أوزاره مُتديِّنون، بَغَّضوا اللهَ إلىٰ خلقِه بسوء صنيعِهم وأفعالِهم".

يا لَلعـــــار!

أين عفْو سيّد البشر؟

وأين حِلم الصدِّيق؟

وأين عدْل الفاروق؟

وأين ورَع عمر بن عبد العزيز؟

وأين فروسيّة عليّ بن أبي طالب؟

---

(1) الشاعر والمؤرِّخ والفيلسوف الأندلسي لسان الدين الخطيب/ ت1374م

وأين عبقريّة خالد بن الوليد؟

وأين هِمّة عقبة بن نافع؟

جِناية المسلمين في تلك البلاد وغيرها مُريعة؛ لأنهم خرّبوا الديار وأساؤوا لرسالة الإسلام، فضربوا أسوأ مثال لحضارة امتدّتْ رقعتُها في ثلاث قارات(آسيا وإفريقيا وأوروبا) وأُشِيرَ لها بالبنان علىٰ مدار ألف عام امتدت ما بيْن( 622م-1566م).

تلك الحضارة التي وُلِدت لتسود وتقُود، لا لِتَبيد كما باد أسلافُها مِن جُملة اثنين وثلاثين حضارة مَرّتْ علىٰ وجه الأرض حسب تعداد المؤرخ الإنجليزي (أرنولد توينبي)، وتلك الحضارة التي أَنْصفَها المؤرِّخ وعالِم الاجتماع الفرنسي (جوستاف لوبون) حين قدّم شهادتَه فيها قائلا:

"إنّ حضارةَ العرب المسلمين قد أَدْخَلت الأمَمَ الأوروبيّةَ الوحشيّةَ في عالم الإنسانيّة، فلقد كانوا أساتذتَنا الذين مَدَّنُوا أوروبا مادّةً وعَقْلًا وأخلاقًا، وهُم أوّل مَن علَّم العالَمَ كيف تتّفق حريّة الفكر مع استقامة الدين".

لا أعتقد أنَّ القائد الألماني (بِسمارك) والملقّب بالمستشار الحديدي، مازال عند رأيه ووعْده حين قال:

"أَعطوني عشرة آلاف مُسْلِم أَفتح بهم العالم".

ولا أَرىٰ (رستم) قائد الفُرس إلّا مولِّيا ظهره لِربعيّ بن عامر إنْ عادت عجلة التاريخ وأَعاد علىٰ مسامِعه مقولتَه الشهيرة:

"لقد ابتعَثَنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد؛ ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الآخرة ، ومِن جوْر الأديان إلىٰ عدالة الإسلام".

وما أرانا إلا (تَيْم) التي عناها الشّاعر وهجاها بقوله:

"ويُقضَىٰ الأمرُ حين تَغِيب تَيْمٌ

ولا يُستأمَرون وهُمْ شُهود"[1]

أَلَا عجَبا لِمَن حاز المِفتاح وانتصَبَ حائرا أمام الباب!

وعجبا لمَن يملك كنزا ثمينا ثم يتكفَّف السابلة!

وعجبا لِمَن استدْبر النور والضياء ثم راح يَنشد الهُدىٰ والرَّشاد !

فعلاوة علىٰ كنزها الروحي-القرآن والسنّة- الذي يُمثل الشقّ الأساس في أيّ حضارة؛ تَملِك الأمَّة الإسلامية رُبْع ثروات العالم الطبيعية مِن أرض زراعية وثروة حيوانية وسمَكيَّة ومعدنيّة، كما تمتاز بمناخ متنوِّع وموقِع جغرافي متميِّز يَتوسّط العالم ويَتوسَّد البحار

(1) البيت لأشهر شعراء العرب (جرير بن عطية الكلبي)، أمّا (تيم) فهي بطْن مِن بطون قبيلة قريش.

والمحيطات والمضايق البحرية، بالإضافة لحيازتها ثلاثة أرباع الاحتياطي البترولي العالمي وتسجيلها لأعلىٰ معدلات الخصوبة والمواليد...وكل هذه مؤهّلات مادِيَّة جِدُّ كافية للنهوض مِن العثرة والكبوة وارتياد منبر الريادة والقيادة؛ إلّا أنَّ الخلَل العقَديّ وأزمة القِيَم وغياب الفكر الاستراتيجي ووهَن الإرادة وفساد القمَّة[1]، هو ما يَضرِب بكل تلك الطاقات والإمكانات عرض الحائط ويجعلها هباء منثورا وصِفْرا مُطلَقا[2]، حتىٰ تَدَنَّىٰ إنتاجُ العالم الإسلامي برمّته دون رُبْع الإنتاج الياباني مع أنَّ عدد اليابانيين أقلَّ مِن عُشْر تعداد المسلمين ومع أنَّ إيرادات الأندلس في أيام (عبد الرحمن الثالث) فاقتْ إيرادات البلاد المسيحية اللاتينية مُجتمِعة، وحتّىٰ أصبحتْ خيولُنا التي وطأتْ سنابكُها عروشَ (كسرىٰ) و(قيصر) وخاض فرسانُها البحار والمحيطات تماثيلَ للّعب وحلْوىٰ للأكْل وأموالَ للرّهان... وسلامٌ علىٰ خيول الفروسيّة والجهاد.

علينا أن لا نُعَزِّي أنفسَنا فنُرخِي لها ستائرَها ونُهَدْهِدها في مُهُدِها بجملة الحقائق التي تقول؛ بأنّ حضارات الأمم تتأرجح بين مَدٍّ وجَذْر

---

(1) يقول (علي باشا مبارك) الملَقَّب بأبي التعليم في مصر: "فساد القمّة هو الذي أسقط هذه الأمّة مِن القمّة"، ويقول الشيخ (محمد الغزالي): "فساد الرعيّة مِن فساد الملوك، وفساد الملوك مِن فساد العلماء".

(2) (الصفر المُطلَق) يساوي 273 درجة تحت الصفر، وهو أقصىٰ القاع الحراري؛ إذْ هو أبرد درجة حرارة افتراضية يمكن الوصول إليها حالما تتوقف جزيئاتُ المادة عن الحركة.

وتمكينٍ واستِضعاف وشيخوخة وشباب، وبأنَّ قانون الوجود يبدأ بالولادة والنمو وينتهي بالانحلال والفناء، وبأنّ النَّصر كثيرا ما يتحقَّق بضعف المهزوم لا بقوَّة المُنتصِر، وبأن الحضارة التي تحتفظ بقواها الداخلية وأركانها التي تقوم عليها سرعان ما تعود إلىٰ حلبة النزال.

بل علينا أن نُحمِّسَها ونُثير حمِيّتَها، فنُذكِّرَها دوْما بأنّ ناموس التقدُّم لا ينفكّ عن التأكيد علىٰ أنّ التوقُّف عن الصعود هو في حقيقته شُروع في النزول، وأنَّ روعة النهايات تكون بقدْر وجَع البدايات، وأنَّ مَن لم يُزِد علىٰ الحياة شيئا فهو زائدٌ عليها، وأنّ مَن يَحكي الأمجادَ ولا يُحاكيها ومَن يَسردها ولا يَقتفيها ليس إلا ضفدع يَنِقّ وصُرصور يُصَرصِر.

وبعد الإقرار بأنَّ العِثارُ ليس شهادة وفاة، وبأنَّ القَدَمُ التي لا تعثِر لا تتعلَّم المشي ولا تُتقن الرّكْض، وبأنَّ العودة خطوة أو خطوتيْن إلىٰ الخلف تزيد مِن سرعة الانطلاق...يَبرز السؤال الكبير الذي يتردّد صداه في فضاءات الأمّة قائلا:

متىٰ نَعثر علىٰ ذاتنا الحقيقيّة؟

ومتىٰ نَفيق ونَؤوب، فنَستوِي ونركُض؟

ومتىٰ نَمدّ أيدينا إلىٰ غرْبٍ تَأنّ روحُه، بعدما تَمدّنَ بعراقة وتَحضَّر بخِزي علىٰ حد تعبير الكاتب (أدهم الشرقاوي)؛ فصارتِ المخدّرات قوت يومه، وأصبح الجنس سعارا يقوده مِن خطامه، وأضْحت المادّة غايته التي بها يفاخر واللواط قانون شريعته وأركان حريّته، حتىٰ بدىٰ

وكأنه يرتدي ثوب الحضارة الرومانية التي ذخرت رسومُها[1] بالرموز الجنسية الفجّة والصريحة وشاعت فيها الإباحية[2] إلىٰ أقصىٰ مدىٰ عرفه التاريخ؟

ومتىٰ نلتفت إلىٰ شرْقٍ تتوق نفسُه وتَشرَئبّ عنقُه؛ حيث يَذكر أحدُ الباحثين أنَّ في الصين نيّفا وعشرين مليون مسلم، بعضهم يَقصر إسلامَه علىٰ تحريم لحم الخنزير، دون تطبيقٍ لأركان الإسلام الخمس وأركان الإيمان الستّ؟!

(1) أحد الرسوم المنحوتة أتت علىٰ شكل ميزان، في كفته الراجحة رمز للفاحشة، وفي الكفة المرجوحة أكداس من الجواهر، بما يعني أن الشهوة لديهم هي غاية الحياة وأغلىٰ ما فيها.

(2) لعلّ أوضح مثال علىٰ هذا التحلُّل، هو قيام الامبراطور الروماني (نيرون) بالزواج من غلام ألبسوه لباس فتاة وسط احتفال كبير، إلىٰ جانب ارتكابه لزنا المحارم ممَثَّلا في والدته، وهو ما يَنسحب أيضا علىٰ الأباطرة (كاليجولا) و(تيبريوس).

# 11- حتى في وفائك...لا تُبالِغْ

"عِــشْ ألــفَ عامٍ للوفــاء وقَلَّمــا
ســادَ امــرُؤٌ إلا بحِفْــظِ وفائِــه"

الشاعر أبي النجع الخوارزمي

الوفاءُ مِن أنْبل الصفات وأسْمىٰ الخصال، فهو دليلُ معدن كريم وعاطفة صادقة، وهو علامةٌ علىٰ بلوغ النفس مرتبة الكمال الخُلُقي؛ إذْ يُعرِّفه (ابن منظور) في (لسان العرب) بأنّه: "الخُلُق الشريف العالي الرفيع"، ويصِفه (الجرجاني) في تعريفاته[1] بأنّه: "مُلازَمة طريق المواساة ومحافَظة عهود

(1) كتاب التعريفات للفقيه والفيلسوف اللغوي (الجرجاني) المتوفّىٰ سنة 816هـ، وهو معجم لمعاني المصطلحات في شتىٰ فروع المعرفة.

الخُلَطاء"، وهو ما مدَح به العليُّ القديرُ خليلَه إبراهيم -عليه السلام- فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [1]، ولذا كانت العربُ تَعدّ عديمَ الوفاء مهموز النَّسب، وتَضرب المَثَل بالوفاء للدلالة علىٰ قِمّة العِزّة فتقول: "هُو أَعَزُّ مِن الوفاء".

وهو في حقّ الأحياء واجب حين يَختصّ بعهْدٍ أو وعْد أو عقْد أو دَيْن، والتعبير عنه واسعُ الباب؛ بدْءًا بالعظيم مِن الأفعال حين تمتلك العافيةَ والمالَ والجاه، وانتهاءً باليسير مِن الكلمات حين يدِقُّ الحال وتفرُغ ذاتُ اليد ويصْدُق فيك وصْفُ (المتنبي) حين قال:

"لاخيْـلَ عنـدك تُهـديها ولا مـالُ

فليُسعِد النُّطْقُ إن لـم يُسعِدِ الحالُ"

وقد حُكِي أنَّ شيخا كبيرا اشْتُهِر بحكمته ووفائه، امتطىٰ فرسَه في طريق مقفر، فرأىٰ عن بُعد أعرابيا مُرتميا علىٰ الأرض، فهرع إليه، ونزل عن فرسه يسأله عن حاله ويَعرض مساعدته ويقدّم له الطعام والشراب، ولكنّ الأعرابي كان لصا محترفا؛ إذْ غافل الشيخَ وامتطىٰ الفرس وفرَّ ظافرا بالجمل وما حمل، وهنا ناداه الشيخ بأعلىٰ صوته قائلا: أستحلفك بالله ألا تُخبر أحدا بفعلتك، حتىٰ لا ينعدم الوفاء وتتراجع المروءة. تمضي الحياة وتحين الوفاة التي هي الموت لغة وشرعا -وإن اجتهد

(1) النجم 37.

بعض الاصطلاحيّين في التفريق[1] بينهما- فيَرحَل الأحياءُ عن دنيانا ويُغيِّبهم القدَرُ عن رؤيانا بعدما استوفى الشخصُ أجلَه المحدَّد في اللوح المحفوظ، ويَبقي الوفاءُ في حقِّهم ألْزم وأجْمل؛ حيث يَخلو مِن دنَس الرّياء ورِيبة المصلحة وشُبهة المنفعة، حتىٰ أنّ قليلَه بعد الوفاة خيرٌ مِن كثيرِه حال الحياة، ولهذا قِيل في الأمثال: "لا أَصْدق مِن الرّثاء"، كما حَكىٰ (الجاحظُ) في (البيان والتبيين) أنَّ أعرابيا سُئل: ما بال المَراثي أجْود أشعاركم؟ فقال: لأننا نقولها وأكبادنا تحترق.

برحيلهم يَدمىٰ القلبُ وتَدمع العينُ وتَحزن النفسُ ويَنتحِب الجسد، وترسُو سفينةُ الوفاء علىٰ شاطئ الرحيل، خاصّة إذا كان مَن تَوسَّد الثرىٰ وطواه الرحيلُ واخترمتْه المَنِيَّةُ حشاشةَ قلبٍ أو فلذةَ كبدٍ أو صنوَ روحٍ أو شريكَ عُمْر؛ فكان أبا وأُمّا، أو زوجا وولدا، أو صديقا وقريبا، وهو ما عبَّر عنه أحد الشعراء حين قال: "رحلَتْ أمّي منذ عشرين عاما، وقد رثيْتُ وأبَّنتُ الكثيرين مِن الأحبّة قبلها، إلّا أني لم أستطع إلىٰ الآن أن أُرثيها، وكلما حاولتُ ذلك فشلْت لأنني لَمْ أهتدِ إلىٰ الكلمات التي تَفيها حقَّها"...ولِمَ لا وقد قِيل أنَّ اليتيمَ مَن فقد أباه بينما مَن فقد أمَّه فهو دار أيتام، كما ورد عن (زين العابدين بن الحسين) قوله: "فقْد الأَحبّة غُربة".

---

(1) يُفرِّق البعضُ بين الوفاة التي هي قبْض الروح فيخصّ بها المُكلَّفين مِن الكائنات الحيّة(الإنس والجنّ)ويجعل منها موتا مؤقّتا، وبيْن الموت الذي هو ذهاب سرّ الحياة مِن خلايا الجسد ويلي قبض الروح بعد فترة قد تكون دقائق معدودات كما في خلايا المخ وقد تكون ساعات كما في خلايا القرنيّة ويجعلونه وفاة دائمة.

والبَشر في وفائهم أصناف وألوان، ولعلّ أَعجَبُهم هذا الجنديّ الذي صحب (نابليون) في منفاه الأخير في (سانت هيلين) ثمَّ كان أنْ لازَم قبرَه وأبىٰ أنْ يبارحَه مع أصدقائه المَنفيِّين حين أُذِن لهم بالعودة إلىٰ فرنسا بعد وفاة نابليون، وأَرَقّهم ذاك العجوز الذي توقَّف عن ارتداء نظارته الطبيّة بعد وفاة زوجته قائلا: لا شيء في الحياة يَستحقّ أنْ أراه بعدها!، وأَشْعرهم ذلك العلّامة الأندلسي(يحيىٰ التجيبي)الذي أصابه الوجْدُ علىٰ وفاة زوجته فكانتْ وصيتُه علىٰ فراش موته:

"إذا ما مِتُّ فادْفنِّي حذاءَ حَليلتي

يُخالط عَظْمي في الترابِ عِظامَها"

وأشْهرهم (السّمَوْأَل) أميرُ قصر الوفاء وحاملُ أختامه، حين وَفَّىٰ وكَفّىٰ تجاه (امرئ القيْس) المُلَقَّب بالملِك الضّليل وصاحب أشهر المُعلَّقات السَّبْع، وذلك حين فقَد ابنَه في سبيل حفظ الدروع والوفاء بتسليمها لأهل (امرئ القيس) وورثته، فصار مضرِب الأمثال إذْ يُقال: "أَوْفىٰ مِن السّمَوْأل".

أمّا أسْماهم وأشْرفهم وأنبلهم؛ فهو نبيُّ الرحمة وسادِن كعبة الأخلاق، الذي تَمنَّتْ عليه بُيوتات مكّة عشيّة فتْحِها أنْ تَشْرُف بمَبيته فيها فقال: "انْصُبوا لي خيمة عند قبر خديجة"، والذي بالَغ -صلىٰ الله عليه وسلم- في إكْرام عجوز دخلَتْ عليه، ولما سُئِل في ذلك، قال: "إنَّها كانتْ تأتينا أيام خديجة، وإنّ كرَم العهْد مِن الدِّين".

العقْلُ والعاطفة جناحان في بنِي البشَر، فعقلٌ بلا عاطفة هو أرضٌ جدباء لا تُنبت وصحراءٌ قاحلةٌ تَصعُب فيها الحياة، وكذلك العاطفة بلا عقْل هي ريشةٌ في مهبِّ عاصفة هوجاء وأرضٌ رخوةٌ لا تصلح سنَدا لقدَم أو مرْكبا لبَدَن... ويَبقىٰ التوازن إكسيرًا للحياة.

فحين يُفرِط البعضُ في الحُزن علىٰ عزيز فقَدُوه؛ تَهيج العاطفةُ ويَجمح اللسان، فيَعافون الطعام، ويَهجرون الدنيا، ويُطفئون الأنوار، ويَحسبون أنّ هذا قمّة الوفاء، وهُم في ذلك مُخطِئون بشهادة (المَعرّي) حين قال:

"إذا مات ابنُها صرَخَتْ بجهلٍ وما ذا تستفيدُ مِن الصراخ؟

ستتْبعهُ كعطفِ الفاء ليستْ بمهلٍ أو كثُمَّ علىٰ التراخي"

أَلَا فلْيعلم هؤلاء أنّه ما أسْهل الانكفاء علىٰ الأحزان والقراءة في سِفْر الفراق، وما أصْعب القفْز علىٰ أسوارها وبناء صرْح جديد في الحياة. فماذا يجني الراحلون مِن دمْعة حارّة وآهات مكلومة وزفرات محمومة؟

وماذا يجني الراحلون مِن سُود الملابس التي بها نتّشح، ومِن مُعلَّقات الرثاء التي بها نرفع عقيرتَنا؟

وماذا يجني الراحلون من إطراق الرأس وفرْك العيْن ومَخْط الأنف؟ الواقع أننا نحن المستفيدون؛ فبهِما نُفرِغ شحنات الغضب ومكنون الحزن، ونغسل ألم الفراق وعذاب الحرمان...

بينما يَجني الراحلون؛ حين نمضي في الحياة نُنْفِذ وصاياهم، ونُنجز أمنياتِهم، ونُحقِّق ما يُفرحهم لو كانوا بيننا أحياء.

ويَجني الراحلون؛ حين نسير قُدُمًا داعِين لهم مستغفِرين، ومِن أموالنا لهم مُتصدِّقين.

ويَجني الراحلون؛ لو أَرَيْناهم بعض مِن حُبّنا قبل فقْدهم، ولو لمسوا بعضا مِن وفائنا قبل وداعهم.

فلَوْ لَبسنا أحزانَنا ومَضغنا آلامَنا وتَوسّدْنا آهاتِنا وغَفونا علىٰ ذكرىٰ راحلِينا...

مَن يَعمر الكون إذَنْ؟

ومَن يَخلف الله في أرضه؟

ومَن يدفع عجلة الحياة إلىٰ الأمام؟

لا مِراء في أنَّ الأحزان إحدىٰ المشاعر الإنسانيّة الفِطريّة التي لا لوْم فيها ولا تثريب، ولكنّ المغالاة فيها تُخرِجها مِن إطارِها وتُفرِغها مِن مضمونِها علىٰ غرار ما قِيل في المثل الإنجليزي مِن أنَّ "المبالغة في الترحاب ازدراء" ومِن أنَّ "المبالغة في الأدَب سوء أدَب"، علاوة علىٰ أنَّ التلبُّس بها والعيْش فيها بَريدٌ للأسقام وصانعٌ للتجاعيد وجالِبٌ للشَّيب وخارج عن قاموس الوفاء الذي قال عنه (ابن الجهم):

"وجَرَّبْنا وجَرَّبَ أوَّلُونا فلا شيءٌ أَعزُّ مِن الوفاءِ"

والـذي رثـاه شـاعرٌ اكتـوىٰ بغيابـه وأفـول نجمـه في عـصر المـادّة والمصلحة فقال:

"عَـزَّ الوفـاءُ فـلا وفـاءَ وإنَّـه لأَعـزُّ وجْـدانا مِـن الكِبريـتِ[1]"

(1) يَقصد الكِبريت الأحمر الذي يُضرَب به المثل في الندرة.

# 12- شَمِّرْ ساعِديْك...فالقِمّة في انتظارِك

"تَهُــــونُ علينـــــا في المعـــــالي نفوسُـــــنا

ومَن يَخطُبِ الحسْناءَ لمْ يُغْلِها المَهرُ"[1]

اقتـضتْ حكمـةُ الله -العلـيّ الحكـيم- أن تتفاضـل أفعـالُ العباد بتفاضُل الزمان والمكان وبقـدر ديمومتها وتَعـدِّي نفعها إلىٰ الآخَرين، كما قضَتْ عدالةُ السّماء بأن يتفاضلَ أهلُ الخير والصّلاح في آجل أُخْراهم ومُستقرّ عُقباهم تبعا لما قدَّمت أيديهم وكسبت نفوسهم؛ فكانت الجائزةُ مِئة درجة في جنان ربّي، يَتراءىٰ فيها أهلُ

(1) صاحب الروميّات الشاعر أبو فراس الحمداني(320-357هـ).

المراتب العُلىٰ لذوي الدرجات الدُّنىٰ كالنّجوم الزاهرات في السماء الصافيات، بينما كان أهلُ الفردوس هُم درّة التاج ونبع الفرات حين تَبوّؤا أوسطَها وتَسنّموا قمّتَها... ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وبالطبع لم يكنْ هذا التفاضُل وذاك التمايُز خبْطَ عشواء أو رمْية بغير رام أو نَبْلا بدون نابل، بل كان العدْل المطلَق الذي يَروم تطبيقا عمليّا لنواميس الحياة التي لا تَتخلّف، وقوانينِها التي لا تُثلَم، وقسطاسِها الذي لا يَحِيف...

إذْ كيف يَستوي مَن يَسكب الحبرَ علىٰ الورق والحروف علىٰ الشّاشات، مع مَن يسكب دماءَه[2] زكيّة نقيّة علىٰ سطور الوغىٰ وصفحات الردَىٰ!

وكيف يَستوي مَن يُصلِّي بنِصف عقل ورُبع قلب، مع مَن انتصَب في صلاته فغاب عن الوجود، وكان مِن أهل الشهود الذين تَقرَّحتْ أكبادُهم واحترقتْ وجْناتُهم!

وكيف يَستوي مَن تَصدّق بفضل ماله وفراغ أوقاته وفَضْلة طعامه، مع مَن بذَل أثمن ماله وصُلب أوقاته وأفضل إدامه!

---

(1) المطفّفين 26.

(2) يقول أحد الفلاسفة الألمان: "الحياة قصص، وأجملها ما يُكتَب بالدماء".

وكيف يَستوِي مَن جازىٰ بالإحسان إحسانا وبالخيْر خيْرا وولَج باب الهداية فذّا، مع مَن سما وارتقىٰ فأَحسَن إلىٰ مَن أساء ودفَع الشَّرّ بالخيْر وطاف بطبق الهداية علىٰ مَن عرَفه ومَن لم يعرفه!

وكيف يَستوي مَن صلّىٰ فرضَه وصام رمضانَه وحجّ حجّة الإسلام لا غيْر، مع مَن زاد فتنفّل وتطوّع واعتمر!

وكيف يَستوي مَن قاد الرّكْب وحمَل الراية وتَلقَّىٰ سهامَ الردىٰ بصدر عار، مع مَن انتظم جنديّا يَفعل ما يُؤمَر به ويُنفِّذ ما يُملَىٰ عليه!

وكيف يَستوي مَن أَلجم نفسَه بالعزائم وساقها إلىٰ قمم المعالي فما طافتْ به شبهة ولا حاق به شكّ، مع مَن مَال للرّخَص وغصّ بحرُه بالمدّ والجزر فاشتدّ تارةً ولان تارات!

في ساح ألعاب القوىٰ يَتمدَّد علىٰ الأرض مضمارٌ[1] مطيّتُه الأقدام، وزادُه صحّة الأبدان، وروّادُه مِن الكثرة التي تَستعْصِي علىٰ العدّ والإحصاء، وأيّما وجَّهت وجهَك و قلّبت طرْفَك فشرَّقْتَ أو غَرَّبْت ستجد مضمارا يَستبق فيه أهلُ المال ومضمارا يتناحر فيه طالبو الجاه ومضمارا يتبارىٰ فيه أرباب الأهواء؛ إذْ جُبل البشرُ علىٰ حُبّ التفوّق والعلوّ وتأكيد الذات؛ أمّا المقصود والمأمول هنا؛ فهو مضمار الحقّ الذي يَمتثل فيه المؤمنون لأمْر الله عزّ وجلّ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

(1) المِضمار هو المَمرّ الواسع المُعدّ للسّباق، ويُرادفه لغةً المجالُ والميدانُ والحقل.

رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [1]
وتُمارس فيه الجماعةُ البشرية إحدىٰ سنن الله في خلقه وهي سنّة التنافس؛ التي عرَّفها (ابن جرير) بأنها الرغبة في الشيء والمغالاة في طلبه والتزاحم عليه، وشرَعها الفقهاءُ وحثُّوا عليها بقولهم: "لا إيثار في القُرَب-أي الطاعات-"، ودعا إليها (الحسن بن علي) قائلا: "مَن نافسك في دِينك فنافِسْه"، وخصَّص لها الإمام (النووي) بابا في كتابه الشهير (رياض الصالحين) وصدَّره بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [2]... وذلك لأنها تَستحثّ الطاقات وتُوظّف الإمكانات وتَكشف القدرات، ولأنها إنْ وُظِّفت في الخيْر والعِلم والطاعة كما أرادها المولىٰ عزّ وجلّ كانت بوابة للكمال وسلّما للارتقاء، وهو ما لا يقوَىٰ عليه إلا القلوب السليمة، ولا يُغنيه مِن زادٍ إلا إيمانٌ وتُقىٰ، ولا يَلِجه إلّا النّفرُ مِن الرّجال الذين وصفهم ربُّ العزة بأنهم: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [3]...

ذاك المِضمار الذي سبَق فيه (الصّدّيق) فوثّق (الفاروقُ) ذلك حين قال: "لا أسبِقه إلىٰ شيء أبدا"، وتفوَّق فيه (الفاروق) فشهد له (أبو الحسن) حين قال: "لقد أَتعبْتَ مَن بعْدك يا عمر"، واشتكىٰ فيه فقراءُ

---

(1) آل عمران 133.

(2) البقرة 148.

(3) النور 37.

الصحابة إلىٰ الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- حال إخوانهم الأغنياء الذين نافسوهم فسبقوهم قائلين: "ذهب أهلُ الدثور-أي الأموال- بالأجور؛ يُصلّون كما نصلّي، ويَصومون كما نصوم، ويَتصدّقون ولا نتصدّق"...وهو ذات المِضمار الذي فتَرتْ فيه هممُنا وكلَّتْ فيه عزائمُنا؛ فارتضتِ السَّفح دون القمّة، والجُنديّة دون القيادة، والنّجاح دون التفوّق... وكان الحال الذي لا يَخفىٰ علىٰ كلِّ ذي لُبّ ولا يَغيب عن كلِّ ذي خافق.

ومِن رحمة الله بنا وحدبه علينا أن خطّ لنا المَسار وأضاء لنا المِضمار لنمضي فيه علىٰ بيِّنة وهدْي؛ فكان الله نُور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1] وكان القرآن نور: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾[2] وكانت النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- نور: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾[3]، وذلك قبل أن يَأتي القائمون علىٰ الرّشاد والثابتون علىٰ الحقّ مِن التابعين وتابِعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين؛ فيَضعوا علىٰ جوانبه-أي مضمار الحق- مِن الإشاراتٌ واللطائف ما يُذكِّر بأنّ بلوغ منصّة التتويج هو فضلٌ مِن الله ومنّة وإنْ كان التفاضل فيها بالعمل والسَّعي، ويُنبِّه علىٰ أنّ ثلاثا مِن الهِدايات الأربع -التي فصّلها (الراغب

(1) النور 35.

(2) الأعراف 157.

(3) المائدة 15.

الأصفهاني) في المُفرَدات[1]- هي في يمين الله ولا يَملك البشَرُ منها نقيرا ولا قطميرا؛ بدءا بهداية الفطرة ومرورا بهداية التوفيق وانتهاء بهداية الفائزين إلىٰ نُزلهم في أعالي الجِنان.

ورحِم الله (ابن القيِّم) حين مهّد لنا طريقَ الفوز فقال: "النّعيمُ لا يُدرَك بالنعيم ومَن آثر الراحةَ فاتتْه الرّاحةُ"، وبَرَّد الله ثرىٰ (ابن الجوزي) حين أدلىٰ بدلوه فقال: "لايُدْرِك المَفاخِرَ مَن كان في الصّف الآخِر"... فهل مِن مُشمِّر.

(1) كتاب (مفردات ألفاظ القرآن)هو مِن جملة ما سُطِّر في علوم القرآن ومِن أهم معاجمه، لصاحبه الراغب الأصفهاني/ ت 425هـ

# مرحلة الوصول

## ( 12 خطوة )

# 1- تَفقَّدْ قلْبَك

"للقلـبِ سِرٌّ لـيس يَعـرِفُ قـدرَه

إلّا الذي آتـــــاه للإنـــــسانِ"

نونية ابن القيّم

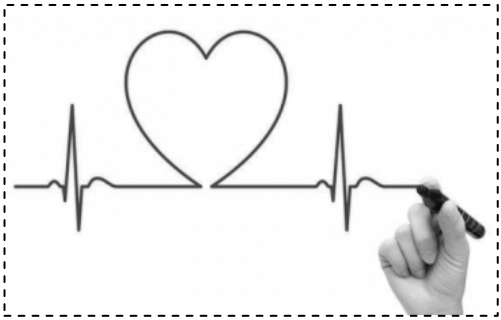

أَسَـرَتْني قـصّة تلـك المـرأة الفرنـسيّة (إميلـي لافاليـت) والتـي جـرَت أحـداثُها في بدايـة القـرن التاسع عشر، وذلك حين حُكِـم علـىٰ زوجهـا بالإعدام، وسلَكتْ كلّ مَسْلَك في سبيل العفو عنه، ولكنْ سُدَّتْ في وجهها النوافذ وغُلِّقت دونها الأبواب، ثـمّ احتالـتْ ليلة تنفيذ الحكـم، فزارتْه في محبسه، ودبّرت هروبَه بعد أنْ ألبَستْه ثيابَها وبقيتْ هي في محبسه.

وهزّ أعماقي تلك الكلمات النيِّرات التي يقول فيها الصّحابي الجليل (أبو الدرداء) رضي الله عنه:

"إنِّي لَأدعو لثلاثين مِن إخواني وأنا ساجد، أُسمِّيهم بأسمائهم وأسماء آبائهم".

كما لامسَتْ شغاف قلبي مناجاةُ الإمام (أحمد بن حنبل) حين قال:

"اللهمّ إنْ قبِلْتَ عن عُصاة أمّة محمّد فِداء فاجعلني فِداء لهم".

أمّا ما مَلَك وجْداني وضمَّخ بالعطر فؤادي؛ فكانتْ كلماتُ الزعيم الصوفي (عبد القادر الجيلاني) عندما قال:

"وددتُ لو أنَّ الدنيا بيدي فأُطعمها الجياع".

للقلب وظيفةٌ ماديّة وصَفها العلماءُ بأنّها مضخّة لا تئِنّ ولا تكِلّ عن ضخّ الدم المُحمَّل بالغذاء والأوكسجين للقاصي والداني مِن أعضاء الجسم، وذلك ابتداء مِن الشهر الثاني لتخليق الجنين في الرَّحِم وانتهاء بالوفاة، كما له وظيفة معنوية رُوحيّة[1] كان فيها حرَما لله ومَحلّا لنظره، ووعاء للإيمان والحِكمة والفِطنة، ومَوْئِلا للحُبّ والخير والجمال؛ فنهَل

(1) اعتقد ابنُ النفيس(ت 1288م)قديما أن القلبَ له بُطيْنان أحدهما مملوء بالدم وهو الأيمن، والآخر مملوء بالروح وهو الأيسر، ولا مَنفذ بينهما البتة، وإلا نفذ الدم إلىٰ موضع الروح فأفسد جوهرها!

منه الفنانون والأدباء، ونظَم فيه الشعراء والحكماء، و قصَدَه المربّون والفقهاء، وفيه قال (الرافعي) أنّه هو آلة الصِّدق الوحيدة في البدَن، كما وصَفه الشاعر الألماني (جوته) فقال: "قلْب الإنسان كبيرٌ جدا لا يملؤه شيء".

وكما تتباين قسَماتُ الوجوه وبصَماتُ الأصابع وتتفاوت ألوانُ الجلود والعيون وتختلف الطِّباعُ والعادات، فإنَّ القلوبَ تتنوّع بين قلبٍ كبير يحمل الخير العميم فيسَع الجميع، و قلبٍ ضامر صغير تَملَّكه الأنا فنَاء بصاحبه.

فحين يَهجرنا الخِلّانُ وتفترسنا الوحدة، وحين ينهش الألم أجسادَنا فتأنّ مِن وطْأته، وحين تمرّ السنون ونقترب مِن خط النهاية، وحين نفقد سنَدا أو عزيزا في درب الحياة، وحين يتجبّر علينا ظالم فيصوّب سهامه لنحورنا، وحين تنتابنا وساوس المجهول ومخاوف المستقبل، وحين يَطعننا خِلسةً مَن كان يومًا أنيسَنا وجليسَنا، وحين تُحيطنا الشيخوخة بعاهاتها فنغدو طريحي الفراش...نصبح في مسيس الحاجة لذلك القلب الكبير[1] المُفعَم بالحبّ والزاخر بالعطاء؛ ليبدّد الوَحشة ويَنشر الضياء، ويُواسِي الموجوع ويُسرِّي عن المكلوم...قد يكون هذا القلب قلبَ أبٍ

(1) يقول الأديب (محمد فريد أبو حديد): أفضل هبات الطبيعة عندي هو القلب الكبير الذي يتمثَّل العطاء مثلا أعلىٰ له.

أو أمٍّ، أو أخ أو أخت، أو زوج أو زوجة، أو ابن أو ابنة، أو صديق[1] أو جار أو زميل، أو فاعل خيرٍ مغمور في الأرض مشهور في السماء.

فما الطريق للظَّفر بذاك القلب الكبير؟

وما هي سِمات صاحبه؟

مِن ثنايا الأخطار يُولَد القلبُ الكبير[2]؛ فعندما نُزيّن قلوبَنا بالإيمان، ونتغافل عن حماقات السفهاء، ونعفو ونصفح عن زلّات الرفقاء، ونَبذل دونما انتظار لشُكْران، وعندما يكون الله هو الغاية والوسيلة والمراد، ولا نغلق بابا وراءه سائل أو محتاج، و نبشّ لكلِّ مَن صافحته وجوهنا، ونرفق بأنفسنا وبكلِّ بني الإنسان...سنحوز تلك الجوهرة التي هي قلْب أثمن مِن كل مال وأبْقىٰ مِن كلِّ عقار وأرفع مِن كلِّ مقام؛ إذْ تَجرَّدت مِن قانون التجارة؛ فكانتْ بحرا بلا شُطآن، وبستانا بلا أبواب، وقصرا بلا أسوار، وحِصنا بلا حُرّاس، وكانت كطائر علا وسما فابتعد عن الآفات علىٰ حدِّ تعبير (ابن القيم)[3].

---

(1) عن الصداقة وقيمتها في الحياة تقول (فدوىٰ طوقان): الصداقة الحقيقية انتصار من انتصارات الحياة ومكسب من مكاسبها، ولعلها تفوق الحُبّ؛ فهي أطول عمرا، ولها طعم حلو ودفء يستكين له القلب.

(2) هكذا قال (جان راسين).

(3) يقول ابنُ القيّم رحمه الله: "القلبُ كالطائر كلّما علا بَعُد عن الآفات، وكلّما نزل احْتوشتْه الآفات".

أمَّا صاحب القلب الكبير فهو ذلك الغنيّ بِلا مال والوجيه بلا جاه والقويّ بلا صوْلجان، وهو مَن يُغطّي أحزانَه بطبقة مِن الفرح حتىٰ لا يَجرح مَن حوله، وهو مَن اختار لقلبه الطّفولة فلا الشيخوخة عرف ولا بالهِرَم مَرّ، وهو مَن يُداوي الناس رغم علّته ويُطعمهم رغم جوعه ويَسقيهم رغم ظمئه، وهو بطل قصة الرجال الأربعة الذين سافروا عبر صحراء قائِظة قاحِلة مترامِية، وعندما عثروا علىٰ مجمّع مُحاط بجدران عالية، تسلّق أوّلُهم الجدار ليكتشف ما به، وما إنْ وصل إلىٰ القمّة حتىٰ صاح صيحةَ بهجةٍ وغبطةٍ وقذف بنفسه إلىٰ الداخل، وهكذا فعل الثاني والثالث، أمّا الرابع الذي أبْصر وهو علىٰ قمّة الجدار ما بالداخل مِن حدائق غنّاء وينابيع وجداول تفور وبساتين وفواكه تخلب الألباب، فقد قفز عائدا إلىٰ الوراء مُكرِّسًا حياته ليوجِّه التائهين في الصحاري الحارقة ويَهديهم إلىٰ تلك الجنّة.

صاحب القلب الكبير هو مَن نظلمه إنْ حبسنا تعريفه بين جدران الألفاظ وقُضبان الكلمات، وهو مَن وضع له الأديب الكبير( أحمد أمين) مِقياسا يُمكِّننا مِن التفتيش عنه والعثور عليه حين قال: "ارسم خطّا مستقيما رأسيّا، وضَعْ في أسفله(أنا) وفي أعلاه(نحن)، فمَن كان في حِلّه وترحاله وحاله ومبتغاه وقولِه وفعلِه قريبا مِن (نحن) فهو ذاك الرجل وذلك القلب"... كُونوا ذلك القلْب تَغْنَموا .

# 2- سعادتُك بيْن جنبيْك

"الفـضيلةُ والـسّعادة:
أُمٌّ وابنتها"

مَثَل

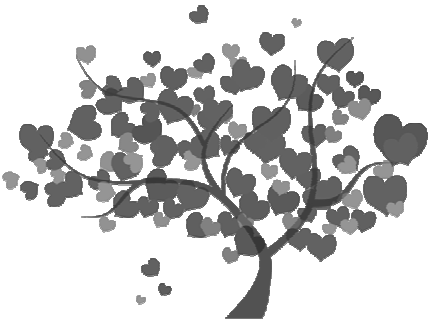

مـاتَ أميـرُ المـؤمنين[1] في النحْـو وفي نفـسه شـيء مِـن (حَتَّـىٰ) التـي حَتْحَتَـتْ قلـوبَ االلغـويّين؛ فكانـتْ تـارة حـرْف جَـرٍّ يَجُـرّ، وآنـا حـرْف نـصْب يَنـصِب، وآونـة حـرْف عطْـف يَرفع ويَنصب ويَخفِض، ويَبدو أنّ الكثيرين سيموتون أيضا وفي عقولهم بعض حيرة وثَمَّة تساؤل عن كُنه السعادة وسُبل الوصول إليها.

(1) هو أبو زكريا يحيىٰ بن زياد المُلَقَب بالفرّاء/ ت 207هـ

قصّة البحث عن السعادة قديمة قِدَم الخليقة وعميقة عُمق النفس البشرية، وقد سلك لها السالكون مشارب شتّىٰ ومسارب عِدّة، فمنهم مَن وصل حتىٰ ذاق عسِيلَتها، ومنهم مَن ادّعىٰ الوصول فرقص علىٰ تُخومها، ومنهم مَن أَعْيتْه الحِيلةُ فعدّها وهْما وسرابا وأَغلق بابَه دونها وصدّق علىٰ قول القائل:

"وما السعادة في الدنيا سوى حُلمٍ يُرجَى، فإنْ صار طيْفا مَلَّه البشرُ"

ولم يكن ذلك البحث الحثيث والسعي الدّؤوب، إلّا لِما في السعادة مِن ألْف إفادة وإفادة؛ فقد أثبتَتْ الدراساتُ أنَّ السعداء يُحقِّقون أعلىٰ معدلات الأداء في العمل والعلاقات الإنسانية مقارنة بغيرهم، وأنهم يَتمتّعون بصحة أفضل وأعمار أطول، وذلك لسعة أفقهم وإيجابيّتهم وأَرْيَحِيّتهم، إضافة إلىٰ ما يَتمتّعون به من مرونة فكرية وصلابة نفسية ومعنوية، وهو ما يُمكِّنهم مِن اجتياز العقبات وتَحدّي الصعاب والارتقاء في سلّم الإبداع.

## ماهي السعادة؟

يقولون إنّ شرح الواضحات مِن الفاضحات، وإنّ أصعب الأسئلة إجابةً هي أبسطها، بل إنّ بعض المفاهيم قد يأتي شرحُها وتفسيرُها علىٰ ما بها مِن بريق ورَوْنق وجمال، علاوة علىٰ أنّ بعض المعاني الإنسانيّة السامية قد تكلّ اللغةُ عن قطفها في حروف أو تنسيقها في كلمات.

هكذا السعادة إذنْ؛ هي شعورٌ أكبر مِن كوْنها كلمة، وحياةٌ أعظم مِن حصْرها في مصطلح، وسلوكٌ أشمل وأعمّ مِن بسْطها عبر نظرية أو قانون، وعلىٰ هذا فالإلمام بأطرافها والوقوف علىٰ ذؤابتها كمَن يحاول عبثا القبْض علىٰ الهواء أو الإمساك بالماء أو عَدّ النجوم في الليلة الظَّلْماء، ولهذا قيل أنّ السعادة كالحُبّ؛ لا تحمل معنىٰ واحد لشخصيْن مختلفيْن، ولن تجد لها تعريفا يُرضِي الجميع.

سافر الإنسانُ سائحا عبْر البحار والفضاء، وكدّس المالَ نقْدا وذهبا وفضّة، ومضىٰ في دروب العِلم فحاز الأوسمة والشهادات، ومارس الحُبّ فرُزِق البنينَ والبناتِ، ومَكَر وتَحايَل حتىٰ نال الشُّهرة والجاه، ومارَس الرياضة وتَعاطىٰ أفضل الغذاء وأحدث الدواء أمَلا في جسدٍ خالٍ من الأسقام وبدنٍ وافرٍ بالصحة والعافية... كلُّ هذا وذاك ما كان إلّا سعيا دَؤوبا لبني البشر بغية الحصول علىٰ الكنْز المفقود والحُلْم الموعود المُسَمّىٰ سعادة.

فهل عَثر علىٰ زورقها؟

وهل رَسا في مرفئِها؟

وهل دنا مِن كوكبِها؟

لو كانت السعادةُ سَفَرا وترحالا لكان الطّيارون آباءَها والمضيفاتُ أمّهاتِها، ولو كانت السعادةُ مالًا لكان قارونُ حبْرَها الأعظم وكان الأنبياءُ

الذين لم يُورِّثوا درهما ولا دينارا هُم سَفْحُ جَبلِها وقاعُ بئرِها، ولو كانت السعادةُ شُهرة لَما انتحر ملِك الغناء (إلفيس بريسلي) أو أسطورة السينما (مارلين مونرو)، ولو كانتْ السعادةُ جاها لأُصيب الرئيس الأمريكي بهستيريا السعادة ولَما قالت زوجةُ ولي العهد البريطاني(ديانا)أنها تشعر بما فيه الكفاية من الشقاء والتعاسة، ولو كانت السعادةُ صِحَّة وشبابا لَما أَقْدمَتْ (كريستينا) -ابنةُ امبراطور البِحار المليارديرِ اليوناني (أوناسيس)- علىٰ الانتحار في عِزِّ شبابها وأوج جمالها، ولو كانت السعادةُ عِلْما لَما أُصِيب فيلسوفُ الأدباء وأديبُ الفلاسفة (أبو حيان التوحيدي) بمرض بالاكتئاب.

أين السعادة إذنْ؟

وهل السعادة هي النجاح؟

ومَن هُم سعداء العالم؟

يفتح لنا الكاتب الأمريكي (ويلفيرد بيترسون) نافذة في قصْر السعادة عبْر كتابه (فن الحياة) فيقول: "ننشأ وفي اعتقادنا أنّ السعادة في الأخْذ، ثمَّ نكتشف أنّها في العطاء"، وهو ما أكّد عليه صاحبُ الظلال(سيد قطب) فقال: "عندما نعيش لذواتنا فحسْب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة؛ إذْ تبدأ مِن مولدنا وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود، أمّا عندما نعيش لغيْرنا فإنّ

الحياةَ تبدو طويلة عميقة، فتبدأ من حيث بدأَت الإنسانية وتمتدّ بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض".

ونُكْمِل التجوال في القصر باحثين عن لَبنات السعادة وفسَيْفسائها؛ فنعثُر علىٰ غُرفة للقَناعة، وردْهة للأمان، وصالة للهوايات، وأريكة للتفاؤل، وطاولة للحُلْم، كما نكتشف سريرا للنسيان، ومَسبحا للتفكير الإيجابي، ومكْتبة للأمَل، ومُصلًّىٰ للسّكينة، وبُستانا لِلحُبّ، أمَّا الخبر اليقين فهي جداريّة مُذَهَّبَة علىٰ باب القصر تقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (1).

أمّا مفاتيح القصر وعتباته فتكمن في تقليل الحاجات وكبح الشهوات، وفي زيادة الإمكانات وتعظيم القدرات، وفي العيْش في الحاضر والإمساك بتلابيبه، وفي التركيز علىٰ الجانب المُشرِق ونصف الكأس الممتلئ، وفي تعداد النِّعم لا إحصاء المتاعِب، وفي مصادَقة الزمن لا مصارعته، وفي إسباغ الحُبِّ علىٰ المكارِه، وفي إيقاظ الحواس وتنبيه المشاعر، وفي التحلِّي بالصبر الذي لا يَخلو منه خلق قويم ولا سلوك رشيد، وأخيرا في ألّا ترتدي إلا جلبابك وتكون أنتَ لا سواك.

ولا مانع هنا مِن إطلالة سريعة علىٰ كتاب(غزو السعادة)، الذي يرىٰ فيه الفيلسوف الإنجليزي(برتراند رَسِل)بأنَّ سرّ السعادة يكمن في توسيع

(1) النحل 97، ذكَر بعضُ المفسِّرين أنَّ الحياةَ الطيبة هي السعادة.

المرء لاهتماماته وفي جعْل ردود أفعاله تجاه الأشخاص والأشياء أكثر ما تكون ودًّا وأقلّ ما تكون عدائية، ويَجزِم بأنَّ الإيمان بقضية ما هو مصدر سعادة بالنسبة إلىٰ عدد كبير من الناس، ويُعرِّف الإنسان السعيد بأنه ذاك الشخص الذي لا تكون شخصيته منقسِمة علىٰ ذاتها وليست في خصام مع العالَم، ثمَّ يُصنِّف السعادةَ إلىٰ نوعيْن: النوع الأول ويسمِّيه السعادة البسيطة أو الحيوانية أو الانفعالية ويرىٰ أنه في متناوَل كلِّ كائن بشري، أما النوع الثاني الذي يُطلق عليه السعادة المرهَفة أو الروحيّة أو الفكرية فليس متاحا إلا لمَن يتقنون القراءة.

ولأنّ النِّسبيّة هي الأساس في هذه الحياة الدنيا بينما المُطلَق محجوز للحياة الباقية في الآخرة، فلا يُظنَنَّ أحدٌ أنّ في الدنيا راحة مطلَقة أو صحة مطلَقة أو لذّة مطلَقة أو سعادة مطلَقة، بل ربما كانت السعادة في الراحة بعد التعب والعطاء بعد الحرمان والحريّة بعد القيْد والصفاء بعد الكدر والفرح بعد الحزن والنجاح بعد الفشل والشفاء بعد المرض، وهذا ما عناه(جين أوسال)حين قال: "الإنسان الذي يَطمع أن يكون سعيدا طوال حياته ليس إلَّا مجنونا"، وبهذا فإنَّ علينا أن نهنأ بالسعادة حال قدومها ونعيشها بكلِّ كياننا، كما علينا حين تغادرنا أن نَأمل فيها ونَستعدّ لها ونَتجهّز لقدومها، فكثيرا ما كانت لحظات الانتظار والترقّب والشوق أسعد وأمتع مِن لحظات الوصول والظفر والبلوغ.

أمّا عن النّجاح والسعادة؛ فهما مَعْنيان مُختلِفان وإنْ كان بينهما صِلة نسَبٍ ووشيجة رحِم، فالنجاح فِعْلٌ وإنجاز بينما السعادة شعور[1] وإحساس، والنّجاح يلزمه الذكاء بينما ينتفي ذلك في السعادة فلربّما كان الحمقىٰ والأغبياء والمجانين أكثر السعداء، وإذا جاز أن نقول بأنَّ كلَّ السعداء ركّابٌ في قطار النجاح فليس شرطا أنْ يسعَد كلُّ الناجحين. زِدْ علىٰ ذلك إلىٰ أنّ منصّة الإطلاق ومحطة التوليد للسعادة ليستْ عاملا خارجيا كما في النجاح؛ بل هي قابعةٌ في نفس تقيّة راضية مطمئِنّة، وكامنةٌ في قلبٍ نقيٍّ سليم، ومُحلِّقةٌ في روحٍ تحوم حول بارئها وفاطرها، بما يعني أنّها مُنتَجٌ روحيٌّ عُلويّ... ويُلخِّص الفرق بينهما (ديل كارنيجي) فيقول: "النّجاح هو أن تحصل علىٰ ما تريده، أمّا السعادة فهي أنْ ترغب في ما حصلْتَ عليه"، بمعنىٰ أنَّ السعادة ليست في إشباع الغرائز بل في إشباع الروح التي هي وعاء السعادة وماعونها.

وعن سعداء العالَم تُحدِّثنا خريطةُ السعادة العالَمية؛ فتُهدِي وسامَ السعادة مِن الدرجة الأولىٰ للشعب السويسري ورفيقه الدانماركي، وتأتي دولة الإمارات وسَلطنة عمان في صدارة البَهجة والغِبْطَة العربية، بينما تنفرد دولة (بوروندي) بلقَب الأشْقىٰ والأَبْأس والأَتْعس عالميا إلىٰ الحدّ

(1) عن فلسفته في السعادة يقول عالِم النفس (وليم جيمس): ليس في استطاعتنا أن نغير شيئا من أحاسيسنا ولكننا نستطيع أن نغيِّر أفعالنا، فإذا غيَّرنا أفعالنا تغيَّرتْ أحاسيسُنا تبعا لذلك، ومِن ثَمَّ فإنَّ الطريق إلىٰ السعادة إذا افتقَدها الإنسان هو أن يتصرَّف كما لو كان سعيدا.

الذي لا تُجدي معه الأطنان مِن أطعمة السعادة-إنْ وُجدت- والتي يَحصرها البعض في الفراولة والشوكولاتة والكرز والعسل.

ولأنّ سعادتُنا هي أثْمن مطلوب وأغْلىٰ هدف، ولأنّها لا تأتينا علىٰ طبق من فضة أو إناء مِن ذهب، فعلينا أن نثْتويها ونسعىٰ إليها ونبذل أسبابَها؛ وذلك بإصلاح ذواتنا، وخَيْرِيَّتنا لغيْرِنا، ولزوم عتبات ربّنا؛ علىٰ أنَّ الأجْمل مِن حيازتها؛ هو اقتسامها ومشاركتها[1] مع الآخرين، لننعمَ ببركة العطاء وجزيل الثواب.

وبينما تتعدَّد الحيواتُ بين دُنيويّة فانية، وبَرْزخيّة عابِرة، وأُخْروِيّة باقية؛ فإن قانونَ السعادة لتلك الحيوات الثلاث واحدٌ لا ثاني له...

فمتىٰ كان للشخص بصمات ثلاثة!

ومتىٰ كان للباب مفاتيحٌ ثلاثة!

ومتىٰ امتلأ الجوفُ بأفئدة ثلاثة!

ومع أنَّ مفتاحُ السعادة الدنيويّة هو ذاته مفتاح السعادة الأُخرَويّة، فإنَّ الفارق بين السعادتيْن كفارق الثَّرىٰ من الثُريّا والتِّبر مِن التراب، بل إننا نتجاوز إنْ حاولنا وصْف شعور السّعادة في الآخرة، لأنها ككُلّ نعيم أُخْرَويّ يعجز اللسان عن وصفه ويكلُّ العقل عن تخيّله.

---

(1) في هذا قِيل أنَّ السعادةَ كالقُبلة لا نظفر بها إلا بالمشارَكة.

وقد أوْجَز وأعْجَز الأديب الألْمعيّ (مصطفىٰ صادق الرافعي) حين قال: "السعادة هي طفولة القلب"، بينما أفاض الطبيبُ الأديب الفيلسوف (مصطفىٰ محمود) حين قال: "السّعادة هي حالة صُلح بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والآخَرين، وبين الإنسان والله"... بما يعني أنّها فنّ التوازن في الحياة.

# 3- انْفخ الرّوحَ في وقتِك الميت

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾

[فاطر: 22]

لعلّنا جميعا نعرف البحرَ الميت؛ الذي يَفصل بين الأردن وفلسطين، ويُعدّ أخفض جسم مائي علىٰ الأرض حيث يَصل انخفاضه إلىٰ حوالي 400متر(1312قدم) عن سطح البحر، ويُلقَّب ببحيرة لوط التي قامَتْ علىٰ أنقاض القُرىٰ الآثِمة المَعروفة بالمُؤتفِكات، ويُعزَىٰ موتُه إلىٰ مائِه الأُجاج وملوحته الشديدة التي حالتْ دون تواجُد الكائنات البحريّة به... ولكن ثَمَّة ميت آخَر وجب علينا

معرفته؛ لأنّه وثيقُ الصّلة بالتقدّم والإنجاز، وعميق الارتباط بالحياة والحضارة التي قال عنها(العقّاد): "إنَّما تُقاس حضارةُ الأمم بمدىٰ إحساسها بالزمن".

فإذا أَردْتَ أنْ تحكُم علىٰ رُقيّ أُمّة تَمَعَّنْ في إدارتها لأوقاتها؛ إذْ إنَّ الأُممَ الناضجة تدبّ الحياةُ في ساعاتها[1] ودقائقها وثوانيها فتعْمُرها بكل نافع ومفيد؛ أمّا الأُمم التافهة فتَلبس الساعات كالأساور، وتُعلِّقها كالأشباح علىٰ الحوائط، ثمّ تنفِق أوقاتَها هدرا ولا تعرف لها قدْرا، ويَصدق فيها عندئذٍ قولُ القائل :

"هناك مَن ماتوا بقَتْل زمانِهم

ضَلّوا ولِلعُمْر الكريمِ أساؤوا"

كثيرا ما قرأْنا وكرّرْنا (حتّىٰ سئِمنا) أنَّ الوقتَ مِن ذهَب، وأنّه كالسّيف إن لم تقطعْه قطعَك، وأنّه كاللصّ إن لم تقبضْ عليه سرقَك، وأنه مَطيّة الإنسان ومَركبه، وأنّه الحياة، وأنّه روح الكون وعمود البناء الحضاري الذي يرتكز علىٰ أعمدة أربعة: الإنسان، الوقت، المادّة الخام، والفكرة الحضارية...

---

(1) قرأتُ أنَّ أصحابَ أندية القمار-أعاذكم الله-يَحتالون كإبليس؛ فيحرصون علىٰ عدم وجود ساعات في صالات اللعب، حرصا منهم علىٰ استمرار المُقامرين في اللعب حتىٰ يَخسروا كلَّ ما يملكون أو يَغلبهم النوم علىٰ موائد القمار!

وكلّها لعَمري مقولات صادقة صحيحة؛ فالوقت -الذي يقوم المكتب الدولي لتحديد الساعة (BIH) ومقرّه باريس بضبطه وتدقيقه مِن خلال اتصاله الدائم مع أبراج المراقبة الفلكية في سائر الدول-هو أداة التواصل مع الطبيعة بواقعها المادِّي ووسيلة التنسيق مع البشر عبْر نشاطاتهم المختلفة، وبهذا فإنَّ الوقتَ الذي نتساوىٰ في ملكيته بواقع 1440 دقيقة أو 24 ساعة يوميا ويُسمّونه بالذهب الشفّاف[1] هو في الواقع أغلىٰ مِن الذهب؛ إذْ يُشترىٰ الذهبُ ولا يُشترىٰ الوقت، ويَذهب الذهبُ ويعود بينما الوقت يموت ولا قيامة له، ويُمكننا باستغلال للوقت الحصول علىٰ الذهب ولكنَّ ذهبَ قارون وخزائنه كلّها لَتَعجز عن الإتيان بثانية واحدة...

فهل طبَّقْنا ما قرأْنا واستفدْنا بما كرّرنا، أمْ صارتْ أوقاتُنا مِن حطبٍ لا مِن ذهب، فأَشْعلْنا بها نيرانَ الغفلة وأَنْضجْنا عليها لحمَ الفراغ؟!

أَلَا ما أكْثر الأوقات التي تتفلَّت مِن ثقوب أيّامنا وشقوق أزماننا؛ وذلك في انتظار قضاء خِدمة في مصلحة حكومية، وفي انتظار طبيب يَمنّ علينا باستشارة طبِّية، وفي انتظار فرَج لا يأتي في إشارة مرورية[2]، وفي أسفار تلتهم العُمْرَ بلا رَوِيّة...ناهيك عما يُهدَر مِن وقت في النوم والأكل

(1) هذا علىٰ اعتبار أنَّ التِّبر هو الذهب الأصفر، والبترول هو الذهب الأسود، والمَزارع هي الذهب الأخضر.

(2) أوْرد الخبير الإداري (برايان تريسي)، أن مالك السيارة يقضي في المتوسط خلف المقود ما بين 500-1000 ساعة سنويا، ويَقترح تحويل هذا الوقت الميت إلىٰ وقت للتعلّم السّماعيّ.

والشُّرب وأمام التلفاز وفي الحمَّام، حتىٰ تراجَع معدّل إنتاج الفرد اليومي إلىٰ ما دون الساعة والساعتيْن!

وكلّ هذه أوقاتٌ ميتة، وساعاتٌ مِن أعمارنا فانية، وصفحاتٌ في كتابنا بالية... تَمُرُّ كالسَّحاب وتَجري كالرّيح و تُسرِع كالبرْق؛ فلا خيرَ فيها حصّلنا، ولا منفعةً منها غنِمنا، ولا مُتعةً بها شعرنا؛ حتىٰ كُنَّا بحقٍّ أولئك النّفر الذين عناهم (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه حين قال:

"إني لأكره أنْ أرىٰ أحدَكم سَبَهْلَلًا، لا في عملِ دنيا ولا في عملِ آخرة"

وتَنبع قيمةُ الوقت ونفاسته؛ مِن كوْنه لا يُباع ولا يُبتاع، وبحسبانه أغْلىٰ مِن الدرهم والدينار والدولار، وباعتبار ما أَسبغ عليه الله مِن قيمة حين أَقسم-والعظيمُ لا يُقسِم إلّا بعظيم- في القرآن بأجزائه وظواهِره كالفجر والصبح والضحىٰ والعصر والليل والنهار، وهو ما فقهه أصحابُ الأهداف الذين يَعتصرون الزمن ولا يَملِكون ترف الفراغ ولا يَسمحون بموت الأوقات، فكانوا علىٰ أهبة الاستعداد لشراء أعمار فوق أعمارهم واقتراض ساعات إلىٰ أوقاتهم.

أمّا هذا القتْل العمْد الذي نمارسه صباح مساء، وتلك الجريمة النكراء التي نرتكبها ليل نهار، فقد آن أن نوليها ظهورَنا ونغادر مرافئَها، فنمجّها مَجّ التفالة ونلفظها لفظَ النّواة؛ ولن يكون ذلك إلا إذا استفاقَتِ الحكومات مِن غفوتها ونهضَتْ مِن سَكْرتها، فشرَعتْ مِن فورها في تفعيل الخدمات الالكترونية وسَنّ التشريعات القانونية التي تختصِر المُطوَّل

وتُيسِّر العسير وتوفِّر الوقت، إضافة إلىٰ تعزيز قيمة الوقت في عقول الناشئة مِن خلال محاضن التعليم ووسائل الإعلام، علىٰ أمل أن يَتحلّىٰ الأفرادُ بثقافة العدّائِين والسّباحِين الذِين يَعرفون للثانية قيمتَها، فيعزفون علىٰ أوتارها نغما شجيًّا للشُّهرة والنجاح... تلك الشُّهرة وذلك النَّجاح اللَّذَيْن خطّ سبيلَهما (أوريزون ماردن) في كتابه (سبيلك إلىٰ الشُّهرة والنّجاح)، فقال: "كلُّ ناجح لديه نوع مِن الشِّباك، يلتقط بها فضلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات التي يكنسها النّاس مع مهمَلات الحياة، ليَستعملَ كلَّ هذه الأوقات ويستفيدَ منها، فيأتي بنتائج باهرة يَدهَش لها الذين لم يفطنوا إلىٰ هذا السرّ العظيم الشأن".

كثيرون هم مَن يَتوقون إلىٰ العُلا، ولكنْ قلِيلِين هُم أولئك الذين يَنفضون الغبار عن ساعاتهم ويزيحون الأكفان مِن لحود أوقاتهم، فيملؤوها بذكْر واستغفار، أو بقراءة في كِتاب، أو بتفَكُّر في المَنَّان، أو باتّصالٍ يُقرِّب البعيد ويَصل الأرحام، أو بتدوين خاطرة قد تثقّل الميزان...ومَثَلهم في ذلك شِرْوَىٰ الطيور التي بنَتْ أعشاشَها الجميلة مِن حطامٍ يابسٍ رثّ، وشِرْوَىٰ النّمل الذي شيّد مَسكنَه الدّقيق مِن ذرّات تراب تدوسها الأقدام.

ويأتي علىٰ رأس هؤلاء القليلين الذين يَضنّون بأوقاتهم، ما يَروِيه شيخُ الحنابلة وصاحب كتاب الفنون –علي بن عقيل– عن تجربته الفريدة في استغلال الوقت الميّت فيقول: "إني لأختار سَفَّ الكعك وتَحسِّيه بالماء

علىٰ الخبز؛ لأجْل ما بينهما مِن تفَاوُت المضْغ؛ توَفُّرًا علىٰ مُطالَعةٍ أو تسطيرِ فائدة"، وبهذا كان فريدَ فنِّه وإمام عصره كما وصفه تلميذه (ابن الجوزي)، وكان كتابه (الفنون) أكبر ما صُنِّف في الدنيا علىٰ حد قول الحافظ (الذهبيّ) في تاريخه، إذْ جاء في ثمانين مجلّدا.

كما يَروِي (ابن الجوزي) تجربته اللطيفة في استثمار وقته وصيانته من التلف فيقول: "لمَّا كرِهْتُ إطالة الجالسين عندي وكثرة الزائرين لي ممّا لم يكن لي بدّ مِن استقبالهم مخافة ذهاب الألفة أو حضور النّفرة والوحشة، فقد أعْددتُ لأوقات مجيئهم أعمالا لكيْلا يمضي زماني فارغا، فكنتُ أقطع فيها الكاغد وأَبري الأقلام وأَحزم الدفاتر".

بل وأكثر من ذلك نقول؛ بأن تلك الأوقاتُ الميّتة وفتاتُ الدقائق الضائعة قد تكون هي قدّاحة الإبداع وشرارة الإلهام؛ فالكاتبة البريطانية (أجاثا كريستي) صاحبة المليار نسخة في عالم نشر الروايات البوليسية أنْجَزتْ بِذْرة كتاباتها وباكورة أعمالها حين رقدت مريضة في فراشها، والإمام (السرخسيّ) أَمْلَىٰ كتابه (المبسوط) في الفقه الحنفي ذو الثلاثين جزءا من وراء القضبان، كما أنَّ تفسير (الظلال) لمؤلِّفه الشهيد (سيد قطب) قد وُلِد في محْبَسه، ورسائل النّور المِئة والثلاثين لبديع الزمان[1] (النورسي) كُتِبَتْ جلُّها في منفاه، وما سطعتْ قوانين الحركة والجاذبية لنيوتن إلا في لحظة تأمّل في ظلِّ الأشجار، ولا انبلج قانونُ الطفو

(1) لقب منحَه العلماءُ للشيخ التركي الكردي (سعيد النورسي).

لأرخميدس إلّا وهو يُفكّر ويَستحّم... بما يعني أنَّ النجاح ليس إلّا وقت مُستثمَر وأنَّ الفشل ليس سوىٰ وقت ضائع.

يقينًا لا يُحيي الموتىٰ إلّا واهبُ الحياة ولا يَسلب الحياةَ إلا خالقُ الموت، ولكنّنا بالقراءة قادرون علىٰ إحياء الوقت الميت وبعثه مِن مرقده، خاصة بعد أن تخطّتْ أغراضها-أي القراءة- حدود المتعة والثقافة إلىٰ غرض العلاج فيما بات يُعرف بالببلوثيرابيا أو العلاج بالقراءة حتىٰ قِيل أنّ المكتبة طبّ النفوس، وهو ما يُعطينا الحقّ في التساؤل عن المانع من وجود مكتبات مُصَغَّرة في عيادات الأطباء ومكاتب المحاماة، وفي جنَبات الحدائق والمطارات والطائرات والقطارات والمصالح الحكومية، وحتىٰ في سيارات الأجرة وفي أروقة السجون؟

وعن المانع مِن أن نُحدِث ثوْرة في سُوق طباعة كتُب الجيب الصغيرة لنُنعش بها ذاكرة أوقاتنا البليدة الخاملة، علىٰ أمل بأن تلد أيّامُنا أمثال (غلادستون) الذي ظلّ طوال أيّامه يحمِل كتيِّبا في جيبه لئلّا تتسرَّب من أوقاته دقيقةُ فراغ دون الاستفادة منها، وأمثال (دافيد لفينجستون) الذي واظب علىٰ اصطحاب كتُبه إبّان عمله بمصنع الغزل ليختلسَ النظر إلىٰ صفحاتها بين الفينة والأخرىٰ وينال بهذا الشغف شهادة في الجيولوجيا وأُخرىٰ في الطبّ ويُصبح مِن مشاهير الرحّالة الذي يرجع إليه الفضل في اكتشاف منابع نهر النيل؟

وعن المانع من استلهام التجربة الأمريكية في عام 1943م، حين طَبَع مَجلِس الكتُب بالتعاون مع الجيش الأمريكي ما يقارب المِئة والعشرين مليونا مِن كتُب الجيب، لتوزيعها علىٰ الجنود المحارِبين المنتشِرين في قارات العالم؟

خلاصة القول أنّه إذا كان مَن يَطرح دولاراتِه في الهواء مجنون، فإنَّ الأَجنَّ منه هو مَن يُبعثر دقائقه ذات اليمين وذات الشمال فيَقتلها كأَعْدَىٰ الأعداء ويرجمها كإبليس الملعون، وهو ما عناه (الجيلاني) رحمه الله حين قال: "كلُّ وقْتٍ ليس فيه أدب فهو مقْت"...علىٰ اعتبار أنّ الزمن للعاقل؛ هو الخيط الذي يغزل منه الثياب، والحجارة التي يُشيَّد بها البناء، والبذور التي تَنبُت منها الثمار؛ بل لا نبالغ إنْ قُلنا أنَّه جواهرُه التي يحميها ووطنه الذي يفديه ودينه الذي يعضّ عليه بالنواجذ؛ ولله درّ الشَّاعر (أبو الوليد الباجي) إذْ يقول:

"إذا كنتُ أعلَم عِلمًا يقينا

بأنَّ جميع حياتي كساعَة

فلِمَ لا أكون بها ضنينا

وأَجْعلُها في صلاحٍ وطاعة"

# 4- لا تكُنْ عُرْقوبا

"وعْدٌ بلا وفاء عداوةٌ بلا سبب"

**مثل عربي**

قليلٌ مِنَّا مَن يَعرف (عُرقوب) مع أنّ أكثرَنا عراقيب[1]، ولا غرابة في ذلك؛ فنحن نعلم عن الكون الفسيح -بما فيه مِن شمسٍ وقمرٍ وأرضٍ وسماءٍ ونباتٍ وحيوانٍ - أكثر ممَّا نعلم عن أبداننا التي تحملنا وعن أنفسنا المستقِرّة في أعماقنا وعن أرواحنا التي تضئ فتيلَنا، وربَّما هذا هو ما يستحقّ وصف الجهل[2] باقتدار، إذْ إنّ معرفة

---

(1) جمْع عُرقوب.

(2) نذكر هنا كتاب (الإنسان ذلك المجهول) لمؤلِّفه الجراح الفرنسي (الكسيس كاريل)والحاصل علىٰ جائزة نوبل في الطبّ عام 1912م.

الـنَّفس هـي بوابـة المعـارف ومفتـاح العلـوم ومنبـع الحكمـة وطريـق الحقيقة...وفي المأثور: "مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه".

والعُرقـوب المقـصود هنا لـيس هـو المـصطلح اللغـوي الـذي أَوْردَتْه المعـاجمُ بمعنـي الحيلـة والخديعـة، أو بمعنىٰ الـوَتر الغلـيظ فـوق كعْـب القـدَم، أو بمعنىٰ الطريـق الـضيِّق في جبـل، أو بمعنىٰ الانحنـاء في وادٍ، أو بمعنىٰ مـا يتوسَّـط رِجْـلَ الدابَّة، بـل المقـصود هـو ذلـك الجـاهليّ سـليل العمالقة الذي ضُرب به المَثل فقِيل: "لا أَخْلَف مِن عُرقـوب"، وهـو ذاتـه الذي أَتىٰ ذكره علىٰ لسان الشاعر المخضرَم(كعبُ بن زهير) فقال:

"كانـتْ مواعيـدُ عُرقـوبٍ لهـا مـثَلا

ومـــا مواعيـــدُها إلا الأباطيـــلُ

فلـيس تُنجـزُ ميعـادا إذا وعَـدَتْ

إلا كمـا يُمـسكُ المـاءَ الغرابيـلُ"

ويُروَىٰ أنَّ عُرقوبَنا هـذا كـان رجـلا ميسورا وصـاحب نخـل وبـستان، ولمّا أتاه مُحتاجٌ يسأله العوْن والغوث، وعده بأنْ يُعطيه ثمارَ النَّخلة حين تُثمر، فلمّا أبْلَحتْ قال دعْها حتىٰ تُرطِب، فلمّا أَرْطَبَتْ قال دعْها حتىٰ تُتْمر، فلما أتْمرتْ سَرَىٰ إليها عُرقوبٌ مِن الليل فجَدَّها أي قطَعها ولم يُعطِ المُحتاجَ مِنها شيئًا!

والواقع أنّ قصّةَ عرقوب قصّةٌ قديمة حديثة؛ تَحكي ما يخرِم المروءة مِن خُلف الوعْد الذي عمَّ وطمَّ، حتىٰ صار ساذجا حالما غافلا ذاك الذي ينتهج صدقَ الوعْد وينتظره خُلقا ودَيْدَنا مِن البشر في تعاملاتهم اليومية سواء في البيْت أو السّوق أو العمل أو السياسة، وحتىٰ أصبح المَثَل الشَّعبي الذي يقول بأنَّ "المرءَ يُربَط مِن لسانه" محلّ شكٍّ وقيْد نظَر، بينما تبقىٰ وتتأصّل الحكمةُ القائلة بأنَّ "دقّة المواعيد مِن أدَب الملوك"...وها قد مضىٰ زمن الملوك.

وهي أيضا قصة حزينة تُدمِع العينَ وتُوجِف القلبَ وتُوجِب النفسَ؛ لأنها تُهدي الحياة بذورا لاهتزاز الثقة وعدم الأمان، وجذورا لضياع الأوقات والأعمار، ونَبْتا للخِلاف والخصام والشِّقاق والعَداء...لِتصبح عندها –الحياة– عبَثا لا ضابط فيها، وهشَّةً لا رابط لها، ولُؤْما لا كِرام بها؛ إذْ إنَّ الكِرامَ بِحفظِ العهدِ تُمتَحَن علىٰ حدّ تعبير الكاتب(ثروت أباظة)، ولهذا قالوا: الخُلْف أَلأَمُ مِن البُخل؛ لأنَّ مَن لم يفعل المعروف لزمه ذَمُّ اللوم وحده، أمّا مَن وعَد وأَخْلف فقد لزمه ثلاثُ مَذمَّات: ذمّ اللوم، وذمّ الخُلف، وذمّ الكذِب.

وإذا كان خُلْف الوعْد خُلُق ذميم وفِعل قبيح في حقِّ الخلْق، فإنّه في حقِّ الخالق أقبَح وأشنَع، فقد أخَذ الله سبحانه وتعالىٰ الوعْد والعهْد علىٰ البشر جميعهم وهُم في صُلب أبيهم آدم بألّا يَعبدوا إلّا الله ولا يُشركوا معه غيره، وها أنتَ ترىٰ بأمِّ عينك وسويداء فؤادك أنّ نصف الإنْس لا يَدينون

بدين سماوي، بل يَتقلَّبون في وحْل النِّحَل والمِلل الأرضيّة التي لا تُوافق الفِطرة ولا تَفي بالوعْد مع الخالق الرازق المُحيي المُمِيت.

وقد مَجَّد القرآنُ العظيم صِدق الوعْد؛ فوصَف اللهُ العليُّ القديرُ ذاتَه في سورة الرعد قائلا: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، ومَدَح به سيدَنا اسماعيل في سورة مريم فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

وجَرَّمتِ الأمثالُ خُلفَ الوعْد فقالتْ: "مَن وعَد وأخْلَف كمَن قتَل وأتْلَف"، كما ذمَّه المصطفىٰ -صلىٰ الله عليه وسلم- وعدَّه علامة علىٰ النّفاق العمَليّ في حديثٍ رواه البخاري فقال:

"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ".

ولكنْ...

هل ثمَّة أعذار أو مبرِّرات لخُلْف الوعد؟

نعم...

فمَعذورٌ مَنْ نَسِيَ وعْدَه إذْ رُفع عنه القلم، ومَعذورٌ مَن صادفه طارئ قاهر طالما أنَّ النيّة كانت مُبيَّتة ومعقودة علىٰ الوفاء؛ ولكنْ ليس معذورا مَنْ وعَد بما لا يقْدِر وبما لا يستطيع بحجَّة الإلحاح أو الحياء، فلا عيْب

أن تسبق اللا نَعَم، ولا مندوحة في أن تكون النَّعَم هي الجواب الأوْحد...وهو ما أَوْرده الشاعر حين قال:

"حَسَنٌ قولُ (نَعَم) بعد (لا) وقبيحٌ قول (لا) بعد (نَعَم)

وإذا قُلْتَ (نعم) فاصبر لها بنجازِ الوعْد إنَّ ا لخُلفَ ذَمّ"[1]

عندما يُقال أنَّ تحت خيمة العربي لا يُنكَثُ وعْد، وعندما يُروَىٰ عن (أكثم بن صيفي) الذي يُلقَّب بحكيم العرب قوله: "لَأن أموت عطَشا خيرٌ لي مِن أنْ أخْلف وعدا"، ينتابنا الهمُّ والغمُّ و نتساءل في دهشة وحيرة...أين ذهبَتْ تلك الثوابت، وكيف ولَّتْ تلك الشّمائل، ولماذا تَفلَّتتْ هذه المآثر؟!

(1) الشاعر الجاهلي الملقَّب بالمثقب العبدي نسبة إلىٰ بيت شعر قاله، وهو (العائذ بن محصن بن ثعلبة) الذي عاش في البحرين زمن الملك (عمرو بن هند) في الفترة(553-587م).

# 5- وعْيُك سلاحُك

"ما أتعسَ التاريخ؛ عليه أن
يتحمّـل نـزواتِ المـؤرِّخين على
الدوام"

**ألفريد ويتني جريسولد**

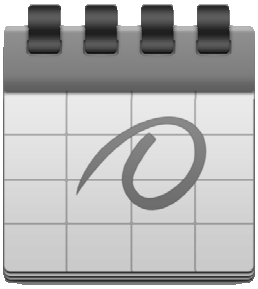

لن نُجاوزَ الحقيقة إذا عرَّفْنا التاريخَ بأنّـه روايـةٌ علـىٰ مـسرح الجغرافيـا، يَتشارك فيها كلُّ بني البشر كتابةً وتمثيلًا ومـشاهدةً، بُغيـة صـيانة الماضـي مِـن الغرق في بحر النسيان؛ وهـو مـا وصَـفه الأكـاديميون بأنَّـه-أي التـاريخ- ذلـك الفـرع مِـن المعرفـة الإنـسانيّة الـذي يَـدرس التطـوّر البـشري في جوانبـه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ويَستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها، ويُعتبَر المؤرِّخ

الإغريقي (هيرودوت) – الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد–أقدم مصدر مكتوب للتاريخ الإنسانيّ، مِمَّا أَهَّلَه لحيازة لقب(أبو التاريخ)، وهذا لا يعني أنّ الحياة كانتْ بلا تاريخ قبلَه، فإرْث البشريّة مِن التاريخ الشفهيّ أضعاف إرْثها المكتوب، وما اندثر في ضريح النسيان أضعاف أضعاف ما جادتْ به الشِّفاه وتَرْثَرتْ به الأقلام[1]، وهو ما يُعلِي مِن قيمة المَسطور ويُسبغ علىٰ القلم مكانة حضارية راقية ويُؤكّد علىٰ القاعدة التي تقول: "ما كُتِب قَرّ وما قِيل فَرّ"، كما يجرّم في الوقت ذاته أشد التجريم حرق الذاكرة التاريخية الإسلامية علىٰ يد التتار في بغداد وعلىٰ يد الكنيسة في غرناطة، وحرق غيرها مِن الكتب والمكتبات التي كانت وقودا للنار مِن قِبل الديكتاتوريات السياسية والدينية والثقافية علىٰ مرّ العصور والأزمان.

وتأتي قيمةُ التاريخ من كوْنِه ذاكرة الشعوب وديوان الأيام، وبحسبانه الصندوق الأسود لسفينة الحياة، وباعتباره جسر العبور للأجيال تلو الأجيال، وإنْ شئتَ فقُل: هو الشفرة الوراثيّة أو البصْمة للأحداث، الخضراء وهو ما عبّر عنه رائد علم الاجتماع وابن تونس (ابن خلدون)

(1) يُصنِّف الخبيرُ الإعلامي الكندي(مارشال ماكلوهان) التاريخ الإنساني حسب وسيلة التواصل الأبرز المتاحة في كل عصر إلىٰ أربعة مراحل: المرحلة الشفوية التي استمرت حتىٰ القرن الخامس ق.م، ومرحلة الكتابة التي امتدت حتىٰ مطلع القرن السادس عشر، ومرحلة الطباعة التي انتهت ببزوغ القرن العشرين، ومرحلة الوسائل الالكترونية القائمة الآن.

في مُقدّمته التي قعّد فيها لقوانين الحركة التاريخية فقال: "فنّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية، إذْ يُوقفنا علىٰ أحوال الماضِين مِن الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتىٰ تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمَن يَرومه في أحوال الدين والدنيا"، ثمّ أكّد علىٰ ذلك المؤرِّخُ العراقيّ الموصليّ(عماد الدين خليل)حين قال: "اكتشافُ قدرات أُمّة مِن الأمم، وتَمكينها مِن المعاصَرة والحركة نحو المستقبل، والاستجابة للتحدّيات والتفوّق عليها، لا يَتحقّق إلّا بالرجوع إلىٰ التاريخ".

الفارق بين الإنسان وغيره من الكائنات-ضمن فروق أخرىٰ عديدة- أنَّه ذو تاريخ تراكمي يبدأ بأبو البشر وينتهي طرفُه إليه؛ ففي الوقت الذي تبدأ فيه الكائنات غير البشريّة دوْما مِن الذاكرة الصِّفريّة، فتُصمّم الطيورُ أوكارَها والعناكبُ شِباكَها والدّجاجاتُ قنَّها بنفس الطريقة الفِطْريّة المُتَّبعة منذ آلاف السنين بلا تطوُّر يُذكَر أو تغيير يُلحَظ، فإنّ الإنسانَ يبدأ مِن حيث انتهىٰ سابقوه، مُستلْهِمًا تاريخَهم ومُسْتقْرِئا تجاربَهم، لا للمتعة والتسلية أو للمعرفة المُجَرَّدة، بل ليُسهِم في تشكيل عقله، وصناعة وجدانه، وصياغة مخزونه الحضاري، وتطوير مُكوِّنه الثقافي، ومن هنا تأتي قيمة المؤرِّخ وأهمية التدوين التاريخي؛ فإذا كانت التراجم هي سِيَر غَيْرِيّة لأفراد فإنّ التاريخ سِيَر غَيْرِيّة لأمم وجماعات، وإذا كانت الترجمة

لشخص هي إحياء له فإنَّ تدوين التاريخ هو بعث وإحياء لأمم وحضارات.

وعليه فلابدّ أن يكون التاريخ بين أيدينا في صِدق أبي ذرّ[1] وعدْل الفاروق وإنصاف عِياض[2]؛ فينقل الحدَث بأمانة ونزاهة، ويُعطي لكلّ شخصية مالها وما عليها، ويُفسّره بمِهنيّة وحِرفيّة، مُتحلِّيا في ذلك بحياديّة لا تحِيد وبموضوعيّة لا تزيغ وبكاميرا لا تكذب، مع تسليمنا التامّ بأنَّ عِلم التاريخ عِلم مُقارَبة لا مُطابَقة وأنَّ سبر أغوار التاريخ وفهم وقائعه وتفنيد أحداثه ليس باليسير ولا البسيط، وإنْ كانت تكنولوجيا التدوين الجديدة المَدعومة بالصوت والصورة يمكن أن توفِّر توثيقا أفضل ممَّا قبل وترتفع بمعدّل المِصداقية إلىٰ مستويات أعلىٰ ممَّا هي عليه الآن.

فبعد أن تَجرَّعْنا في دراستنا عبر مراحل التعليم المختلِفة تاريخًا يُمجِّد (قاسم أمين) باعتباره رائدا تحرُّريا في مجال الأسرة والمرأة عبْر كتابيْه(تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، ويَقْدح في عِرض(العُثمانيِّين)

---

(1) تَضرِب العربُ المثَل في الصِّدق بالصحابي الجليل (أبي ذر) فتقول: "أصْدق مِن أبي ذر الغفاري".

(2) القاضي والفقيه وصاحب المؤلّفات، والذي قيل فيه: (لولا عياض لما ذُكِر المغرب)/ ت544هـ

بوصفهم احتلالا بغيضا يُضاهي الإنجليز والرّومان، ويُخلِّد (عبد الناصر) كأيقونة للعروبة وبطلٍ لا يُهاب ويُقدِّسه كخاتمٍ للأنبياء[1] لا يَأتيه الباطل مِن خلفه ولا مِن الأمام، ويُشوه الأمازيغي الأندلسي (عباس بن فرناس) باعتباره مجرد مجنون أضاع عمره علىٰ إثر محاولة طيران بائسة فاشلة.

إذْ بنا اليوم نفيق بعد أنْ جاوزْنا الطوْق وتخطَّينا حدّ الوصاية وتنفَّسْنا عبير الثقافة، علىٰ قراءةٍ أُخرىٰ مغايِرة ومناقِضة...

تَرىٰ قاسم أمين ببّغاءً غرْبيًّا وقُطْبا علمانيًّا يهدف إلىٰ التحلُّل لا إلىٰ التحرُّر[2] وإلىٰ السفور لا إلىٰ العفاف، وتَعُدُّ العثمانيين لواءً منِيعا وحِصنا حصِينا في إقرار وحدة المسلمين وصوْن بَيْضتهم علىٰ مدار سبعة قرون، وتؤكِّد أنَّ عبد الناصر طوال ثمانية عشر عاما في الحكم كان ساحقا ماحقا للحريّات ومُغامرا أتَتْ علىٰ يديه الهزائمُ وحدانا وزرافات، وتُعيد إلىٰ عباس بن فرناس ريادته في عالم الطيران وأَلمعيَّته في علوم شتىٰ كالرياضيات والفلك والفلسفة وغيرها.

---

(1) هكذا رثاه الشاعر (نزار قباني) بقصيدة عنوانها ومطلعها: "قتلْناك يا آخر الأنبياء/ قتلْناك/ وليس جديدا علينا/ اغتيال الصحابة والأولياء".

(2) في معرض حديثه عن تحرير المرأة، يقول المفكّر ( محمد عمارة): "الإسلام هو الصانع الأول لتحرير النّساء، وفي الوقت الذي حرَّر الإسلام المرأة بالدِّين، فإنَّ الغربَ حرَّرها مِن الدِّين".

وبهذا صارتْ ذاكرتنا التاريخية مُشوَّشة؛ فأصابها الفصام، وأَضحتْ كبرنامج إلكتروني أعطَبه الفيروس، وكرأسٍ أصابتْها الحُمَّي والهذيان، بعدما غابت المعايير الكُلِّية الضابِطة لمدوّناتنا التاريخية، وبعدما جَرَتْ جريمة المسْخ والتدليس علىٰ إثر كتابة التاريخ بمنهاج ماديّ[1] لادينيّ أو تجاريّ انتهازيّ أو هَوائيّ مِزاجيّ، فأصبح فيها الضفدع أميرًا ذو تاجَيْن وأَضحىٰ الفرْخ المَنتوف جمَلًا بسنامَيْن وبات ناظِر مدرسة الخيانة أستاذًا في جامعة الصِّدق، ثمَّ جَرَّتْ تلك الكتابات في ذيولها الشَّتات والاستقطاب حين اعتمدَ هذا قراءةً للتاريخ، وصدّق ذاك علىٰ قراءةٍ أخرىٰ، فكان الصّدام والخلاف... وهو ما رصَده أحدُ أمناء السرِّ لتاريخنا المعاصر فقال: "تزويرُ التاريخ هو عنوانٌ لأكبر ما تعرَّض له المسلمون في التاريخ، وهي جريمة قديمة حديثة مُورِستْ ضدّهم منذ القرن الثاني الهجريّ"[2].

وفي هذا الصدد؛ نُوقِن أنَّ الكمال وقْفٌ لله سبحانه وتعالىٰ، فلا أصْدق مِن كتابه العظيم الذي حوَي بين دفَّتيْه أحسن القصص وأدقَّ التاريخ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[3].

---

(1) التفسير المادّي للتاريخ؛ هو مذهب يقوم علىٰ الجبرية، ويُنكر عظمة النفس وجلال الروح ومكانة المعنويات.

(2) الطبيب والمؤرّخ الإسلامي (راغب السّرجاني).

(3) فُصِّلت 42

ونَعلم أنّ كتابة التاريخ مِن موقِع الحدَث وزمانه تتَّسم بالحِدَّة والانفعال وتشُوبها الذاتيّة في التناول- فالمُعاصَرَة حجابٌ كما يُقال- أمّا كتابته خارج إطاره الزمني فتقترب مِن المَنْطِقيّة والعَقْلانيّة وتَخلو من التشنُّج والانحياز، وذلك لانتفاء شبهة التربُّح والمنفعة مِن هذا الطرف أو ذاك.

كما ندرك أنّ الحكومات تَلوِي عنق التاريخ، وتَشدّه مِن أنفِه ورموش عينيه لتُعيد تشكيلَه علىٰ هواها، وليبقىٰ تاريخا سُلطويا يُدنْدن حول قصور الملوك وضِياع الأمراء وعروش السلاطين، بينما يَعتسِف الواقعَ المُعاش ويُجافي الفِكر الحُرّ، وهو ما أكّده أحدُ رؤساء الحكومات العربية حين سأله الطبيب الأديب (يوسف إدريس) يوما: هل تحبّ قراءةَ الأدب أمْ التاريخ؟

فردّ عليه باستنكار: كيف نقرأ التاريخ ونحن الذين نصنعه؟!...

ومع ذلك يبقىٰ السؤال:

أين العِلَّة إذنْ؟

هل فيمَنْ يكتبون التاريخ؛ حين ركَّزوا علىٰ البعد السياسي وسَلَّطوا الضوء علىٰ بعض جوانبه السلبية وبقعه الرمادية، ثمّ أَهمَلوا عن عمْد أبعادا أخرىٰ شديدة النّصاعة في التشريع والاعتقاد والإنسانيّة والحضارة؟

أَمْ في غياب المنهج الأخلاقي في كتابة التاريخ؛ حين حضرت الحزبيّة والمَصلحيّة والمَذهبيّة التي تُفسد أيّ هواء نقيّ وتعكِّر كل ماء زلال، وحين أصبح التاريخ مجرد حكاية تحتمل الصدق والكذب ويَمتزج فيها الخيال بالواقع؟

أَمْ فينا نحن المساكين حين أَدْمَنّا الرّضاعة؛ فعكفنا علىٰ ثدي الأمّ في الرضاعة الطبيعية، وعلىٰ كتاب التاريخ في الرضاعة التعليمية، وعلىٰ أقوال الزعيم في الرضاعة السياسية؟!... مع أنَّ الرضاعة أثمرَتْ (أرنولد توينبي) الذي يُعَدُّ أشهر مؤرِّخي القرن العشرين، وذلك بعد أن حكَتْ له أمُّه تاريخ إنجلترا في طفولته، واعترَف بفضْلها قائلا:

"أَرْضَعتْني أُمِّي التاريخ".

لا خلاف علىٰ أنّ كلَّ حدَثٍ فيه الأبيض والأسود، وكلّ حقبة تاريخية لها وعليها، ولا جدال في أنَّ الميزان لا يَستقيم إلّا بالإنصاف الذي قلّله الإمام (مالك) فقال: "أقلّ ما في زماننا الإنصاف"، والذي عزّزَتْه الأمثال حين قالتْ: "الإنصاف عزيز"...ومِن الإنصاف في مجال التاريخ؛ أن ندَع التمجيد الذي يُعظِّم الرموز، ونُنَحِّي الانتقاص الذي يُحطِّم الرؤوس، فلكلِّ ميزان كفَّتان تَسَعان الطالحَ في إحداها والصالحَ في أخراها، رحمةً بعقول أبنائنا الغضّة وذاكرتهم النديّة، ولن يكون ذلك إلّا إذا توفّر المؤرِّخون علىٰ ما اشترطاه العلامة (السخاوي) والإمام

(السّبكي) مِن العِلم والعدالة والصدق والعِفّة والورَع، علىٰ اعتبار أنّ آفةَ الأخبار رواتُها وعلّةَ التاريخ مُؤرِّخوه.

وإذا كان هذا هو الحال مع تاريخنا المُفترَىٰ عليه مِن قِبَل غُزاة التاريخ وأذنابهم، فإنّ الحال ليس ببعيد عن تاريخ العالم، إذْ لا يَكتب التاريخَ إلّا السّادةُ المنتصِرون، وهو عيْن ما فعلَتْه أمريكا المُنتصِرة عبر تشويه ومحْو تاريخ سكانها الأصلِيّين مِن الهنود الحُمْر، وذلك حين استبدلَتْ شعبا بشعب وثقافة بثقافة وتاريخا بتاريخ.

# 6- كُنْ قُدوة ولا تكُنْ عِبْرة

"ستصنعك الأيام؛ إمَّا قدوة وإمَّا عبرة ... فاخترْ لنفسك مَن تكون؟!"

وليم شكسبير

تاريخ الأُمم والشعوب والأفراد واحةٌ غنّاء؛ نقطِف بها العِبْرة، ونتلمَّس فيها القدوة، ونحصد منها الحكْمة، كما نجني مِن رحيقها قبَسا للحاضر وزادا للمستقبل...فقد تُشبه الليلة البارحة، ولرُبّما يكرّر التاريخ نفسَه، وعندها نهرَع لبوابة التاريخ ونبعه الفيّاض فنروِي به الظمأ ونرشف منه نواجع الحلول.

وكَما للتاريخ صفحات ناصعة البياض قلّما تتكرر، فبه صفحات كَلَيْلٍ بهيم يَملؤها الظلم والقهْر والجبَروت ولِلأسف كثيرا ما تتكرّر؛ جَرْيًا علىٰ المثَل الروسيّ القائل: "لا شيء يتكرّر في الحياة سوىٰ أخطائنا"، وتحقيقا للفلسفة الهيجليَّة التي تقول: "يُعلِّمُنا التاريخ أنّ المرْءَ لا يتعلّم شيئا مِن التاريخ"، بمعنىٰ أنَّ العِبرَ كثيرة ولكنّ الاعتبارَ قليل، إذْ لا يَقع علىٰ العِبر ولا يَظفر بها إلّا كلّ ذي قلب واع وسمْع مُرهَف وعقل راجح وبصيرة نافذة.

فهذا (هتلر) تحت زعْم نقاء الجِنس الآريّ(الجرماني) ودناسة ما سِواه من الأنجلوساكسون والعرب والزنوج، وخرافة أَنْسنَة الإله[1]، ساق أُمّةً لحَتْفها، فهَلَك وأهْلَك معه الملايين مِن الأبرياء، ورسب بامتياز في الاختبار الذي يَقول: إذا أَردْتَ أن تعرف الرّجلَ فأَعْطِه سُلطة.

وذاك (تشاوتشيسكو) الذي ساس رومانيا لمدة خمسة عشر عاما بالحديد والدم والنّار، فكان الجزاء مِن جِنس العمل وكانت العقوبة بقدْر الجُرم، حيث أُعدِم رميًا بالرصاص أمام شاشات التلفاز.

وعلىٰ نهجِهما سار (فرديناند ماركوس) الذي أصابتْه لوْثةُ المال فوضع خزانة الفلبين في جيْبه وفرّ إلىٰ هاواي، فنال ما نال مِن الخِزي والعار، ومات طريدا في أقاصي البلاد.

---

(1) بمعنىٰ أنَّ الإنسانَ إلهُ الكوْن وسيِّده، وليس خليفةً لله الذي هو إله الكونِ وسيِّدُه علىٰ الحقيقة.

وغيْر ذلك كثيرٌ في مجالات الحياة المختلِفة مِن السياسة -التي وصفها (أنيس منصور) بأنها فنّ السفالة الأنيقة والكذب الرشيق- أو الاقتصاد أو الاجتماع أو غيرها، ويَستوي في ذلك العرَب مع العجَم والسُّود مع البِيض والسّلَف مع الخَلَف، طالما أنهم دخلوا في عداد مَن رضعوا حتىٰ الثَّمالة مِن معجم الاستبداد وإنجيل الطغيان الذي وضعه الإيطالي (ميكيافيللي) في بداية القرن السادس عشر عبْر كتابه (الأمير)، وطالما أنهم غفلوا عن الوعي التاريخي الذي يَتجاوز حدود المعرفة المُجرَّدة ويتخطَّىٰ حالة الانفعال الشعوري إلىٰ الحسّ الإدراكي الذي يُجسّد القدوة ويَستخلص العبرة ويَشحذ الإرادة ويُقوِّي ملكة النقد سعيا وراء السبيل القصْد والنهْج القويم، وطالما أنهم غيَّبوا عن عمْد وقصْد روحَ الزمان والمكان والإنسان فكانوا أعداء لأنفسهم قبل أن يكونوا أعداء لمُجتمعهم وعالَمهم، ولذا فقد أَنصفهم التاريخ أيَّما إنصاف حين سجَّلهم بحروف مِن ظلام وأَلحقَهم بذاك المأفون الذي بال في بئر زمزم بحجّة أنّه يَودّ دخول التاريخ ولو مِنْ بوابة اللعْن...

إذْ ما أَسهل أنْ تكون عِبرة وما أَشَقّ أنْ تكون قدوة، وما أَيْسر أنْ تكون مشهورا [1] وما أَصْعب أنْ تكون محبوبا، وما أَهْون أن تكون موجودا كرقم وما أَعْسر أن تكون حاضرا ذا أَثَر.

---

(1) الجمْع بين الشهرة والحُبّ مَطلب سامٍ، وهو ما حلم به (تولستوي) حين قال: "أريد أن يعرفني الجميع، وأن يحبني الجميع"، وهو ما رامه (بلزاك) أيضا حين قال: "هل تتحقق الرغبتان الكبيرتان اللتان أصبو إلىٰ تحقيقهما، وهما الشهرة وأن أكون محبوبا"...وجدير بالذكر أنّ ما يُطلق عليها الكاريزما هي اجتماع الحُبّ والشهرة.

والحقيقة أنّ أصحاب العِبَر ليْسوا إلّا عيِّنة مِن البَشر الذين رفَع اللهُ يدَه عن قلوبهم ونَحّاهم مِن حِماه، فلَجُّوا في طغيانهم وضلالاتهم يعمَهون، وصاروا أجْدر بالرّجْم مِن إبليس وأخْلَق بالاستعاذة مِن الشياطين، وكانتْ مصائرهم وسِيَرُهم البالية البائدة واضحة للعيان وجَلِيَّة لكل ذي لُبّ...ورغم هذا كلّه؛ نجِد بين أَظْهرِنا مَن يُعيدها سيرتَها الأولىٰ ويدور بعجلة الزمان كأعمىٰ يُسَاق لحتْفه أو مخبول يَحرق نفسَه...وهو ما يدعونا إلىٰ التساؤل المُغلَّف بالدهشة والتعجُّب؛

ألا يَقرأ هؤلاء!

ألا يَفهم هؤلاء!

ألا يَسمع هؤلاء للأمير شوقي إذْ ينادي:

"اقرأوا التاريخَ إذْ فيه العِبَر

ضَلّ قومٌ ليس يَدرُون الخَبر"

أو حين يقول:

"وخُذْ لك زادَيْن مِن سِيرةٍ

ومِن عملٍ صالحٍ يُدَّخَر"

ليت شعري مَن لقّنَهم أنّ التاريخَ روايةٌ بلا دراية وخبَرٌ بلا عِبَر، أو أَقنعَهم أنَّ السيْر المُعوجّ أقرب طرائق الوصول، أو علّمَهم أنَّ طريق الهزيمة هو ذاته طريق النصر، أو دَرّسهم أنَّ البغيَ شجاعة وأنَّ القتلَ مجْد

وأنَّ العنفَ قانون، أو ألقىٰ في روْعهم أنَّ الغباءَ هو الطريق الأوْحد للتميُّز، أو أَعمىٰ بصائرَهم فغاب عنهم أنَّه لا أَغْدر مِن الكراسيّ فاليوم جُلوسٌ علىٰ عرشِها وغدا نيامٌ علىٰ قَشِّها.

وبعد التنبيه علىٰ أنّ القدوة -بكسر القاف وضمّها- قد تكون سيّئة وقد تكون حسَنة، وأنّ استعمالها في الحسَن أشهَر، وأنها في الحسَن قسمان؛ قدوة مُطلَقة تتمثّل في الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وقدوة مُقيَّدة وتتمثَّل في العلماء الربانيين والهُداة الصالحين والقادة المربّين...وجَب علينا-أفرادا وأُمَما- أن نضبط بوصلتَنا ونحدّد وجهتنا، فنختار بمَحْض أفعالنا ومِلء رغائبنا بيْن أنْ نكون قدوة في طريق التقدّم؛ فنخطّ أسماءَنا بماء الذهب في سجلّات الشرف، ونُسجِّل حضورنا في أزمنة وأمكنة لم تعطِّرها أنفاسُنا ولم تدبّ فيها أقدامُنا، ونَمدّ أيدينا فنَفتح لمَن بعدنا أبوابا ونُزيل مِن دروبهم ألغاما؛ وعندها سُنُحمَد ونُشكَر ونَسمو فوق رتبة الملائكة.

أو أنْ نُصبح-حاشاني وإيّاكم- عِبْرة في درْب العَبَرات ووصْمة في جبين البشريّة، فنضع ثمرة فاسدة وسط فاكهة الحياة ونقتلع شجرة طيبة مِن بستانها العامر ونَنثر حسك السعدان علىٰ ثراها الطيِّب، وعندها سنُلعَن ونُشتَم ونَهبط إلىٰ درك ما دون الأنعام.

وللأهمية البالغة للقدوة في مجال التربية؛ باعتبارها مدرسة للكمالات ونماذجَ حيّة للبطولات وتجسيدا للماضي في ثوب الحاضر، فإنَّ علينا أن

نجتهد في التمييز بين أرباب القدوات وأُولي العِبَر؛ إذْ العاقلُ مَن اتّعظ بغيره، والأحمقُ مَن كان عظة نفسه، ومَن لم يَعتبرْ بغيرِه اعتَبر به غيرُه، وفي هذا نردِّد مع التابعيّ الزاهِد (مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير) قوله:

"اللهم لا تَجعلْني عِبرة لأحدٍ مِن خلْقك".

حقيقةً لا أَفشل مِمَّن يُراهن علىٰ ذاكرة التاريخ، فبالتنقيب بين صفحاته نجده قد سجَّل مَن أنار مصباحا، ومَن أشعل شمعة، ومَن اكتفىٰ بلعْن الظلام، ومَن مَرَّ وعيناه مُغمَضَتان وأذناه صَمّاءتان وعقله نعسان، ومَن اهتبل العتمة وانتهز الظلام فعاث فيهما فسادا وظُلما وسَرِقة...ويَبقىٰ الميزان والصراط علىٰ مرمىٰ نفَس يَخمد ونبْض يتوقّف ليَعلم الذين ظلموا عندها أيّ مُنقلَب يَنقلبون، بينما يَظلّ الاحتساب في النّهي عن المنكر واجب الوقت، والأخْذ علىٰ يد الظالم والفاسد حتْم لازم ، حتىٰ لا يتوالد ويتناسل أصحابُ العِبَر فيَسدُّون عيْن الحياة ببغيهم ورزائلهم، وصدق ربُّنا العظيم إذْ يقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: 137].

# 7- انْتبِه...فالعِشْق رِقّ

"أَرِني عاشقا عاقلا، أُعْطِـك
ثقله ذَهبا"

**الكاتب الروماني بلوتوس**

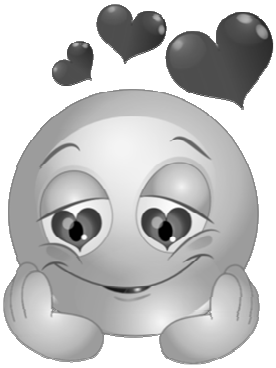

مازالت (ليلىٰ) تلوح في الأفق وتداعب مُخيّلة البعض، وهي وإنْ كانت (عامريّة) في الماضي، فقد صارت اليوم بلا هويّة، حيث فقدَت العشيرةُ والقبيلةُ آخر مربَّع لها في ملعب القيادة وذلك علىٰ يد الدولة الوطنية الحديثة، بينما أَضحي (قيسٌ) و(ليلىٰ) تراثا يزكمك غبارُه؛ مع كل دفقة حنين تُوقدها نارُ الوحدة ولهيبُ الوحشة، وعند كل رغبة في الهروب للخلف حين يكون شطر الوجه هو البحر والعدوّ في آن واحد.

في منتصف القرن الأول الهجريّ أسْلَمَت ليلىٰ العامريّة قَيْسَها العاشق الولهان للفيافي والقفار؛ يَهيمُ علىٰ وجهه، فيَلثم الأحجار، ويَأكل القصائد، ويَشرب البترول الأبيض مِن ناقته؛ وفي ذات النفق سارتْ (بُثَيْنة) و(عَزَّة)، وعَبَّ (جَمِيلٌ) و(كُثَيِّرٌ) مِن نفس الكأس وذات القدَح، فأورثانا شِعرا ودموعا تسيل في ليالٍ لا تعرف الحُبَّ ولا الوفاء؛ ليموج البحرُ بالكثير والكثير مِن مآسي وآهات ومصارع العشاق، وما امرأة العزيز حين هبطَتْ مِن علياء المُلْك إلىٰ درَك العِشق وذُلّ الهوىٰ فعرَضَتْ نفسَها علىٰ مَخدومِها-(يوسف) الصِدِّيق عليه السلام- وافتضَح أمرها في قرآن يُتلىٰ إلىٰ يوم الدين، إلَّا حرْفا ضمن معجم العشّاق وسِفر المُتيَّمين الذين ألْحقهم (الأصمعي) بزمرة المساكين فقال: "مساكين أهل العشق؛ حتىٰ قبورهم، عليها تراب الذُلِّ بين المقابر"، وهو ما أكّده الشَّاعر حين قال:

"مساكين أهل العِشْق، ماكنتُ أَشتري

جميعَ قلوب العاشقين بدرهم"

يَمضِي الإنسانُ الرشيد في الحياة بجناحَيْ العقل والعاطفة ليَشدّ كلٌّ منهما أزْرَ صاحبه في تؤدة واتّزان؛ فعقلٌ بلا عاطفة هو صخرةٌ صمّاء وكتابٌ جافّ في الرياضيات، وعاطفةٌ بلا عقل هي ضرْبٌ من الهذيان وعِشْقٌ فاق حدّ الجنون...وهو ما عبّر عنه (قيس بن الملوّح) المشهور بمجنون ليلىٰ فقال:

"قـالوا جُنِنْـتَ بمَـن تَهـوَىٰ فقلـتُ لهـم
العـــشقُ أعظـــمُ مِمّـــا بالمجـــانين
العِـــشقُ لا يَـــستفيق الـــدّهرَ صـــاحبُه
وإنمـــا يُـــصْرَع المجنـــونُ في الحِـــين"

وقد فرَّق الشيخ (البوطي) بين عاطفة الحبّ التي هي: "ميْل النَّفس لشيء لكمالٍ فيه" وبين العشق الذي عرَّفه (أرسطو) بأنَّه: "جهْل عارضٌ صادَفَ قلْبا فارغا" فقال-أي الشيخ البوطي-: "مشاعر الحُبّ في كيان الإنسان أشبه ما تكون بسراج يتَّقد في غرفة بليل مظلِم، فإنْ أَطْفأْتَ السراجَ انقلب المكانُ إلىٰ ظلام موحِش دامس، وإنْ بالغْتَ في رفع الذبالة(الشمعة) ومدّ لسان اللهب، تَحوّل السراجُ المضيء إلىٰ نار محترقة تحيل الغرفةَ كلّها إلىٰ رماد"... بما يَعنىٰ أنّ الشطَط في الهوي والتطرُّف في الحُبّ وعِشْقُ البشَر للبشَر -خاصّة إذا قُرِن بالصَدِّ والهجْر- هو عَمًىٰ فِكْريّ وسُكْرٌ[1] قلبيّ، وهو جريمةٌ نفسية وعذاباتٌ أبدية؛ إذْ تجعل السيِّد عبدا والملِك مملوكا والمَتبوع تابعا؛ فلا يَسمع عندها إلا صوت مطلوبِه، ولا يَرىٰ إلا صورة محبوبه، ولا يَفرح إلا برضا معشوقه، فيَهوِي للحضيض ويَحيد عن جادَّة الصواب ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ

(1) يقول (نزار قباني): "مَن قال إنَّ العشقَ والسُّكْرَ لا يتشابهان!"

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [1]، وساعتها لن يُجديه نفعا وساطة (يحيىٰ بن معاد الرازي) الذي قال: "لو كان إليَّ مِن الأمر شيء ما عذَّبتُ العشّاق؛ لأنّ ذنوبَهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار".

وقد قِيل يوما لجميل: إنَّ (بُثينة) التي استغرقَك حبُّها ليستْ حسناء ولكنَّها سوداء، فأنشد قائلا:

"أُحِبُّ لِحُبِّها السودان حتىٰ

أُحبُّ لحُبِّها سُودَ الكلاب"

وعلىٰ هذا المنوال الكسيح يَغزل كلُّ عاشق، فنراه غافلًا عن سوْءات معشوقه؛ حتىٰ لَيُعايِن القذىٰ في عينيه حوَرا، ويَشمّ رائحة الثّوم في فِيه فُلّا وياسمينا؛ وإن استهجَنْتَ مسلكَه وعِبْتَ مذهبه ؛ قال: ما هو إلا حُبّ عُذْري؛ نقيّ كالماء، وطاهر كالغمام، وصافٍ كاللؤلؤ، ومُنَزَّه عن الشهْوة والهوىٰ... وكأنها أُمٌّ تُرضِع طفلَها وتُناغيه!

وعن آثاره علىٰ الصحّة الجسديّة والنفسيّة يقول أبو الطب(أبقراط):

"العِشقُ طمعٌ في القلب، يدفع صاحبَه إلىٰ الاهتياج وشدّة القلق وكثرة السهَر وفساد الفكر ونُقصان العقل، حتىٰ يُؤدِّي ذلك إلىٰ الجنون، وحينئذ ربّما قتَل العاشقُ نفسَه، وربّما وصَل إلىٰ معشوقِه فيموتُ فرَحًا أو أسَفًا".

---

(1) الأعراف176

ويَبدأ مشوارُ العشق بالإعراض عن طريق الله[1]، ويَمرّ بالجهل والهزْل والفراغ، ويَتغذَّىٰ علىٰ التبرّج والسّفور ووسائل الميوعة والانحلال، ويَنتهي إلىٰ الذِّلَّة والضياع والعبودية والصّغار حتىٰ قيل أنَّ الشخص يَظلّ حُرّا مالم يَعشق أو يُعشق، ولهذا وضعه-أي العِشق- الشاعر الحاذق في مرتبةٍ كريهة بين المرض والإفلاس حين قال:

"أَعــاذكَ اللهُ مِــن أشــياءٍ أربعــة

السلِّ والعشقِ والإفلاسِ والجرَبِ"

أيّها العاشِقون المُتيَّمون: إذا كان العاشِق أعمىٰ فالزواج كفيلٌ بردِّ البصر إليه، وإذا كان العِشق نفَقا للهاوية ووصْفةً جاهزة للأرق والقلق والانتحار فإنّ الزواجَ جسرٌ للأمْن ومرفأٌ للأمان، وإذا كان العِشقُ نارا تشوِي وتحرق فإنّ الحبّ شمسٌ تُضيء وتُدفيء، وإذا كان العشقُ قيْدا مِن حديد فإنّ الحُبَّ ثوبٌ مِن حرير؛ وأنْفعُ الحُبِّ ما كان بالله ولله وفي الله...

ولله دَرّ مَن قال:

"مَن لم يكْفِه حبُّ الله فلا شيء يكْفيه، ومَن لم يستغْنِ بالله فلا شيء يُغنيه".

---

(1) يقول ابن تيمية-رحمه الله-: "مِن أعظم أسباب هذا البلاء-أي العشق-إعراض القلب عن الله، فإنَّ القلبَ إذا ذاق طعمَ عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ مِن ذلك".

# 8- اعْتذِرواغْتفِر

"إِذَا اعْتَـذَرَ الْجَـانِي ومَحَـا الْعُـذْرُ ذَنْبَـهُ
كَانَ الّذِي لاَ يَقْبَـــلُ الْعُـــذْرَ جَانِيًـــا"

**إسماعيل الإسحاقي**

(نأسَف لإزعاجكم)...

يافِطة تـضعها الـشركاتُ المُحترَمـة التي تقوم بعمليات صيانة للطرُق.

(آسِفٌ للتأخير)...

عبـارة يقولهـا الموظَّـف المُهـذَّب لعميلٍ طال انتظاره.

(عُذرا لِلعطل المفاجئ)...

رسالة ترسلها شركاتُ المحمول المسئولة لمشترِكيها عند انقطاع الخدمة دون سابق إنذار.

(أَعتذِر)...

دواء نسكبه علىٰ جراحٍ اقترفناها في حقِّ أصدقائنا وزملائنا وزوجاتنا وأبنائنا وبناتنا وجيراننا وأقربائنا.

الاعتذارُ ثقافةُ النبَلاء، وشِيمةُ الأبطال، ومصفاةُ القلوب؛ فهو رجوعٌ للحقّ وإنابة للصواب، وديةٌ ندفعها بإكبار لا انكسار. وإنْ شئتَ فقُل هو توبةٌ مِن الإنسان لأخيه الإنسان، وسجودُ سهوٍ عن علاقات شابها الاضطراب تارة بالتجاوُز وتارة بالحيْف؛ إذْ به[1] يكسِر الشخص صوت الأنا وتُخمة الذات وصدىٰ الأَنَفة والكبرياء؛ فيُعلِي قيمة التواضع، ويَبني جسورا للألْفة والمَحبّة حين ينزل بردا وسلاما علىٰ نفوس المجروحين وأفئدة المَكلومين. علاوة علىٰ أنّه سلوك يَنمّ عن ثقة المُعتذِر بذاته ويُدلِّل علىٰ تَفتُّح ذهنه ومرونة فكره، وهو ما يُعزّز احترامه مِن قِبَل الآخرين ويَرفع أسهم الأخلاق القويمة في بورصة المجتمع، علىٰ أساس أنَّ الاحترام هو روح العلاقات الإنسانية.

قد يَبنِي الاعتذارُ والتراجعُ عن الخطأ أُمَّةً، وقد يُنقذ شعوبا ويُربِّي أجيالا؛ وذلك حين يَصدُر مِن عالِم أو مفكِّر أو سياسيّ، نهَج نهْجًا أو اخْتطّ سياسةً أو نشَر فِكرًا، فذاع وانتشر وتَأصَّل وتَجذَّر حتىٰ صار له أتباعٌ

(1) قاس الدكتور (الشرباصي) في موسوعته (يسألونك) علىٰ الحديث الشريف "لم يشكر الله مَن لم يشكر الناس"، واستنبط منه بأنَّ مَن لم يعتذر إلىٰ الناس لم يُحسن الاعتذار والاستغفار لله عز وجل.

ومريدون وحواريّون، ثمَّ ظهر الحقُّ وتبيَّن الخطأ والبطلان، وقد قِيل في أمثال العرب: "إذا زَلَّ العالِمُ زَلَّ بزلَّته عالَم"... وهنا يُسطِّر التاريخ بحروف مِن نور اعتذار الإمام (أبي الحسن الأشعري) ورجوعه عن الاعتزال الذي عمَّر فيه 40 عاما وكان فيه رأسا وإماما، وذلك حين ارتقىٰ المنبر في المسجد الجامع بعد الصلاة، وقال لقد خرجتُ مِن الإثم الذي كنتُ فيه، ثمَّ أَلقىٰ علىٰ الناس مؤلَّفاته الجديدة التي يُعارض بها مؤلَّفاته القديمة...كما خلَّدت القوافي اعتذاريّة (المتنبي) إلىٰ (سيف الدولة الحمداني) بعدما وشىٰ الواشون وحلّت بينهما القطيعة، فجاء فيها:

"واعْلم أنِّي إذا ما اعتذرْتُ إليك

أَراد اعتـــــذاري اعتـــــذارا"

وقد سطَّر القرآن الكريم بين دفّتيْه عرائضَ الاعتذار مِن سيدنا (آدم)عليه السلام بعدما استسلم لغواية إبليس، ومِن سيدنا (موسىٰ) عليه السلام عندما وكَز الرجلَ القبطيّ وقتله، ومِن سيدنا (يونس) عليه السلام حين نفد صبرُه علىٰ قومه وخلَّفهم وراءه دون إذْن إلهي، ومِن (بلقيس) و(امرأة العزيز) حالَما استبان لهما الحقّ وأنار الهُدىٰ بصيرتَهما.

وهو ما انسحبَ علىٰ الجماعات والشعوب والأُمَم أيضا، فقد اعتذرَت اليابانُ لدول جنوب شرق آسيا جرّاء احتلالها لهم، واعتذرَتْ لبريطانيا عن سلوكها البغيض تجاه أَسراهم في الحرب العالمية، كما اعتذرَتْ فرنسا رسميّا للجزائر بغية الصفح عن ماضيها الأسود إبّان

الاحتلال، واعتذرَتْ ألمانيا لليهود عن جرائمها النازيّة، إضافة إلىٰ ما جَرىٰ في جنوب إفريقيا مِن الاعتراف والاعتذار والصفح الذي شكّل نواةً للتعايش بين البِيض والسُّود في أعقاب الحقبة العنصرية البائسة.

علىٰ أنَّ الاعتذارَ يَتطلّبُ إقداما وشجاعة تهزم شعورَ العِزّة بالإثْم، ويحتاج إلىٰ جرْأة نفسيّة تُغالِب الهوىٰ والنرجسيَّة؛ إذْ تُزيِّن لنا النّفس الأمَّارة بالسوء أنَّ الاعتذار فضيحة في العالَمين، وأنّه عيْب يحَطُّ مِن أقدارنا التي بنيناها بكدِّنا علىٰ مَرِّ السنين، وأنّه خُسرانٌ أبدِيٌّ لمصداقيّةٍ بذلْنا في سبيل نيْلها الغالي والثمين.

كما يتطلّب الاعتذار وقتا ملائما وظَرفا مناسبا يُوافق فيه المقالُ المقام، وأسلوبا ليّنا دافئا يُجاوِز طَبَلات الآذان إلىٰ نياط القلوب ومَنْزَع الأرواح، فانتزاع السّهم من جُرحِه أكثر ألَما وأشدُّ وجَعا منه عند نفاذه واختراقه.

وتكبر قيمة الاعتذار حين يأتي مِن كبير لصغير أو مِن رئيس لمرؤوس أو مِن قويّ لضعيف أو مِن غنيّ لفقير أو مِن مُعلِّم لتلميذ، كما تَعظُم مكانتُه إذا كان صريحا رقيقا صادقا، ومُقترنا بفِعلٍ يُجاوز حدود التأسُّف بالقول أو النّدم بالإشارة أو التحسُّر بالإيماءة، إذْ الأقوالُ والإشاراتُ والإيماءاتُ تُطهِّر الجروحَ والكلوم لا غيْر، بينما الأفعالُ هي مَا تَخِيطها وترتق فتْقها... وقد قِيل أنَّ اعتذارا في غير وقته هو قهوةٌ باردة غير سائغة، وأنَّ اعتذارا يفتقر إلىٰ اللياقة هو تطهيرٌ لجرحٍ بحفنة ملح.

وتبقىٰ حقوقُ العباد مُعلَّقةٌ بالرّقاب، فلا يُسقِطها القِدَم ولا يفنيها العَدَم، ولا يُعفينا منها إلا أداؤها أو طلَب الصّفح مِن أصحابها، وذلك قبل أن تغرغر الروح في الحلقوم وقبل أن يأتي يومٌ لا يجدي عنده اعتذار ولا ينفع فيه إلا القِصاص... وهذا ما يَدعونا للتعجيل بالاعتذار؛ فنُزيح أثقالا مِن علىٰ عواتقنا ونُفرغ أدْرانا مِن حقائبنا ونكسر أطواقا أوشكتْ علىٰ خنق ضمائرنا، وذلك قبل أنْ يباغتَنا سيْفُ الموت الذي علا الرقاب أو يدُه التي قبَضتْ علىٰ الزناد أو الصُّور الذي باتَ في فم (إسرافيل) عليه السلام.

ولأنَّ الخطأ علامةً مُسجَّلة لكلِّ بني الإنسان؛ إلىٰ حدِّ أنَّ (أبا سعيد البصْري) وهو مِن سادات التابعين يقول: "لو أصاب ابنُ آدم في كلِّ شيء لَجُنّ"... فلِمَ لا يكون السَّمَاح قلبًا ثانٍ ورئةً ثالثة وبُعدا رابعا وطَرَفا خامسا؟

ولأنَّ الاعتذارَ فضيلة والتَّوبة مِن الخطأ قُرْبىٰ وأَعْقل النّاس أَعْذرهم للنّاس؛ فلِم لا يكون قبول الاعتذار سِمةً للعارفين، ودَيْدنا للصالحين، ومَطمَحا للراغبين في عفو الكريم يوم الدِّين؟

ومِن جميل ما يَرويه (ابن قتيبة) في شأن الاعتذار وقبوله، أنَّ الشاعر (اسماعيل الحميريّ) هجا الوزيرَ (الفضل بن يحيىٰ البرمكيّ)، ثمّ أتاه مُعتذِرا، فقال له الفضلُ: بأيِّ وجه تَلقاني؟ فقال الحميريّ: بالوجه الذي

ألقىٰ به ربي، وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك الفضلُ ووصَله ورضِي عنه.

كما يُحكىٰ في هذا الصدد أنَّ صديقا احتدَّ علىٰ صديقه وصفعه أثناء ارْتحالهما معا في الصحراء، فما كان مِن المَصفوع إلّا أنْ خطَّ علىٰ الرمال: "اليوم؛ صفعني صديقي"، وواصلا السيْر، ثمَّ كان أنْ علقت قدمُ مَن تَلقَّىٰ الصفعةَ في الرمال المتحرِّكة وكاد أن يَغوص فيها ويَختنق، فأنقذه صديقُه بعد جهد جهيد، وعندها نقش المَصفوعُ علىٰ الصخرة: "اليوم؛ أنقذني صديقي"، ولمَّا تعجَّب صديقُه وسأله عن السرّ في الكتابة علىٰ الرمل عند الصفْع وفي النقْش علىٰ الصخْر بعد النجاة قال: عندما يُخطئ أحدٌ في حقِّنا؛ علينا أن نكتب فعْلته علىٰ الرمال ليسهل علىٰ رياح العفْو والتسامح محوه، أمَّا حينما يُسدِي إلينا أحدٌ معروفا؛ فعلينا أن ننقش ذلك علىٰ الصخر حتىٰ لا تستطيع رياح النكران محوه.

وفي ذلك أيضا قال (جمال الدين القاسمي الدمشقي) في كتابه الماتع (جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب): "إذا أَذنبْت فاعتذِر، وإذا أُذنِبَ إليك فاغْتفِر، فالمعذرة بيان العقل والمغفرة بيان الفضل".

علىٰ أنَّ الأفضل مِن الاعتذار وقبوله؛ أنْ ننأَىٰ بأنفسنا عن مواطن الرِّيبة ومَدارك الزَّلَل، فلا نُقْدِم علىٰ سلوك يُعوِزنا للاعتذار امتثالا لتحذير خيْر الأنام "إيّاك وما يُعتذَر منه"، ونُمسِك لساننا عند الغضب حتىٰ لا يُوردنا العثَرات اهتداء بالحديث الشريف "أَمْسِك عليك لسانَك"، ونتَّشِح

بالحِلم والأناة فلا نُسلم زمامَنا لطيْش لا تُحمَد عقباه مُتأسِّين في ذلك بالأشجّ بن عبد القيس الذي امتدَحَه المصطفىٰ قائلا: "إنَّ فيك خصلتيْن يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة"... فاجتناب الداء أهون مِن علاجه، ومجافاة الذنوب أهون مِن مكابدة التوبة وعراك الإقلاع.

ولهُواة الاختصار-الذي لا يَعترِف به أهلُ البادية- أقول:

إذا كان فهْم النّاس يَحلُّ نصف المشكلات، فإنّ الاعتذار بِحُبٍّ يَنسِفها كلَّها... بمعنىٰ أنَّ الاعتذار يَهدم الاقتراف.

# 9- لوِّن حياتَك

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

[فاطر 27 – 28]

سماءٌ زرقاء[1] ومروجٌ خضراء، وغيومٌ سوداء ووروودٌ بيضاء، ونجومٌ فضيّة وشمسٌ ذهبيّة، ورمالٌ صفراء وجُدَدٌ حُمْر، وضوء

(1) يُفسِّر العِلمُ زرْقة السماء؛ بأنّ الطول الموجي للون الأزرق(450 نانومتر) أقصر من موجات الألوان الأخرىٰ، ومِن ثَمَّ يقوم الغلاف الجوي بتشتيته أكثر مِن بقيّة الألوان.

يَحوي في جوفه سبعةَ ألوان وأطياف...تلك هي صفحة الحياة ولوحتها الغنَّاء التي أَبدعَها بارئ الأرض والسماء، فحفَلتْ بعدد لا محدود مِن ألوانٍ زيَّنت الكونَ وجَمَّلت الإنسان وتَحلَّىٰ بها النبات والحيوان والجماد، هذا علىٰ اعتبار أنّ اللونَ مادّة الجمال الحِسِّيّ وأنَّه قيمة إيجابيّة أساسيّة في الصنْعة الإلهيّة الربّانيّة التي تتّسِم بكمال القدرة وتمام الحكمة وغاية الإتقان ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [1]، علاوة علىٰ أنَّ الأذواقَ تتعدَّد بتعدُّد العقول وتَتنوّع بتنوُّع الإرادات وأنَّ أيَّة محاولة لتوحيد الأذواق هو تكبيل للحياة وحجْر علىٰ العقول وقتْل للإرادات.

ثُمَّ كان أنْ تَميَّز كلُّ لون بدلالة جماليَّة وسمة رمْزيَّة جعلتْه أثيرا لدىٰ البعض ومنبوذا لدىٰ البعض الآخر بحسب جنس الشخص وسنّه وحالته البدنيّة والمزاجيّة؛ فاللون الأحمر [2] معروف بدلالته المثيرة للأعصاب والرامزة للغضب والثأر، والأزرق باعثٌ علىٰ الهدوء ورامِزٌ للصداقة

---

(1) النحل88

(2) في عهد (ماوتسي تونغ) اصطبغت الصين باللون الأحمر الثوري، حتىٰ بلغ الشطط بهم حدّ الهمّ بتصحيح دلالات الألوان في إشارات المرور، ليكون اللون الأحمر إشارة للانطلاق واللون الأخضر إشارة للتوقف، وذلك علىٰ خلاف ما هو مُتعارَف عليه في شتىٰ بقاع العالَم.

والسكينة، واللون الداكن مُحبِط وجالِب للاكتئاب ورامِزٌ للغموض والإبهام، والأسْوَد علامة علىٰ الفخامة والرفعة ورامِزٌ للحزن والموت[1]، والأبيض دليل البراءة والصِّدق ورامِزٌ للسلام والصفاء...أمّا الأخضر فله التحيّة و السّلام.

هذا خلافا للرموز اللونية النفسيّة التي ابتدعتْها الطائفة الصوفية النقشبندية، حيث ترىٰ أنّ في الإنسان عدّة أنفس، ولكلِّ نفس لون يَخصّها؛ فاللون الأزرق يَخصّ النفسَ الأمّارة بالسوء، والأحمر يَخصّ النفسَ المُلهمة، والأبيض يَخصّ النفس المطمئنة، أمّا الأصفر فتَختصّ به النفس اللوامة، والأسود تَختصّ به النفس المَرْضيّة، والأخضر تَختصّ به النفس الراضية.

مَن مِنَّا لا يحبّ اللون الأخضر؛ الذي حاك رداء الحقول، وغزل وشاح البساتين، وفتح ذراعيه مؤذنا بالمرور عبر الإشارة في الطريق، ثمّ زَركَشَ سندس أهل الحبور في جنَّات النعيم: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾[2]... علىٰ أن لا يَغيب عن أذهاننا أنّ النهج القرآني حال تشبيهه

(1) اللباس الأسود الذي يرتديه البعض خاصة النساء للحداد علىٰ موتاهم، لا أصل له في الشريعة، والحقيقة أن هذا تقليدٌ وثني مُوغل في القدم، إذْ كان الشخص يرتديه خوفا مِن روح المتوفَّىٰ لا حزْنا عليه.

(2) الإنسان 21.

نعمة في الدنيا بنعمة في الآخرة إنّما هو للتقريب لا للمضاهاة، فما مِن وجهٍ للشبَه بين طيِّبات الدنيا ونعيم الآخرة إلّا في الاسْم فحسْب.

وقد غاص العالِمُ اللغوي(ابن جنِّي)في أعماق اللون الأخضر فاستخرج الطراوة والليونة مِن حرف الخاء واستنبط الجريان والسيولة مِن حرف الراء، بمعنىٰ أنه مرادِف للخير والنماء ورامِزٌ للنضارة والبهاء والشباب، علاوة علىٰ أنه مُبهِجٌ للقلب وباعثٌ للأمل بحسبانه لونا إيجابيا مائة بالمائة، كما أنّه مُريح وغيْر مُجهِد للعيون؛ إذْ إنّ طوله الموجي وسَط بين الأحمر الطويل والأزرق القصير، كما تُعَدّ ساحتُه البصرية أصغر الساحات البصرية مقارنة بباقي الألوان، حتي قِيل أنَّ أربعةً تزيد في البصر: النظر إلىٰ الوجه الحسَن المُباح، وإلىٰ الخُضرة، وإلىٰ الماء الجاري، وفي المصحف الشريف...هذا مع إدراكنا بأنَّ اللون ما هو إلا الترجمة الدماغيّة للموجات الضوئيّة التي تصافح شبكية العين وتنتقل عبر العصب البصري، وكأنّ علاقة اللون بالضوء هي كعلاقة النغَم بالصوت.

أمّا في واقع حياتنا؛ فمِن الخضروات -التي يُطلق عليها الذهب الأخضر- نتحصّل علىٰ حديد القوة وسياج الأمان ضد الأنيميا ونقْص الفيتامينات، وفي جوانب الطرقات تنفث الأشجارُ الخضراء إكسير الحياة مِن الأكسجين وتلتهم ثاني أكسيد الكربون، كما تغمر الطمأنينةُ نفوسَ المرضي حين يطالعون غرَف العمليات الجراحية المَكسوّة باللون الأخضر.

وهكذا فإنَّ ثقافة الألوان ليست معرفة جوفاء في قلَم رسَّام ولا بضاعة مُزجاة في فرشاة نقّاش ولا خيالا جامحا في بَنان مُصمِّم للأزياء، ولكنّها لغةٌ ذات جذور ضاربة في عمق التاريخ والأديان والحضارات، وفيها أُلِّفت كتبٌ ومراجع، كما أَضْحت اليوم عِلْما يَدْرِسه الباحثون ويُتقنه المُصمِّمون ويَستخدمه المُربُّون والمُصلِحون والأطبّاء في تغيير السلوك وعلاج النفوس وربّما الأبدان أيضا ضمن منظومة الطبّ البديل، وما تجربة خفْض معدّل الجريمة في قطارات نيويورك أو تَراجُع نسبة الانتحار علىٰ الجسر اللندني الشهير بمجرّد إعادة طلائهما إلا جزءا مِن كُلّ وغيْضا مِن فيْض، واقرأ[1] إنْ شئتَ عن صاحب متْجر بيع اللحوم الشهير بولاية شيكاغو الأمريكية الذي أَقدم علىٰ طلائه باللون الأصفر، فبدَت اللحومُ أمام أعين الزبائن باهتة اللون وكأنها فاسدة، فانصرف الناس عن بضاعته وهجروه، وبعد أن فطن صاحبُ المتجر للعِلّة وأعاد طلاء المحلّ باللون الأخضر المائل للزرقة، بدت اللحومُ أكثر احمرارا وظهرت العظامُ أشدّ بياضا، بما يوحِي أنّ اللحم طازج والعظام صحيحة، فعاد الزبائنُ زرافات وزادتْ المبيعات أضعافا فوق أضعاف.

وقد جاء في (إحياء علوم الدين) للإمام (أبي حامد الغزالي) قوله: "الطِّباع السليمة قاضية باسْتِلْذاذ النظر إلىٰ الأنوار، والأزهار، والأطيار

(1) ورَدتْ القصةُ تحت عنوان بديع يَقول: "مِن الألوان...يبدأ طقس التفاؤل في العزْف" وذلك ضمن كتاب(هل فات الأوان لنبدأ من جديد) لمؤلِّفه(باسل شيخو).

المَليحة الألوان الحسَنة النقْش المُتناسِبة الشكْل"، كما ورد عن الشاعرةِ الفلسطينية(فدوىٰ طوقان) قولها:" أَحمد الله دائما علىٰ أنْ خلَق لنا الألوان، إذْ تبعث في أعماقي بهجة كبيرة وانجذابا غريبا، وكَمْ كانت الدنيا تبدو قبيحة لو تَجرَّدَتْ إلّا مِن اللونيْن الأبيض والأسود؛ فلا سماء زرقاء، ولا أشجار خضراء، ولا فراشات ملوَّنة، ولا غلالات ورديّة يتدثّر بها الأفق عند الشروق وعند الغروب"... وهنا نزيد في الحمد ونفيض في الثناء علىٰ الله الذي وهبنا عيْنا يُمكنها التمييز بين مائة وستين(160) لونا مختلفا، ومع تدريبها تُصبح قادرة علىٰ التمييز بين أكثر مِن مائة ألف لون (100,000) حسبما ذكَر أحدُ خبراء الكيمياء العضوية.

وإذا كان الإيمان هو جَمال الباطن الذي يتحدَّث باسم الروح، فإنّ اللونَ ركنٌ أصيل في جمال الظاهر الذي يُخاطب الروح عبْر العيْن، فيُوحِي بالخيال الجميل الذي ينزع بصاحبه نحو الإحسان في العمل والكريم مِن العادات علىٰ حدّ تعبير (مالك بن نبي)، وهذا ما يَجعلنا نأسَىٰ علىٰ فوضىٰ الألوان في شوارعنا ومنازلنا ومدارسنا وملابسنا، إذْ إنّها تُؤشِّر علىٰ انخفاض قيمة الجمال و تَدنِّي مستوىٰ الذوق وضمور ساحة الإبداع، كما تُنبِّه إلىٰ أهمية الالتفات وحتميّة النظر في تطبيقات عمليَّة تجعل مِن اللون أداة فاعلة في بعث الجمال وإيقاظ الحواس وتنمية الذوْق وجلْب السكينة وبَذْر التفاؤل وحُبّ الحياة والتّذكير بعظمة الخالِق[1]،

(1) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل:13].

وهو ما لخَّصه (الشعبي) الذي دخل سوق الرقيق يوما، فقِيل له: هل مِن حاجة؟ فقال: حاجتي صورة حسَنة يَتنعّم فيها طرْفي، ويَلتذّ بها قلبي، وتُعينني علىٰ عبادة ربي.

علىٰ أن لا تقف حدودُ براعتنا في توظيف اللون عند سفاهة تجميل النساء في مسابقات ملكات الجمال تكريسا لما قِيل بأنَّ جمال الرجالِ في عقولهنّ وعقول النّساء في جمالهنّ، أو عند حماقة البذَخ في إقامة الحفلات والمهرجانات، أو عند ادِّعاء الحكمة كما فعل (ماو) في كتابه الأحمر و(القذافي) في كتابه الأخضر، أو عند المبارزة بالقوافي وتفخيخ الكلمات علىٰ غرار ما نظمه الشاعر (صفي الدين الحلِّي) فقال: "بِيضُ صنائعنا سُودٌ وقائعنا، خُضْرٌ مرابعنا حُمرٌ مَواضينا"، أو عند كرنفال الظُّلم الذي يلقاه السجين حين يَتنقَّل بين لباسه الأبيض في الحبس الاحتياطي والأزرق حال الإدانة والأحمر مع الإعدام، أو عند بهرج الستائر والطنافس في قصور الحكّام وعروش الأمراء...وذلك علىٰ أمل أن يَفيض الله علينا مِن جمال كرَمه وحُسن عفوه؛ فيُبيِّض وجوهَنا[1] ويُلبِسنا خُضْر الحُلَل ويُسْكِنَّا دُهْم[2] الجِنان.

(1) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران:107].

(2) ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرحمن: 64].

# 10- اخْتَرْ كلماتِك كما تختار طعامَك

"رُبَّ قولٍ يَبقَى وَسْما"

"رُبَّ قولٍ أَشدُّ مِن صَوْل"

مَجْمَع الأمثال للميداني

جلَس أحدُ المُسنِّين المُعْوزِين في عرْض الطريق وبجواره لوحة كَتَب عليها (أنا أَعمىٰ...ساعدوني) فمرّ به الكثير وما أَعطاه إلّا نفرٌ قليل، فاستبدل اللوحةَ بأخرىٰ كُتِب عليها (يالهُ مِن يوم جميل... ولكنِّي لا أستطيع رؤيتَه)، فما مَرّ به شخصٌ إلَّا أعطاه وأَجْزلَ له العطاء ... وصدَق المثَلُ حين قال: "يُؤخَذُ بالعسَل ما لا يُؤخَذ بالخَلّ"، وأصاب (غاندي) حين قال: "باللطف

واللِين تستطيع أن تهزّ العالَم"، وأبدع (مصطفىٰ محمود)حين شبَّه الكلمةَ بإزميل[1] يُشكِّل العقول.

مِن الكلمات مالها طعمُ الفاخر مِن الحلوىٰ والثمين من الشوكولاتة؛ فيسيل لها اللعاب، وتلمع لها العيون، وتنبسط من وقعها العضلات، بل وتسكَر مِن خمرها النفوس وتحلِّق الروحُ في أعالي الأفُق ومنازل القمر...ويكفيك مِن هذا كلمات الحُبِّ والتقدير والمدح والثّناء[2] الذي قال عنه (ابن نباتة السّعدي):

"يَهوَىٰ الثَّناءَ مُبرِّزٌ ومُقصِّرٌ حبُّ الثّناءِ طبيعةُ الإنسانِ"

ومِن الكلمات مالها طعم العلقم، ومذاق الحنظل؛ فتجذع منها النفوس، وتعبِس لها الوجوه، بل وتُخلِّف في الجسد الحروق والجروح والنّدوب... والأمثلة علىٰ ذلك عَصِيّة علىٰ الحصر، أمَّا أثرها فقد تكفَّل بوصفه الشاعر (يعقوب الحمدوني) حين قال:

"جراحاتُ السِّنانِ لها التئامُ ولا يلْتامُ ما جرَح اللّسانُ"

---

(1) الإزميل هو آلة معدنية ذات حافة حادّة مائلة، تُستعمل لقطع الحجارة والخشب أو المعدن، والجمع أزاميل.

(2) في كتابه (سحر الكلمة) يلفت المؤلِّف(إبراهيم الفقي) نظرَنا إلىٰ الفرق بين الثناء الذي يمتاز بالصدق ويُركِّز علىٰ الأفعال لا الأشخاص، وبين المداهَنة التي هي كذب صراح وتُركِّز علىٰ الأشخاص لا الأفعال.

وذلك لأنَّ جراحات السّنان خارجية تَخدش الجلد وتقطع اللحم وتُعالِجها المراهم والأدوية، بينما جراحات اللسان داخلية عميقة تنفذ إلىٰ النفس والروح ولا يُداويها إلا الأقوال والأفعال.

و كَمَا للكلِمة طعْمٌ ومَذاق[1]، فإنَّ لها قوّة وتأثيرا بقدْر ما تشعّ مِن طاقة وترسل مِن ذبذبات وحسْبما تحمل مِن عاطفةٍ ومعنىٰ؛ حتىٰ إنَّها لتفوق مرتبة السِّحر في الحُبّ، والدّواء في المرَض، والهديّة في الصداقة، والقانون في الإدارة، والمدْفع في الحرب...وفي هذا يغرِّد ابن الفرات(معروف الرصافي) قائلا:

"قَتَلْتُه بالقولِ لا بِمُهنَّدي

وَالحربُ أَحْرَىٰ أنْ تكونَ مقالاً"

وبينما نجد الكثيرَ مِن الكلمات والألفاظ لا تعدو أنْ تكون حروفا متراصّة؛ كطبْل أجْوف، ونبات حصْرم، وبهْرج كاذب... كتلك التي يَتغزّل بها أغلبُ الدبلوماسيين ويَتشدّق بها بعضُ السياسيِّين[2] والإعلاميِّين؛ لما تحمله مِن وعود براقة، وكذِب بواح...

فإنَّ القليلَ مِن الكلمات تختزن في جوفها معنًىٰ يُدير الرأس وفكرةً تُسْمن العقلَ، ويَتحقَّق فيها ما قاله (خالد بن صفوان) مِن أنَّ خيْر الكلام

(1) يُمكننا القول أن أفواه الناس آبار؛ منها ما هو عذْب فرات، ومنها ما هو مِلحٌ أجاج.

(2) قِيل أنَّ اللغة في علم السياسة هي لستر أفكار السياسي لا لإيضاحها!!

هو ما طَرُفَت معانيه وشَرُفَت مبانيه والْتَذَّتْه آذانُ سامعيه... وعَرِّج إنْ شئتَ علىٰ جواهر الحكماء ودُرر العلماء ولآلئ المفكِّرين الذين يَعُون أنَّ هندسة الكلمات ليست أقلّ قيمة مِن هندسة الطرق والكبار والمباني، ويَفقهون أنَّ للكلمات عورات لا يَسترها إلّا المعاني الجميلة.

و أقلّ القليل من تلك الكلمات ما يحمِل عُمْق المشاعر، ونزَق العواطف، وبرْد الأحاسيس؛ فتحنو علىٰ النفوس وتربط علىٰ القلوب، ليسيل مِن وقعها الدَّمع مِدرارا، أو يضحك القلبُ لها مِلء شدْقيه... وما أحوجنا إلي تلك الكلمات مِن شاعر أنيق أو أديب أريب أو مُبدع حاذق، فينفذ عندها القول إلىٰ ما لا تنفذ الإبَر علىٰ حدّ وصف الشاعر (الأخطل).

وتَبقىٰ الكلمةُ الطيبة بجذورها الضاربة في عمْق الأرض وفروعها الشاهقة في عنان السماء، هي الطائر الذي يملك مِن الأجنحة مَثنىٰ وثُلاث ورُباع وربَّما أكثر، لِتُحلِّق بنا بعيدا في أعالي المعاني ويَعمُّ خيرُها أرجاءَ المعالي، وذلك حين تُلامس أعماقَنا وتُضيء دواخلَنا وتخدش قشرةَ أدمِغتنا، ولا أَحقَّ بها سوىٰ تلك اللفتة الكريمة من قِبَل المصطفىٰ -صلىٰ الله عليه وسلم- الذي نهىٰ أنْ يقول الرّجلُ(عبْدي وأَمَتي)ووجَّه إلىٰ القول(فتاي وفتاتي) وكأنّهما مِن صميم صُلبه وبقيّة أهله!، أو ذلك السلام الرقيق الرفيق النبيه الذي سلَّم به (عمر بن الخطاب) علىٰ جماعة مِن الناس تحلّقوا حول نار فقال: السلام عليكم يا أهل الضوء.

بين الكلِمة واللَّكْمة مسافة لغوية بسيطة لا تتعدَّىٰ تَقدُّم حرف اللام علىٰ الكاف أو تأخّره، أمَّا في لغة الحياة فبينهما شوْط طويل مِن الاحترام ورقَّة المشاعر والأدب الجمِّ والذّوق الرفيع...وهو ما عناه الشاعر (عبد الرحمن الشرقاوي) حين قال:

"أَتدْري ما معنىٰ الكلِمة؟

الكلمةُ نور...وبعض الكلمات قبور"

وهنا؛ تَدَبَّرْ معِي تلك الرسالة التي تُحيل الداءَ إلىٰ دواء -لما تَضمَّنَتْه مِن كلمات أشبه ما تكون بنعومة الحرير ولألْأة النجوم واستدارة القمر- والتي أَرسلَها صاحبُ عمل لأحد موظّفيه، ليُعْلِمه بفصْله مِن عمَله وإنْهاء خدماتِه فيقول: إنني لا أتصور يا بُنيَّ كيف نستطيع الاستغناء عن خدماتك؟ ولكنّنا سنحاول ذلك بدْءا مِن الأسبوع القادم...

وهذه رسالة أخرىٰ منه إلىٰ موظَّف ثانٍ يُبلغه فيها برَفْتِه مِن وظيفته فيقول: أَجِد مِن واجبي أنْ أشكركم علىٰ ما أدَّيتموه للشّركة من خدمات، وسأَعمل علىٰ مُعاودة الاستفادة منها حالَما يكون ذلك مُمكِنا.

وأَضِف إلىٰ ذلك ما رُوِي مِن أنّ ملِكا حَلَم[1] ذات يوم بأنَّ أسنانه كلها تساقطتْ، وطلب لذلك مفسِّرا، فقال المفسِّر: إنّ جميعَ أقربائك

(1) حَلَم بمعنىٰ رأىٰ في منامه رؤيا ومنه **الحُلْم**، بينما حَلُم (بضم اللام) أي تأنَّىٰ وسكن عند غضبٍ أو مكروهٍ مع قدرة وقوّة ومِنه **الحِلْم**، هذا بخلاف **الحُلُم** الذي يعني الاحتلام ويدلّ علىٰ البلوغ.

سيموتون قبلك، فغضب الملك مِن تفسيره وقتله، ثـمّ جِيء بمُفسِّر آخر يُجيد فنَّ القول ويُتقن سحر الكلام فقال: إنَّ تفسير رؤياك يا سيادة الملك أنّك ستكون أطول أقربائك عُمرا إن شاء الله، فاستحْسن الملك تفسيرَه وأمر له بجائزة!

وإذا كان للكلمة خصوصيّة عند بعض الفئات كالمعلِّم والخطيب والزعيم؛ فإنَّ بين الكاتب –ناثرا كان أو ناظما– والكلمة عشْق أبدي؛ فهي مالُه ودكّانه، وأهله وعتاده، وزرعه وثماره؛ يرعاها كأمّ ويدلِّلها كطفل، يجالِسها كحبيبة ويُعايشها كزوجة، يَأمرها كقائد ويطيعها كخادم، ثـمّ يذرفها علىٰ الأوراق دموعا أو بين السطور ضحكات وقهْقهات.

أمَّا في مجال العِلْم التجريبي فأشير إلىٰ بحْثٍ مُوَثَّق قام به الياباني(مازارو إيموتو)؛ حيث أَحضَر ثلاثةَ أوعية زجاجية مُعبَّأة بكميات متساوية من خليط الأرز والماء، ثم بثَّ في روْع الوعاء الأول كلمات إيجابية تحوي الثناء والتشجيع والودّ، بينما أَمْطَر الوعاءَ الثاني بعبارات ملؤها الإحباط واليأس والبُغْض، وترَك الوعاءَ الثالث في حاله لا له ولا عليه، وكانت النتيجة بعد مُضيّ ثمانية أسابيع هي سلامة الوعاء الأول وتعفُّن الوعاء الثاني أسْرع مِن الوعاء الثالث!.

ومِن نُكران الجميل هنا أنْ نَأتي علىٰ ذِكر الكلمة ولا نُرسل التَّحَايَا إلىٰ جرَّاح الأعصاب الفرنسي (بيير بروكا) الذي حدَّد في عام 1861م منطقة بروكا الموجودة في الفصّ الجبْهي للدّماغ والمسئولة عن صياغة الكلام،

ومِن فقْه القوْل أنْ نَعي أنَّ الكلِمة كالفِعْل يُسجِّلها ويُحصيها[1] الرّقيب العتيد ويُحاسَب عليها صاحبُها يوم الدين، ومِن حُسْن الخاتمة أنْ نُذكِّر بكلمةٍ كانت وصيَّة أبي الرّسُل (نوح) إلىٰ ولده علىٰ فراش الموت؛ فنَرقىٰ بها إلىٰ مراتب الصدِّيقين، ونَنجو بها مِن قعْر الجحيم...ألا وهي: (لا إله إلا الله).

(1) يُقال أنّ أحدَ الحكماء تمنّىٰ أنْ تكون له رقبة بعير... فقيل له لِم؟ فقال: حتىٰ أزِن الكلمةَ قبل أنْ تخرج.

# 11- اسْألْ قبل أن تُسأَل

"تكمُــن حماقــةُ أجهــزة
الكمبيوتر في أنّها لا تُقـدِّم إلّا
إجابات"

بابلو بيكاسو

"قلبٌ عَقول ولسانٌ سَؤول"... تلك كانـت إجابـة حَبْـر الأمّـة (عبـد الله ابـن عباس) حين سُئِل عن الطّريق لاكتساب العِلم؛ ووافَقَه الفيلسوفُ الألماني (نيتشه) حين قال: "مَن أراد أن يكون مِن حواريِّي الحقيقة فلْيَسأل"؛ وعلىٰ الدّرب سبَقهم (سقراط) فأيْقظ شعبَه وحاجَج خصومَه وأغاظ مُعارِضيه بسلاح السؤال وذلك قبل أن يُتابع تلميذُه (أفلاطون) المشوار فيُسجِّل مآثرَه الفلسفية عبْر المحاورات التي كان السؤال هو لحمتها وسداها؛ إلاّ أنَّ السؤال بذاتِه

يُثير العديد مِن التساؤلات التي يمكن اعتبارها بمثابة القواعد الذهبيّة لـه: فمَنْ نسأل؟ ولماذا نسأل؟ وماذا نسأل؟ وكيف نسأل؟

السؤالُ بيتُ المعرفة وبوابّةُ العِلم ونافذةُ الوعي وعتَبةُ الإدراك، وهو عتاد المثقَّف ودرع المفكِّر وسلاح الفيلسوف؛ إذْ به يَزول الغبار ويَتَّضح المُبْهَم ويُعلَم المجهول، فنَقتل الحيرةَ ونَنعم بالسكينة، كما نَشحذ به العقول ونُرسِّخ المفاهيم ونُولِّد القناعات؛ وذلك بالبحث عن الدليل واستقصاء الحجَج وتفنيد البراهين، ولذا كان الخليفة (المأمون) يقول لنُدَمائه إذا سايَرُوه ووافَقُوه في كلامه علىٰ عادة جلَساء الكُبراء: "هلّا سألْتموني لماذا؟ فإنَّ العِلمَ علىٰ المُناظَرة أثْبت مِنه علىٰ المَهابة".

كما يؤكِّد الكاتبُ الأمريكي (ويليام أرثر) علىٰ قيمة السؤال كأحد أهمّ الأدوات لاكتشاف العالَم وسدّ جوعة الفضول وإشباع الرغبة الجامحة للاستطلاع فيقول: "السؤال دليل الفضول، والفضول هو فتيل شمعة التعلُّم"، وهذا ما يُؤسّس للتعليم بالحوار والنقاش الذي يتشارك فيه طرفا المعادلة التعليمية، بدلا من طريقة التلقين الأحاديّة المصْدر التي طمَرها التعليمُ الحديث وقبَرتْها طرائقُ التربية المعاصِرة، خاصة إذا علمنا أنّ السؤال لا يَنشأ مِن فراغ ولا نَتنفسه مع الهواء بل يُولد في العقل جرّاء مقارَنة أو مقابلة، وأنّ القدرات الذهنية -تماما كالقدرات العضلية- تضمر وتضمحل إذا لم تُمرّن وتُدرَّب برياضة السؤال.

ولا نبالغ هنا إنْ قلنا أنَّ كلَّ إنجاز تَحقَّق في عُمر البشرية منذ الخليقة إلىٰ الآن مَدِين بالدرجة الأولىٰ إلىٰ السؤال، فما الكتاب الذي بين يديْك وطوع بنانك إلا جوابا لسؤال تلو سؤال، وما الاكتشافات العِلمية الحديثة إلا أجوبة لأسئلة قديمة...بمعنىٰ أنَّ السؤال هو الحياة وأنّه السرّ الأعظم للنجاح.

فبالسؤال يُعرَف الحقّ؛ إذْ انتقل به (روزبه) عابدُ النَّار إلىٰ (سلْمان) أهل بيْت النّبوة، وبه غزا (أحمد ديدات) القساوسة في عقر دارهم...وبالسؤال تُصَنَّف الدّول؛ إلىٰ واعدة سائلة تتربَّع علىٰ عرش الحضارة، وأُخرىٰ سائمة نائمة نَضبَتْ فيها علاماتُ الاستفهام وخرجَتْ مِن حاضرة التاريخ؛ إذْ السؤال بوح والبوح قوّة...وبالسؤال أيضا يُوزَن الرِّجال؛ فها هو (البيروني) أعظم عالم في التاريخ الإسلامي وفي نزْعه الأخير علىٰ فراش الموت يَسأل أحد زائريه من القُضاة عن مسألة في فقه المواريث وعِلم الفرائض، وهذا أبو هلال العسكري –عالِم اللغة– عَدّ السؤال رجالَه وجندَه وعتادَه فقال:

"فلو أنِّي جُعِلتُ أميرَ جيش

لَمَا قاتلْتُ إلّا بالسؤالِ

فإنَّ النَّاس يَنهزِمون منه

وقَد ثبَتوا لأطْرافِ العَوالِي"

وكما أنَّ للمادّة عِلمٌ يُسمّىٰ الفيزياء، وللأرض عِلمٌ يُسمّىٰ الجيولوجيا، وللأجرام السماوية عِلمٌ يُسمّىٰ الفلَك، ولحياة البشر عِلمٌ يُسمَّىٰ الاجتماع، وللتفكير عِلمٌ يُسَمَّىٰ المنطِق، فإنَّ الفلسفة -التي هي بيت الحكمة وقصْر الحقيقة- عمودها السؤال وذروة سنامها الجواب.

وجريا علىٰ عاداتنا في الحياة حين نَنْتقي مِن الطعام أَطْيبَه ومِن الشراب أَجْودَه ومِن الثياب أَحْسنَه، فكذلك السؤال لا يُطلب عليه ردًّا إلّا عند الموثوق بعِلمِهم ودينهم مِن أرباب الدِّراية والتخصُّص وأهل الخبرة والاطّلاع؛ فلا يُطلَب الماءُ مِن غير النَّبع، ولا يُرتجَىٰ المطرُ مِن سوىٰ السّماء، مع العِلم أنَّ البشرَ عموما يُسعدهم أن يُسألوا لِما في ذلك مِن إقرار ضمني بأنهم يَملكون ما لا يملك السائل ويَعرفون ما لا يعرفه...وفي هذا قال علماءُ الأصول أنَّ علىٰ المُستفْتِي-وكلُّ سائل هو مُستفتي-ألّا يَستفتِي إلَّا مَن يَعلَم أو يَغلِب علىٰ ظنّه أنّه أهلٌ للفتوىٰ، بل ينبغي أنْ يَختار أوثق المُفتِين عِلما ووَرَعا... ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وباستفتاء الماضي واستقراء الواقع؛ نجد أنّنا درَجْنا في الطفولة وكانتْ كثرةُ أسئلتنا[2] مرَضا يَستدعِي استشارة الطبيب مِن قِبَل الأُسْرة، ثمّ في

---

(1) النحل 43، الأنبياء 7

(2) يقول (نيلسون مانديلا) في مذكِّراته: "عندما بدأْتُ أتردّد علىٰ بيوت البِيض دُهِشتُ لكثرة الأسئلة التي يُوجِّهها الأطفالُ إلىٰ آبائهم، كما دُهِشت لحرص الآباء الشديد علىٰ تقديم الإجابات، فقد كانت الأسئلة في أُسرتنا تُعَدّ مصدرا للإزعاج، وكنا نتعلّم بالملاحظة والمحاكاة لا غيْر".

المدرسة وَصَفَنا المُعلِّمون بالثرثرة والشّغَب إنْ أكْثرنا السؤال بينما كان الصامتون هُم أهل الأدب وأرباب الكمال، وفي الجامعة صِرنا أوعيةً يُلقِي فيها الأساتذةُ ما يَشاؤون بلا اعتراض مِن جانبنا أو نقاش، وفي أرْوقة العمل كان المطلوب أن نُوقِّع قبل أن نفهم وأن نوافق قبل أن نناقِش، أمّا في السياسة فكان الإخضاع لا الإقناع وكفانا بعضُ الحكّام-إن لم يكن كلّهم- شرَّ حُرِّية السؤال والانتخابات والبرلمانات... لنجد أنفسَنا في نهاية الشوْط مُدَجَّنين ومُأَدْلَجِين ضمن مجتمعات أَبَويَّة عاجزة جامدة؛ تُجرِّم السؤال فتَعتبره تأليبا وتمرُّدا وعقوقا، ويَضيق صدرُها بالنقاش والحوار حتىٰ عدَّته من عظائم الأمور وكبائر الذنوب، وتَصنع علىٰ عينِها(الرّجُلَ –نعم)علىٰ حدِّ تعبير (شكسبير)؛ وهذا ما أَوْرثَنا الشّلل والخمول، وجرّنا إلىٰ ذيل القافلة، وجرّعَنا ثقافة القطيع.

أمّا ثقافة السؤال التي هي ملْح التقدّم وخبْز التطوّر؛ فجنينٌ يَحتاج الثقة بالنّفس، ووليدٌ ينمو مع الحريّة في التعبير، وشبابٌ يَحيا بالقفْز فوق الجمود علىٰ الموروث و يَأبىٰ العيْش في جلباب الآباء والأجداد، وراشدٌ يَهجر أنفاق الرواية والتقليد إلىٰ آفاق الدراية والتجديد.

وعنها يقول (فولتير): "تستطيع أنْ تحكم علىٰ الرَّجُل مِن أسئلته أكثَر مِن أنْ تحكم عليه مِن أجْوبته".

ويقول (طه حسين): "الذّكيُّ يُعرَف مِن إجاباته، بينما الحكيم يُعرَف مِن أسئلته".

وما فتِئتْ (هدىٰ شعراوي) تُعيد علىٰ مسامع طلّابها كلمةَ أستاذها الفرنسي(كاريه):"لستُ حريصا علىٰ أن تعطيني إجابة صحيحة علىٰ السؤال، وإنّما حرصي كلّ الحرص علىٰ أن تسألني السؤال الصحيح"... وهو ما عبّر عنه المثَلُ القائل: "نصف العِلْمِ حُسْن السّؤال"، وحثَّ عليه (أرسطوطاليس) في وصاياه إلىٰ تلميذه (الاسكندر الأكبر) فقال: "لا يُلام الإنسانُ في ترك الجواب إذا سُئل حتىٰ يَتبيَّن أنَّ السائل قد أَحسن السؤال، لأنَّ حُسْن السؤال سبيلٌ وعِلَّةٌ إلىٰ حُسن الجواب"، وزادها (البدر العيني) إيضاحا وتأكيدا في كتاب(عمدة القارئ) حين قال: "ظواهر الأمور يَستوي الناس في السؤال عنها لاعتراضها أفكارَهم، أمّا ما لَطُف مِن المعاني فلا يَسأل عنها إلّا الراسخون".

ولهذا؛ مِن الحكمة أن نُبادر فنسأل عمّا يَنفعنا في دنيانا ويُنجينا في أُخرانا، وعمّا يُثري عقولنا ويُغْني أرواحنا، وعمّا يَروي ظمَأنا ويَشفي غليلَنا، وعمّا يَرفع شأنَ أوطاننا ويُعلِي مقامَ أُمّتنا...ومِن الحصافة أن نسأل سؤالا مُحدَّدا لا لبس فيه وواضحا لا غموض به، وأن نسأل بصراحة لا وقاحة بها وباحترام لا استفزاز فيه، وأن نسأل في الوقت المناسب والظرف الملائم، وأن نسأل بسقف عال يَتخطّىٰ المألوف ولا يَستثني المستحيل، وأن نلحّ في السؤال إذا لم نحصل علىٰ ما نتوقعه مِن جواب؛ وذلك علىٰ أمل اللحاق بنجاحات (والت ديزني) الذي أَلحَّ في السؤال مرّات ومرّات

مِن أجل الحصول علىٰ قرض يُساعده في أعماله، كما أنّه لا مَناص مِن التحلِّي بفضيلة الصمت بعد السؤال والإنصات للردّ والجواب.

أمّا المذموم والممقوت؛ فهو السؤال عمَّا لا يَنفع؛ كمتنطِّع يَسأل عن عدد الشَّعر بالجِسم وعن عدد الدراهم التي بِيع بها سيدنا يوسف وعن اسم زوجة إبليس...أو السؤال عمّا لا يُعقَل؛ كأحمق يَسأل أبا حنيفة عن موعد الإفطار في رمضان إذا لم تَغرب الشّمس...أو السؤال بغرض التعنُّت والتعجيز؛ كمسلَك اليهود مع سيدنا موسىٰ بسؤاله عن البقرة وطلَبهم رؤية الله جَهرة...أو السؤال بغرض السخرية والازدراء؛ كتلك الأسئلة السِتّة التي وجَّهتْها الكنيسةُ إلىٰ المَشْيخة الإسلامية إبّان احتلال بريطانيا لاستانبول في عام 1918م والتي طلبَتْ عليها إجابة[1] فيما لا يَزيد عن ستمائة كلمة.

القراء الأعزّاء:

الجهلُ داء والمعرفةُ دواء والوعْيُ شفاء، ولا تُنَال المعرفةُ ولا يُدرَك الوعيُ إلّا بالسؤال...اسألوا قبل أنْ تُسأَلوا يَرحمني ويَرحمكم الله.

---

(1) أَوْكلَتْ المشيخةُ مهمّة الرد إلىٰ الشيخ (سعيد النورسي)، فكان ردُّه أنَّ هذه الأسئلة لا يُجاب عليها بستمائة كلمة، ولا بستّ كلمات، ولا بكلمة واحدة، بل ببصْقة واحدة في أفواه السائلين، وهو ما اعتُبر إهانة لبريطانيا وكنيستها، فحُكِم عليه بالإعدام الذي خُفّف لاحقا إلىٰ السجن والنفي.

# 12- كمالُك في إنسانيّتِك

"كثيرةٌ هي عجائب الدنيا،
ولكن أعجبها هو الإنسان"

سوفوكليس

يقول المَثَلُ الصِّيني: إذا أَرَدْتَ أنْ تزرع لِسنة فازْرع قمْحا وإذا أَردْتَ أن تزرع لعشْر سنوات فازْرع شجرة أمَّا إذا أَردْتَ أن تزرع لمائة سنة فازْرع إنسانا... وفي القرن الثالث قبل الميلاد ووسْط عاصمة الفلسفة، حمَل الفيلسوفُ اليوناني (ديوجين) قنديلَه المُتّقد، وصار يَمشي في الدروب ويَطوف بالطُّرقات في غير هُدىً، حتىٰ استخفَّه النّاسُ وبادَروا

بسؤاله: لِمَ تحمل فانوسَك ونورُ الشّمس يَلفّ المكان؟ فأجاب: "إنَّني أبحث عن الإنسان"... كما روَىٰ الحافظ (الذهبي) أنَّ رجلا دقَّ البابَ علىٰ (أبي نُعيم)، فقال: مَن ذا؟ قال: أنا، فقال: مَن أنا؟، قال: رجلٌ مِن ولد آدم، فخرج إليه أبو نُعيم وقبّله قائلا: أهلا ومرحبا، ما ظننْتُ أنَّه بقي مِن هذا النّسل أحد.

وبنظرة بعيدة المدىٰ، نجد أنَّ الإنسانيةُ قد مَرَّت في رحلتها الطويلة[1] عبر الزمن بمراحل قوّة ارتقَتْ فيها إلىٰ أُفق الإنسانيّة الحقّة، وذلك حين لامسَت الأرضُ السماءَ عبر الوحي والرُّسل والأنبياء، فدار الإنسان مُنسجِما مع الكوْن وفْق مراد الله ومشيئته، بينما تتابَعتْ مراحلُ أُخرىٰ مِن الضّعف والسقوط، غاصتْ فيها الإنسانية في أوحال الأنانية ودنَس الشهوات وجُموح الغلَبة وجنون السيطرة، وذلك حين توقَّفَتْ عقاربُ الفِطرة وانطفأ قنديلُ البصيرة ودقَّت ساعةُ الغروب العظيم؛ فشرَع الإنسانُ في إنفاق الوقت والجُهد وإعمال العقل وقدْح زناد الفكر وإهدار التريليونات من الدولارات، وذلك لصُنع البوارج البحرية والطائرات الحربية والمدافع الثقيلة والصواريخ العابرة العابثة والقنابل بأنواعها الذكيّة والغبيّة، ثمَّ جَدَّ ونَشَط وأَرْغىٰ وأَزْبد، ليس لاصطياد الحيتان في البحار ولا لتأديب الأُسْد في الغابات ولا لإخضاع إبليس للسّجود ولا

(1) يقدّر علماءُ الأنثروبولوجيا عمر الإنسان علىٰ الأرض بحوالي 5-7 مليون سنة(والله أعلم).

للقصاص مِن قابيل لهابيل، بـل للفتْك بـذلك الكـائن العظْمـيّ؛ المَكسوّ جِلدًا، والمَحشوّ لحمًا، والمُسمَّىٰ إنسانا.

وهكذا يُجلِّلنا العارُ ويَعترينا الخجلُ حين نتجوَّل في دروب التـاريخ، فنجد العلامات الأشهَر والمحطَّات الأبـرَز؛ ماهي إلا دماءٌ قانيـة وعظـامٌ بالية، خلّفتْها نزاعاتٌ وحروبٌ(1) محَلِّية وعالمية، قُتِل فيها الملايين وأُبِيدَ فيها فصائل من الجنس البشري، وكـان الـدّم وحده هـو المحـرِّك لعجَلـة التـاريخ علـىٰ حـدِّ وصـف قبّطـان الفاشـية(موسـوليني)...وهـو مـا عَلَّلَه وفسَّره الشاعرُ (عيسىٰ الناعوري) في قـصيدة لـه بعنـوان–أخـي الإنـسان– فقال:

"مأساتُنا ليستْ إلاّ مِنْ صُنع أيْديــنا

فمِن أطماعِنا العمياء سوَّدْنا ليالينا

ومِن أحقادِنا الصمّاء هدَّمْنا تآخِيــنا"

كمـا جـسّد الطبيـبُ اليابـاني(متشهيكوهاتـشيا)صـورةً بغيـضة لمـا فعَلـه الإنـسان بأخيـه الإنـسان ضـمن كتابـه(يوميّـات هيروشـيما)، فوصَـف مـا أحدَثتْه الحرارة الرهيبة الناتجة عن انفجار القنبلة النووية في سماء مدينة

---

(1) يُسجِّل التاريخ أنّ أطول حروبه هي الحرب الصليبية التي دامت مئتي عـام(1096-1291م) في سبع غـارات متتاليـة شـنَّها ملـوك أوروبـا علـىٰ ديـار المـسلمين، كمـا قـدَّر المؤرخون قتلىٰ الحرب العالمية الأولىٰ(1914-1918م) بعشرة ملايين وقتلىٰ الحـرب العالمية الثانية(1939-1945م) بخمسين مليونا.

هيروشيما مِن حروقٍ بالغة في المرضىٰ الذين ناظَرهم، فقال: "لم تكن لهم وجوه، فقد احترقتْ عيونُهم وأنوفُهم وأفواهُهم واختفتْ تماما مِن وجوهِهم، كذلك احترقَتْ آذانُهم حتىٰ أصبح من الصّعب التمييز بين وجهِ الرّجُلِ وقفاه"[1].

وسجّل الدكتور (الفنجري) ما عايَنه في مدينة (خان يونس) الفلسطينية عام 1956م فقال: "أخذ اليهودُ يقتحمون البيوت ويُخرِجون الشبابَ والرجالَ بين سنّ الخامسة عشرة والخمسين، وكانوا يأمرون كلّ فوج بحفر حفرة في الساحة الكبيرة. فما أنْ ينتهي منها حتىٰ يطلقون النار عليهم دفعة واحدة، ثم يُحضِرون فوجا جديدا ويأمروهم بدفن زملائهم ثم حفْر حفرة جديدة لأنفسهم![2].

ما هو المقياس الحضاري للإنسان إذنْ؟

وما هو معيار التقدّم والرقيّ الإنسانيّ؟

وما هي مواصفات الإنسانية الحقّة؟

هل هي جودة الطعام والشراب!

أَمْ وفْرة المال وغنائم البورصات!

---

(1) صدَق بعضُ مَن سمّىٰ تلك المأساة بجهنّم النووية.

(2) كتاب (إسرائيل كما عرفتها) لمؤلِّفه ( أحمد شوقي الفنجري).

أَمْ ازدهار الصناعة وزيادة المخترعات!

أَمْ السبْق في مضمار القوّة والجاه!

بمعنىٰ آخر؛ هل ما نصبو إليه وننشده هو إنسان القوّة الذي روّج له السفسطائيّون، ومجَّده الألمانيُّ(نيتشه) حين نشَد (السوبرمان) فاحتقر الضعفاء والعبيد وفلْسَف الحربَ وعادىٰ السلام ومهّد للنّازيّة؟

أَمْ إنسان العقل الذي اتّكأ عليه الغرب عبر مسيرتهم في عصر النّهضة والحداثة؟

أَمْ إنسان الروح الذي رغَّب فيه المُتصوِّفة[1] ونشَدوه في الزوايا المنعزلة عن تيّار الحياة؟

نمتهن الإنسانَ حين نُعَرِّفه بأنّه كائنٌ حيّ ينتمي للثدييات ويَمشي علىٰ قدميْن، كما نظْلمه أشدّ الظلم حين نختصر كيْنونته في حيوان عاقل أو نسجن إمكاناته في حدود حواسّه الخمْس، بينما ننصفه حين نُسلِّم بأنّه سيِّدٌ في هذا الكوْن وقُطْر لتلك الكرة الأرضية، أو كما وصَفه الصوفيّ (ابن عربي) بأنَّه "مفتاح كوْن الوجود" وأنَّه "روح العالَم"؛ إذْ هو أعقَد الكائنات خِلْقة و أقواها سُلْطة وأكرمها قِيمة؛ فله أُنشِيء الكوْن[2]، وأُنزِل

(1) ليس في هذا ذمًّا للتصوّف بمعنىٰ تزكية النفس وتنقية القلوب والارتقاء بالأرواح في مدارج السالكين.

(2) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29].

الوحْي، وسُخِّر البرُّ والبحْر والجوّ، كما أَحسنَ الله تقويمَه ووهبه القوام المُنتصِب وأَسجَدَ له الملائكة وأمَّنَه علىٰ خلافته وكرّر ذكرَه في ثمان وخمسين موضعا قرآنيا، وهو ما ثمّنَه الشاعرُ عاليا بقوله:

"وتَحسبُ أنَّكَ جِرْمٌ صغير وفيكَ انطَوىٰ العالَمُ الأكْبر"[1]

وفي هذا يقول (أوريزون ماردن): " إنّ سِتّين كيلو جراما من العظام والعضلات لا تصنع إنسانا، ولا الجمجمة الكبيرة المملوءة دماغا هي الإنسان، بل يجب أن تعمل تلك العظام والعضلات والدماغ عمل إنسان، وتفتكر أفكار إنسان، وتسير سيْر إنسان، وتتحمّل العبء الذي يجب أن يتحمّله الإنسانُ من الأخلاق والواجبات حتىٰ تؤلِّف إنسانا"، ويقول الأستاذ أحمد أمين: "الطِّفل يقول أنا، والإنسان العادي يقول أُسْرتي، أما الرجل الحقّ فيقول أُمّتي أو عالَمي"...

وعَليه؛ فإنّ السموّ الحضاري والتقدّم الإنساني ورُقِيّه، لا يتحقّق إلا بمقدار ما يزرع الإنسانُ مِن خيرٍ وما يحصد مِن أمْنٍ. وسبيله في ذلك؛ ليس الاستغراق فقط في العلوم الطبيعية أو التمادِي في الاكتشافات الماديّة التي صيّرتْه عبدا يلهث وراءها، فأزاحتْه ببريقها ولمعانها من المركز إلىٰ

(1) هذا البيت مِن الشِّعر المتعدِّد النَّسَب؛ إذْ ينسبه البعض للصوفي (ابن عربي)، بينما ينسبه آخَرون إلىٰ سيدنا (علي ابن أبي طالب)، وينسبه فريق ثالث إلىٰ (ابن سينا). وفي نفس المعنىٰ يقول (الأصفهاني): "الإنسان عالَم صغير والعالَم إنسانٌ كبير".

الزاوية، ومن البؤرة إلىٰ السطح، ومن الحكمة إلىٰ الحماقة علىٰ حد تعبير(تولستوي) الذي وصَف برج إيفل الفرنسي بأنّه شاهِد علىٰ حماقة الإنسان لا علىٰ حكمته.

إنّما السبيل الأوْحد لذلك السُّموّ وذاك التقدّم، هو التحلِّي بثالوث الكمال الإنساني المُؤسَّس علىٰ المعرفة "اقرأ" والأخلاق "وإنّك لعلىٰ خُلُق عظيم" والجمال "إنَّ اللهَ جميلٌ يُحبّ الجَمال"، ليَنهض بعدها بالمُهمَّة المُلقَاة علىٰ عاتقه ويُؤدِّي الأمانةَ التي بادَر بحمْلها، فيُصلح ما بينه وبين نفسه تزكيةً وما بينه وبين ربه عبادةً وما بينه وبين الناس إحسانا وما بينه وبين الكون عمارة...ذلك هو إنسان العِبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:56]، والخِلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

والعِمارة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61].

بَقِيَتْ إشارةٌ أَوْرَدَها صاحبُ كتاب الحكمة العربية (محمد الشيخ)، وقال فيها: أنَّ لفظ الإنسان ذو اشتقاقات لغوية ثلاثة؛ فالكوفيّون يقولون باشتقاقه مِن النّسيان، والبصْريون يُرجِعون اشتقاقه إلىٰ الأُنس بمعنىٰ البدوّ والظهور للعيان، بينما الصّوفيّون يقولون باشتقاقه مِن الأُنس بمعنىٰ الاستئناس المضادّ للوحشة...

أمّا الدكتور (عماد الدين خليل) فقد أبدع في كتابه (مع القرآن) حين عرّف الإنسان بأنه: "ذلك التركيب المتوازِن المعجون بإعجاز رائع من عنصريْ الروح والتراب، والمنسوج بتكامل عجيب من قماش السماوات والأرض، سُداه نداء السماء وصفاؤها ولحمته شدّ الأرض وكدرها".

# الخاتمة

عزيزي القارئ... يُقال أنّ للنَّصِّ دوْما مؤلِّفَيْن: الكاتبُ والقارئ، فقَبْل أنّ أخُطّ سطورَ هذا الكتاب كانت كلماتُه بلُحمتها وسُداها ملكا خالصا لي، أمَا وقد لامَستْها أناملُك وصافَحتْها عيونُك وعانقَها عقلُك، فقد صِرتَ مُنتسِبا إلى ناديها وعُضوا في اتحاد مُلّاكها وصاحب الكلمة الأخيرة فيها، فماذا أنتَ فاعل؟

لكَ أن تقف عند حدود الإعجاب أو التعليق أو المشارَكة على طريقة الكوكب الأزرق المَعروف بالفيسبوك، ولكنِّي ما حملْتُ القلَم ولا سَوّدتُ الورق إلّا طامحا في تغيير فكرة أو تعديل سلوك أو تأكيد مبدأ أو تنمية مهارة، دونما طمع في أن أكون كفيلسوف الأندلس وصاحب حي بن

يقظان(ابن طفيل) الذي قال: "لو لم أعلم أنَّ تَصانيفي(كُتبي) ستبقى بعدي عشرة آلاف سنَة ما وضعْتُها" ...فهل يكون؟

إن كان هذا، فللّه الحمْد والمِنَّة أَنْ وفَّق وسدّد، وله سبحانه وتعالى الدعاء والابتهال بأن يتقبَّل، أمَّا إن كان غير ذلك فلعلَّ ما سطّرته يَدخل في عداد المحاولة ويَندرج تحت بند الاجتهاد الذي قال عنه (طه حسين): "إنّه يُولِّد نوعا من الرضا الذي يَعقب القيام بالواجب، ونوعا مِن الشعور بأنّ المرءَ على مستوى الرسالة التي كُلِّف بها"...

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: 4].

د. منير لطفي
DR36444@YAHOO.COM

# المؤلف في سطور

- د. منير لطفي محمّد علي.
- مواليد ريف الدقهلية 1965م.
- تَخرّج في كلية طب المنصورة 1989م (جيد جدا مع مرتبة الشرف).
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق 1996م (جيد جدا).
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز).
- عضو نقابة أطباء مصر.
- صدَر له... (السكّري الداء والدواء، الغروب الدافئ، أطباء فوق العادة).

تَمَّ بحَمدِ الله

# الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدّمة | 5 |
| **مرحلة الاستعداد** (12 خطوة) | 7 |
| 1- أَيْقِظْ ضميرَك | 8 |
| 2- لا تكُنْ محايدا | 15 |
| 3 – اكْسِر قيودَك | 20 |
| 4 – صادِقْ ولا تُعادِ | 29 |
| 5- لا تُخِفْ ولا تَخَفْ | 35 |
| 6- انْصر مظلوما | 43 |
| 7- لا تَحزنْ | 50 |
| 8- افْتقِرْ إلى الله تكُن أغْنى النّاس | 56 |

الموضوع الصفحة

9- حاذِرْ مِن فتنة المال ........................................ 64
10- عقلُك عُمْرك ........................................ 72
11- أَدِّ واجبَك وطالِب بحقِّك ........................................ 79
12-عليكَ بالأدَب الحقّ ........................................ 85
**مرحلة الانطلاق (12 خطوة)** ........................................ 93
1- اصْنع مِن الماضي الجميل حاضرًا أجمل ........................................ 94
2- احْلَم تَسعَدْ ........................................ 100
3- أمانُك في إيمانِك ........................................ 105
4- صِلْ لا تَتواصَلْ ........................................ 111
5- لا تُسْلِم قيادَك لِجُوبَلزي ........................................ 118
6- فَعِّل بطاقاتِك الحمراء ........................................ 124
7- كُن رسولا للقِيَم ........................................ 129
8- صَلِّ لا تَترَيَّض ........................................ 135
9- اقْهر النسيانَ بالتكرار ........................................ 141
10- حضارتُك أصيلة...فاسْتعِدْها ........................................ 146
11- حتى في وفائك...لا تُبالِغْ ........................................ 154

**الموضوع** **الصفحة**

12- شَمِّرْ ساعِديْك...فالقِمّة في انتظارِك ..... 161

**مرحلة الوصول (12 خطوة)** ..... 167

1- تَفقَّدْ قلْبَك ..... 168

2- سعادتُك بيْن جنبيْك ..... 173

3- انْفخ الرّوحَ في وقتِك الميت ..... 182

4- لا تكُنْ عُرْقوبا ..... 190

5-وعْيُك سلاحُك ..... 195

6- كُنْ قُدوة ولا تكُنْ عِبْرة ..... 204

7- انْتبِه...فالعِشْق رِقّ ..... 210

8- اعْتذِر واغْتفِر ..... 215

9- لوِّن حياتَك ..... 222

10- اخْتَرْ كلماتِك كما تختار طعامَك ..... 229

11-اسْألْ قبل أن تُسأَل ..... 236

12- كمالُك في إنسانيّتِك ..... 243

الخاتمة ..... 251

المؤلف في سطور ..... 253

## هذا الكتاب...

ما هو إلا اصطفاف مع تلك القِلّة القليلة التي تَأنف نقائص النفوس وتَعاف تشوّهات العقول، فتمنح الحياة قوة الروح وسلطة الضمير؛ أردْتُه جهاز صدمات ينعش القلب، ووخْز إبرٍ يفتك بالداء، وحقيبة إسعاف ملأى بالضمادات؛ فكان نثرا لِطيْف مِن المقالات، وحشدا لكتيبةٍ من الرؤى والأفكار؛ أشير فيها لتلك الجروح التي جاوزَتْ العظامَ فلامسَتْ النخاع، وأحاول نسج خيوطٍ ترتق الفتق وتُبرئ الجرح... وبالله وحده التوفيق والسداد.

المؤلّف

د.منير لطفي

by Usama Taha Paradise Media

9 789778 536065

عالم الثقافة
WORLD OF CULTURE
دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع
٤٨ شارع العروبة - المعادي الجديدة - القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٠٠٢٠١٠٠٨٦٩٨٦٠ البريد الإلكتروني : a_althkafa@hotmail.com